النبوة والأنبياء

دراسة تفصيلية لحياة الرسل الكرام ودعوتهم،
وأثرهم في تغيير مفاهيم البشر، بأسلوب يجمع بين الدقة
والسهولة، والجدة والتحقيق

بقلم
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
بمكة المكرمة

مكتبة الغزالي

الطبعة الثانية
١٤٠٠ ﻫ – ١٩٨٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء وصفوة الخلائق سيدنا ومولانا محمد الذي بعثه الله رحمة للعالمين ، وعلى آله وأصحابه نجوم الدجى وشموس العلم والعرفان ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فهذه محاضرات في « تاريخ الأنبياء » صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ألقيتها على طلبة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة قسم « التاريخ » ، وقد راعيت فيها الإيجاز والتنقيح للأخبار فتركت الغثّ وأخذت الصحيح السمين ، واعتمدت على أوثق المصادر ألا وهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فأكثرت من الاستشهاد به ، ثم على أقوال المفسرين الموثوقين ، كما أخذت بالأخبار الثابتة الصحيحة من كلام سيد المرسلين وقد رجعت إلى الكتب التاريخية ، فانتقيت منها الأخبار التي توافق ما جاء في الكتاب والسنة ولا تخالف المعقول ، وطرحت منها ما كان من « إسرائيليات » بعيدة عن منطق العقل والدين. وقد رأيت أن أجمعها في كتاب تعميماً للفائدة ونشراً للعلم . والله أسأل أن ينفع بها أبناءنا الطلاب وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم إنه سميع مجيب الدعاء ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

محمد علي الصابوني

الاستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

بمكة المكرمة

غرة رجب الفرد سنة ١٣٩٠هـ

الفصل الأول

النبوة والأنبياء

١ ــ تمهيد
٢ ــ النبوة هبة ربانية
٣ ــ الفرق بين النبوة والملك
٤ ــ ما الفرق بين النبي والرسول
٥ ــ الأنبياء صفوة البشر
٦ ــ محمد سيد الأولين والآخرين
٧ ــ هل يجوز التفضيل بين الأنبياء
٨ ــ لماذا كان الأنبياء بشراً
٩ ــ مهمة الرسل الكرام .

تمهيد :

لا بد قبل البدء في الحديث عن « النبوة والأنبياء » أن نوضّح معنى النبوة ، وأن نذكر ملامحها ومزاياها ، وان نبين صفات الأنبياء وخصائص الدعوة التي جاءوا بها ، ليتبين لنا الأثر العظيم الذي تركه الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم في المجتمعات التي ولدوا فيها ، وبين الأمم الذين بعثوا إليهم . ومدى هذا التأثير في تغيير مفاهيم الأمم وعقائدهم التي نشأوا عليها ، فقد انتقلوا بهم من الظلمات إلى النور، واخرجوهم من الضلالة إلى الهدى . فكانت دعوة الأنبياء انقاذاً للأمم من براثن الشرك والوثنية ، وتطهيراً للمجتمع من أدران التحلل والفساد ، والفوضى والاضطراب .. وفي ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ كانَ النّاسُ أمةً واحدةً فبعثَ اللهُ النّبيينَ مبشّرينَ ومنْذِرينَ ، وأنزلَ معهُم الكتابَ بالحقّ ليحكُمَ بينَ النّاسِ فيما اختَلَفوا فيه ، وما اختَلَفَ فيه إلاّ الذينَ أوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البيّنَاتِ بغْياً بينهُمْ ، فهدَى اللهُ الذينَ آمنُوا لِما اختَلفُوا فيهِ مِنَ الحَقّ بإذنهِ . واللهُ يهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقيمٍ ﴾ .

فأشارت هذه الآية الكريمة إلى أن الناس كانوا على الهدى وعلى دين الحق، ولكنهم اختلفوا وتنازعوا وأفسدوا في الأرض ، وحادوا عن الطريق القويم ، فبعث الله تعالى لهم النبيين مبشرين ومنذرين .. « روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كانوا على الحق حتى

اختلفوا فبعث الله اليهم نوحاً والنبيين من بعده » .

وأوضح الباري جل وعلا الغاية من بعثه الرسل الكرام فقال وهو أصدق القائلين : ﴿ رُسلاً مبشِّرينَ ومنذرينَ لئلا يكونَ للنّاسِ على اللهِ حجةٌ بعدَ الرّسُلِ ، وكان اللهُ عزيزاً حكيما ﴾ .

كما جعل كل رسول منقذاً لقومه من ظلمات الجهل والضلالة فقال جلت عظمته :

﴿ ولَقَدْ أرسَلْنَا موسى بآياتِنَا أنْ أخْرِجْ قوْمَكَ مِنَ الظّلماتِ إلى النّورِ ، وذكّرْهُمْ بأيّامِ اللهِ ، إنّ في ذلكَ لآياتٍ لكُلّ صَبّارٍ شَكُورٍ ﴾.

النبوة هبة ربانية :

النبوة فضل إلهي وهبة ربانية ، يهبها الله لمن يشاء من عباده ، ويختص لها من يريد من خلقه ، وهي لا تدرك بالجد والتعب ، ولا تنال بكثرة الطاعة والعبادة ، وإنما هي بمحض الفضل الإلهي ﴿ يختصّ برحمتِهِ مَنْ يشاءُ ، واللهُ ذو الفضْلِ العظيمِ ﴾ .!

فهي إذا (اصطفاء واختيار) ولا تكون إلا لمن اختاره الله تبارك وتعالى لها ، ممن هم أهل لحملها ، لأنها حمل ثقيل وتكليف عظيم ، لا يقدر عليه إلا أولو العزم من الرجال ، كما قال تعالى مخاطباً خاتم الأنبياء والمرسلين ﴿ إنّا سَنُلْقي عليكَ قَوْلاً ثقيلاً ﴾..والنبوة لا تكون بالوراثة ، ولا تكون بطريق الغلبة والاستعلاء ، إنما هي اختيار ، يختار الله سبحانه وتعالى لها أفضل خلقه ، وصفوة عباده ، يختارهم لحمل الرسالة ، ويصطفيهم من بين سائر البشر لهذا العمل الجليل كما وضح الباري جل وعلا ذلك في كتابه العزيز فقال ﴿ اللهُ يصْطَفي من الملائكةِ رسلاً ومنَ النّاسِ إنّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ ﴾ وقال جلت عظمته ﴿ إنّ اللهَ اصطَفى آدمَ ونوحاً وآل ابراهيمَ وآل عِمرانَ على العالمينَ ﴾ وقال في معرض الحديث عن بعض الرسل ﴿ وإنّهم عِنْدِنَا لمنَ المُصْطَفين الأخْيَارِ ﴾ .

اعتراض المشركين على نبوة محمد :

وحين اعترض المشركون – من كفار قريش – على رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه واستغربوا أن تنزل « الرسالة » على يتيم فقير ، لا يملك من أسباب القوة والغنى شيئاً ، وليس له من مظاهر السلطان والملك ما يجعله في نظرهم عظيماً ، وحين رأوا – بنظرهم القاصر – أن النبوة ينبغي ان تكون لغنيٍّ عظيم ، شريف ، من السادة والزعماء ، من أشراف قريش وعظمائها ، ومن سادتها ووجهائها ؛ جاء الرد الإلهي الزاجر ، فحكى الله سبحانه وتعالى شبهتهم ، وردّ عليهم بأسلوب مفحم قاصم فقال وهو أصدق القائلين ﴿ وقالوا لولا نزِّل هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتَيْنِ عظيمٌ . أهم يقْسمون رحمة ربِّكَ ؟ نحن قسمنا بينهمْ معيشتهُم في الحياةِ الدنيا ، ورفعنا بعضَهُم فوق بعضٍ درجات ، ليتّخذَ بعضُهم بعضاً سُخْريّاً ، ورحمةُ ربِّك خيرٌ مما يجمعون ﴾ .

فالآية الكريمة ردت على المشركين سخفهم وحماقتهم حين زعموا أن النبوة لا تليق إلا برجل من الأغنياء ومن العظماء ، لا بإنسان فقير يتيم كيتيم أبي طالب ، وقد رد الله تعالى عليهم بأن النبوة اصطفاء واختيار ، يختار الله لها من شاء من خلقه ﴿ اللهُ أعلمُ حيث يجعلُ رسالته ﴾ وإذا كانت النبوة أعظم شأناً من المال والجاه ، والسلطان ، وكانت حكمة الله العلية قد حددت لكل إنسان رزقه ، ولكل مخلوق حظه من المال والرزق ، والمال بالنسبة للنبوة أمر حقير ، فكيف يترك الأمر الجليل العظيم وهو « الرسالة والنبوة » إلى أهواء الناس ورغباتهم ؟؟ فإذا لم يشأ الله تعالى أن يترك أمر الرزق لأهل الأرض بل قسم ووزع وحدّد لكلٍّ نصيبه فكيف يترك أمر النبوة إلى أهواء الناس ؟ وهذا هو السر الدقيق ، في التعبير بقوله جل وعلا ﴿ نحن قسمنا بينهُمْ معيشتهُمْ في الحياة الدنيا ﴾ فالذي وهب الرزق هو الذي وهب النبوة .

الفرق بين النبوّة والملك :

ان النبوة هبة من الله ، واختصاص من العلي القدير ، لمن شاء من خلقه ،

وهي تختلف عن الملك والسلطان في نقاط جوهرية ، نذكر منها أهمها وهي :

أولاً : النبوة لا تكون بالارث فولد النبي لا يكون نبياً بطريق الإرث عن أبيه ، بل هي بمحض الفضل الإلهي ، والاصطفاء الرباني ﴿ولقد اخترناهم على علم على العالمينَ﴾ ﴿انَّ اللهَ اصْطفى آدمَ ونوحاً وآلَ ابراهيمَ وآلَ عمرانَ على العالمينَ﴾ .

ثانياً : النبوة لا تُعطى لكافر أبداً ، ولا تعطى إلا للمؤمن ، بخلاف السلطان والملك فقد يعطى لغير المؤمن قال تعالى حكاية عن فرعون ﴿ونادى فرعونُ في قومه قالَ : يا قوم أليس لي ملك مصر ، وهذه الأنهارُ تجري منْ تحتي ، أفلا تُبصرون ؟﴾ وكما قال عن « النمروذ » الذي ادعى الألوهية في زمن ابراهيم الخليل : ﴿ألمْ ترَ إلى الذي حاجَّ ابراهيم في ربّه أنْ آتاهُ الله الملك ، إذ قال ابراهيمُ ربيِّ الذي يُحيي ويُميتُ ، قال أنا أحيي وأميتُ ، قال إبراهيم فإنَّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب ؟ فبُهت الذي كفرَ والله لا يهدي القومِ الظّالمين﴾

ثالثاً : النبوة خاصة بالرجال ، ولا تكون للنساء أبداً [1] ، والحكمة من تخصيص الرجال بالنبوة دون النساء ان النبوة عبء ثقيل ، وتكليف شاق لا تتحمله طبيعة المرأة الضعيفة ، لأنه يحتاج إلى مجاهدة ومصابرة ، ولهذا كان جميع الرسل في محنة قاسية مع أقوامهم ، وابتلوا ابتلاء شديداً في سبيل تبليغ دعوة الله ﴿ فاصبرْ كما صبر أولو العزم من الرُّسل﴾ والدليل على أن النبوة خاصة بالرجال قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلِكَ إلاّ رجالاً نُوحي إليهمْ فاسألوا أهلَ الذِّكر إنْ كنتمْ لا تعلمون﴾ . قال في الجوهرة :

« وما كانت نبياً قطُّ أُنثى ولا عبداً قبيحاً في الفعال »

---

(١) ما يقوله بعضهم ان النبوة قد تكون في النساء مستدلا بقوله تعالى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ..) الآية . فإنه استدلال خاطىء ، لأن الوحي ليس بانزال ملك وإنما هو بطريق (الإلهام) فقد أخبر تعالى بأنه أوحى إلى النحل (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ..) فهل يصح أن نقول ان النحل قد نبأه الله تعالى .

رابعاً : النبوة لها ميدان واسع ، وغرض نبيل ، وهدف من أسمى الأهداف ودعوتها الأساسية ، إنما هي الدعوة إلى (الإيمان بالله) والدعوة إلى (الإيمان بالآخرة) وايثارها على الحياة الدنيا الفانية ، التي يطمع فيها كثير من الناس ﴿وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور﴾ والملك يتعارض مع هذه الدعوة، لأنه مظهر من مظاهر العظمة الدنيوية التي جاء بالتزهيد عنها الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم .. فلو كان الأنبياء هم (الملوك) والأمراء والسلاطين ، ثم دعوا الناس إلى الزهد في الدنيا ، والتعلق بالآخرة لما كان لدعوتهم أي وقع أو أثر في النفوس .. لأنهم يعيشون عيش الملوك ثم يزهدون الناس في هذه الحياة والداعي إذا لم يكن بسيرته قدوة فلن يكون لكلامه أي تأثير .. وليس معنى هذا أنه يمتنع اجتماع (النبوة والملك) في انسان ، فقد يجتمعان في الشخص الواحد كما حصل لسيدنا (سليمان بن داود) عليه السلام ، ولكنه قليل ونادر ، وقد ذكر ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿قال ربِّ اغفرْ لي وهَب لي مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنّكَ أنتَ الوَّهاب ، فسخَّرْنا له الريح تجري بأمرهِ رُخاءً حيثُ أصابَ ، والشياطينَ كلَّ بنَّاءٍ وغواصٍ . وآخرينَ مُقرَّنين في الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنُنْ أو أمسك بغير حساب﴾ .

ما الفرق بين النبي والرسول ؟

النبي هو : انسان من البشر أوحى الله تعالى إليه بشرع ، ولكنه لم يكلف بالتبليغ .

وأما الرسول فهو : انسان من البشر ، أوحى الله تعالى إليه بشرع ، وأمر بتبليغه .

فالرسالة إذاً أعلى مرتبة من النبوة .. لأن كل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا ، وعدد الأنبياء لا يحصى إذ يزيد عددهم — على ما جاء في بعض الآثار مائة وعشرين ألفاً (١٢٠) ألفاً [١] .. أما الرسل فهم قلة ، والذين ذكروا

(١) روى الإمام أحمد عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله أي =

في القرآن الكريم يجب الإيمان بهم تفصيلاً وهم (٢٥) خمسة وعشرون وكلهم من الرسل وهم كالآتي :

(آدم ، نوح ، إبراهيم ، اسماعيل ، اسحق ، يعقوب ، داود ، سليمان ، أيوب ، يوسف ، موسى ، هارون ، زكريا ، يحيى ، إدريس ، يونس ، هود ، شعيب ، صالح ، لوط ، إلياس ، إليسع ، ذو الكفل ، عيسى ، محمد) صلوت الله عليهم أجمعين .

وهؤلاء يجب الإيمان بهم (تفصيلا) بمعنى أنه يتعيَّن التصديق برسالتهم بأشخاصهم وأسمائهم ، لأنهم ذكروا في القرآن الكريم ، أما بقية الأنبياء فيجب الإيمان بهم (جملة) بمعنى أن نصدق بأن هناك أنبياء غير هؤلاء الذين ذكروا في الكتاب العزيز ، لأن الله تبارك وتعالى قد أخبر عنهم بقوله ﴿ورسلا قد قصَصْناهم عليك من قبل ورسلاً لمْ نقْصُصْهم عليك ، وكلَّم اللهُ موسى تكليما﴾.

وقد جمع هؤلاء الرسل في آية كريمة ، ذكر منهم فيها (١٨) ثمانية عشر ، والسبعة الباقون ذكروا في آيات متفرقة من كتاب الله الكريم .. أما الآية الكريمة فهي قوله تعالى: ﴿وتلك حُجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ، نرفعُ درجات من نشاءُ ، إنَّ ربَّك حكيمٌ عليمٌ. ووهبنا له اسحاقَ ، ويعقوب ، كلا هدَيْنا ، ونوحاً هديْنا من قبل ، ومن ذريَّته داودَ ، وسليمانَ ، وأيوبَ ، ويوسفَ وموسى ، وهارونَ ، وكذلك نجزي المحسنين. وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وإلياسَ ، كلٌّ من الصَّالحين وإسماعيل ، واليَسَعَ ، ويونُس ، ولوطاً ، وكلاً فضَّلْنا على العالمين. ومن آبائهمْ وذريَّاتهمْ واخوانهم ، واجْتبيْناهم وهديْناهم إلى صراطٍ مستقيمٍ﴾ .

= الأنبياء كان أول ؟ قال : آدم. قلت يا رسول الله : ونبي كان ؟ قال : نعم ، نبي مكلم ، قلت يا رسول الله كم المرسلون ؟ قال ثلاثمائة وبضعة عشر ، جماً غفيراً. وفي رواية أبي أمامة قال أبو ذر قلت يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء قال : مائة ألف وعشرون ألفاً ، الرسل من ذلك ثلاثمئة وخمسة عشر جماً غفيراً . «رواه أحمد» .

وقد جمع بقية الرسل في بيتين من الشعر تسهيلاً للحفظ وهما :

« في تلكَ حجّتُنا منهم ثمانيةٌ   من بعد عشر ،ويبقى سبعةٌ وهُموا »
إدريسُ ،هودٌ ،شعيبٌ ،صالحٌ وكذا   ذو الكفل ، آدمُ ، بالمختار قدختموا »

وأما الدليل على أن الرسل الكرام مأمورون بتبليغ الرسالة،وأنهم يختلفون عن الأنبياء في هذه النقطة بالذات ، فهو النص القرآني الكريم وهوقوله تعالى ﴿ الذين يُبلّغون رسالات الله ويخْشَونه ولا يخْشَون أحداً إلاّ الله،وكفى بالله حسيبا ﴾ .

وقوله تعالى مخاطباً سيد الرسل :

﴿يا أيُّها الرّسول بلّغْ ما أُنزل إليك من ربّك،وإنْ لم تفعل فما بلّغت رسالتهُ والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ .

الأنبياء صفوة البشر :

اختار الله عز وجل من بين خلقه ، فريقاً من البشر ، ليكونوا نموذجاً للكمال ، وعنواناً للفضل ، وحملة لمشعل النور والضياء وقادة لركب الحضارة الإنسانية ، على مدى الأزمان وكر الدهور .. واصطفاهم المولى — جلّت حكمته ليكونوا هداة ومصلحين ، فاختارهم على علمه، ورباهم على عينه ، وشرفهم بأكمل الأوصاف ، فجعلهم أئمة الدنيا والدين ﴿ وجعلْنَاهُم أئمةً يَهْدُونَ بأمْرِنَا ، وأوحَيْنَا إليهم فِعْلَ الخيْرَاتِ ، وإقامَ الصّلاةِ وإيتاءَ الزّكاةِ وكَانُوا لَنَا عَابِدين ﴾ .

هؤلاء الصفوة المختارة من عباد الله هم « الأنبياء والمرسلون » الذين شرفهم الله بالنبوة ، وأعطاهم الحكمة ، ورزقهم قوة العقل، وسداد الرأي، واصطفاهم ليكونوا وسطاء بينه وبين خلقه ، يبلغونهم أوامر الله عز وجل .. ويحذرونهم غضبه وعقابه ، ويرشدونهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة .

فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم هم خيرة الخلق ، وصفوة البشر .. وهذا الاكرام لهم بالنبوة إنما هو بمحض الفضل الإلهي والحكمة الربانية ، ولا يمكن لأحد من البشر – مهما سما في سلّم الكمال – أن ينال مرتبة النبوة عن طريق الرياضة النفسية ، أو الجهد في الطاعة والعبادة ، فإن النبوة لا تنال بالكسب ولا تحصل بالعزم والمثابرة على فعل الخير والطاعة كما مرّ معنا ، إنما هي هبة من الله واصطفاء واختيار ﴿ اللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالته ﴾ ..

التفاضل بين الأنبياء :

وهؤلاء الأنبياء الأطهار ليسوا بدرجة واحدة من الفضل والمكانة ، بل بعضهم أفضل من بعض ، فقد جعلهم الله تعالى درجات ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾.. ويقول أيضاً : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ، وآتَيْنَا دَاوُدَ زبورا ﴾ .

ومن الرسل الكرام من سماهم القرآن الكريم (أولى العزم) وهم قادة الأنبياء وسادتهم وقد ذكرهم الله تعالى بالثناء العاطر ، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقتدى بهم في جهادهم وصبرهم ، فقال عز من قائل : ﴿فاصبِرِ كَمَا صَبَرَ أولُو العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ .. الآية ﴾ .

وإنما سموا (بأولي العزم) لأن عزائمهم كانت قوية ، وابتلاءهم كان شديداً، وجهادهم كان شاقاً ومريراً .. فمنهم من صبر على البلاء والتكذيب القرون الطويلة ، وتعاقبت عليه الأجيال العديدة ، لأنه عمر طويلا ، ولكن حياته كانت كلّها محناً وشدائد (كنوح) عليه السلام الذي لبث في قومه قريباً من ألف عام ولم يؤمن معه إلا قليل ، وصدق الله حيث يقول : ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلَبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عاماً ، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾

وقال تعالى ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ .

ومنهم من وصلت به الشدة والكربة ، ونال من قومه الشدائد والأهوال ، إلى درجة أنهم حكموا عليه بالتحريق بالنار ، كابراهيم عليه السلام ، خليل الرحمن ، فقد كانت عقوبته في سبيل تبليغ دعوة الله . الاحراق بالنار ، ولكن عز وجل نجّاه فأمر النار أن تكون برداً وسلاماً عليه ﴿قُلْنَا يا نَارُ كُونِي بَرداً وسَلاماً على إبْراهيمَ .وأرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأخْسرِيْنَ﴾.

وهكذا بقية أولي العزم كموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، كلهم أوذوا ، واضطهدوا وشرّدوا ، فتحملوا الأذى والعذاب ، وصبروا على البلاء والشدة﴿ فما وَهَنوا لما أصابهُم في سبيلِ اللهِ وما ضعُفُوا ، وما اسْتَكانوا ، واللهُ يحبّ الصّابرين﴾ ولهذا استحقوا أن يكونوا قادة الأنبياء، وسادة الرسل ، وأن يحملوا اللواء في سبيل عزّة الإنسانية ، وانتشالها من براثن الشرك ، والضلال ، إلى نور التوحيد والإيمان .

محمد سيد الأولين والآخرين :

وأفضل الرسل إنما هو صفوة الخلق ، وخاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو آخر الأنبياء في البعثة ، وأفضلهم في المنزلة والرتبة .. كما أن القرآن العظيم آخر الكتب السماوية وهو أشرفها وأفضلها ، فقد ختم الله تعالى بمحمد صلى الله عليه وسلم النبوة ، كما ختم بالقرآن الكريم الوحي ، فكان ختام المسك ، وواسطة العقد ، قال تعالى :

﴿ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكُم ، ولكنْ رسولَ اللهِ وخاتَمَ النبيينَ ، وكان اللهُ بكلِّ شيءٍ عليماً ﴾ .

ومما يدل على أن محمداً ﷺ سيد الرسل وأفضل الأنبياء والمرسلين ، أنه لم يبعث نبي قطٌّ إلا وقد أخذ الله تعالى عليه العهد والميثاق إنْ أدرك محمداً في حياته ليؤمنن به ، وليكونن من أنصاره وأتباعه فهذا من أعظم الشواهد على جليل قدره ، وعظيم فضله ﷺ ، وفي ذلك يقول المولى عز وجل :

﴿وإذ أخذَ اللهُ ميثاقَ (١) النبيّينَ، لَمَا آتيتُكُم مِن كتابٍ(٢) وحكْمَة ، ثمّ جاءَكُم رَسُولٌ مصدّقٌ لما معكم لَتُؤْمِنُنّ به ولَتَنْصُرُنّه ، قالَ أأقْرَرتُم وأخذتم على ذلكم إصْري (٣) ؟ قالُوا : أقْرَرنا ، قالَ فاشْهَدُوا وأنَا مَعَكُم مِنَ الشّاهِدِيْنَ﴾ .

ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه مبيناً علو المنزلة التي أعطاه إياها بالسيادة في الدنيا والآخرة :

(أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي ،آدم فمن سواه،إلا تحت لوائي ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع ، وأنا أول من يحرك حلق الجنة ، فيدخلنيها الله ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين على ربي ولا فخر..) « رواه الترمذي»

وأشار العلامة (القاضي عياض) في كتابه (الشفاء) إلى منزع لطيف من القرآن الكريم في أفضلية الرسول ﷺ على سائر الرسل الكرام ، وبيان أنه أشرفهم وأفضلهم . وذلك لأن الله تعالى قد خاطب الرسل وناداهم بأسمائهم فقال عز من قائل في شأن ابراهيم عليه السلام :

﴿يا ابراهيمُ قد صدّقتَ الرؤيا ، إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ .

وقال في حق نوح عليه السلام : ﴿يا نوحُ اهبِطْ بسلامٍ منّا وبركاتٍ عليكَ وعلى أممٍ ممن معك ..﴾

وقال في نداء موسى عليه السلام : ﴿يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾ .

وقال مخاطباً عيسى بن مريم عليه السلام :﴿ وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون

---

(١) ميثاق النبيين : الميثاق : العهد المؤكد .

(٢) لما آتيتكم من كتاب : أي بسبب نعمتي عليكم بالنبوة والوحي .

(٣) اصري : أي عهدي ، فقد أخذ الله العهد على جميع الأنبياء أنهم ان ادركوا زمان محمد ان يؤمنوا به وينصروه ، وينضووا تحت لوائه ويصبحوا من اتباعه صلى الله عليه وسلم .

لي أن أقولَ ما ليسَ لي بحقٍ ﴾ الآية .

وهكذا بقية الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ناداهم بأسمائهم التي سموا بها إلا خاتم الرسل ﷺ فقد خاطبه الله تعالى بوصف النبوة أو الرسالة ، اظهاراً لعظيم قدره ،وجلال فضله ، فقال عز من قائلْ :

﴿ يا أيها النبي انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا ﴾ .

وقال تبارك وتعالى :

﴿ يا أيها النبي حسبُكَ اللهُ ومنِ اتّبعك من المؤمنين ﴾ .

وقال جلت حكمته :

﴿ يا أيها الرسولُ بلّغْ ما أُنزل إليكَ من ربك، وإنْ لم تفعَلْ فما بلّغتَ رسالتَهُ واللهُ يعصِمُكَ من الناسِ ﴾ .

وقال جل شأنه :

﴿ يا أيها الرسول لا يَحزُنْكَ الذينَ يسارعونَ في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمنْ قلوبهم .. الآية ﴾.

ولا نجد في كتاب الله عز وجل آية فيها خطاب للنبي ﷺ باسمه الصريح ، مثل ما جاء في خطاب الأنبياء ، وإنما كل الآيات الكريمة تخاطبه بلفظ النبوة وليس في الآيات الكريمة آية واحدة تقول يا محمد .. وهذا من ألطف الاشارات إلى عظيم قدره ﷺ ، وإلى أنه أفضل الرسل على الاطلاق[1] .

فصلوات ربي وسلامه على صفوة الخلق ، المبعوث رحمة للعالمين ، الذي خصه الله تبارك وتعالى بالشرف العظيم الذي لا يدانيه فيه أحد ، وجعله سيد الأولين والآخرين ، ولقد أحسن من قال :

«محمد صفوة البـاري ورحمتـه   وخيرة الله من عرب ومن عجم»

هل يجوز التفضيل بين الأنبياء ؟

وقد يقول قائل : كيف تفضلون بين الأنبياء والرسل ، وقد قال القرآن

---

(١) انظر كتاب الشفاء للقاضي عياض .

الكريم : ﴿لا نفرّق بين أحد من رسله ..﴾ ؟؟

والجواب : أن المراد في الآية الكريمة من التفريق بين الرسل هو أن يؤمن الإنسان ببعض الرسل ويكفر ببعض ، كما فعل أهل الكتاب (اليهود والنصارى) حيث آمنوا برسالة بعض الأنبياء وكفروا برسالة الآخرين ، ففرقوا بين الرسل، وقد وضح الله سبحانه وتعالى هذا المعنى في آيات كثيرة منها قوله تباركوتعالى :

﴿ان الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً . أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾.

وليس المراد من التفريق (التفضيل) بين الرسل،بدليل أن الله تعالى قد فضل بعضهم على بعض بصريح القرآن فقال عز من قائل :

﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلّم اللهُ ورفع بعضهم درجات ، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ..﴾ الآية .

وقال تعالى :

﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ، وآتينا داود زبورا ﴾ .

فهذا المراد من الآية الكريمة قد أوضحته الآيات الأخرى ، كما أوضحه بيان الرسول ﷺ حيث قال كما في صحيح مسلم :

(والذي نفسي بيده ، لا يسمع بي أحد من هؤلاء يهودي ولا نصراني ، ثم لا يؤمن بالذي أرسلت به الا أدخله الله النار) .

بعثة الأنبياء :

من رحمة الله تبارك وتعالى بعباده .. ومن جميل لطفه بهم واحسانه إليهم.. أن بعث إليهم الأنبياء والمرسلين مبشرين ومنذرين ، ليكونوا منارات للهدى وأعلاماً للفضيلة ، ونجوماً زاهرة في سماء الإنسانية ، تضيء للعالم طريق الخير وترشدهم إلى السعادة ، وتنقذهم من براثن الشرك والوثنية ، وتسمو بهم إلى مدارج العز والكمال .

وقد جرت سُنة الله في خلقه ألاّ يعاقب أمة قبل أن يبعث إليها رسولا يدعوها إلى البر والخير ، وينهاها عن السوء والشر ، وذلك حتى لا يدع لأحد

من البشر عذراً ، ﴿وما كنا معذِّبين حتى نبعثَ رسولا﴾ ولئلا يقول الناس يوم القيامة ﴿ ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾ ،أو يتخذوا منها ذريعة لعدم الإيمان، أو حجة على الله تعالى في عدم استحقاقهم للعذاب ﴿ ولوْ أنـّا أهلكناهُم بعذابٍ من قبلِه لقالوا ربنا لولا أرسَلْتَ إلينا رسولا فنتبعَ آياتك منْ قبلِ أن نَذِلَّ ونَخزَى﴾ .

لماذا كان الأنبياء من البشر ؟

لما كان الغرض من بعثة الأنبياء الكرام ، عليهم أفضل الصلاة والسلام أن يكونوا سفراء بين الله تبارك وتعالى وبين عباده ، حتى يبلغوا الناس أوامر الله تعالى ونواهيه ، ويرشدوا الخلق إلى ما يحبه الباري جل وعلا وما يبغضه ، ويكونوا قدوة للبشر في سلوكهم وأخلاقهم وتصرفاتهم..ولمـّا كان لا بد في الوسيط (السفير) أن يكون ممن يمكن الاجتماع به والأخذ عنه .. لذلك بعث الله تبارك وتعالى الرسل من البشر ، ليبلِّغوا أوامر الله ، ويدعو الناس إلى سعادة الدنيا والآخرة .

ولو كان الرسل من (الملائكة) لما استطاع البشر أن يأخذوا عنهم أوْ يجتمعوا بهم .. ولكان للناس حجة في عدم الاتباع للرسل وهو أن يقولوا : هؤلاء الذين بعثهم الله إلينا ، وأمرنا باتباعهم ليسوا من جنسنا .. ليسوا بشراً إنما هم (ملائكة) وطبيعتنا تختلف عن طبيعتهم ، فهم أسمى منا خلـُقاً،وأطهر منا عملا،وأكرم مقاماً..لأن الملائكة الأطهار كما أخبر عنهم رب العزة جل وعلا.

﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ .

وأنهم دائماً في عبادة لا ينقطعون عنها أبدا :

﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ .

ثم ان الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ، وليس فيهم شهوة أو ميل إلى المعصية ، لأنهم عباد مكرمون . ومن ناحية أخرى لو كان الرسول الذي يبعث إلى الخلق (مَلَكا) لما استطاع البشر أن يأخذوا عنه،أو يجتمعوا به ، لأنه ان

جاءهم بصورة (ملكية) فزعوا وصعقوا وولوا الأدبار هرباً وفزعاً منه ، لأنهم لم يعهدوا مثل هذه الصورة ولم يروا مثل هذا الخلق العظيم .

روي أن النبي ﷺ رجع في بعض أيامه من غار حراء فسمع صوتاً فنظر أمامه فوجد (جبريل) عليه السلام قد جلس على كرسي وقد ملأ ما بين السماء والأرض ، ففزع وارتعد ، ورجع إلى بيته وهو يقول : دثروني دثروني .. كما رآه مرة أخرى وقد بسط جناحيه فسد ما بين المشرق والمغرب . ولو جاءهم بصورة بشرية (أي تمثل لهم الملك بصورة انسان) لشكّوا في أمره ، والتبس عليهم الحال ، هل هو ملك أم هو بشر ؟

وقد ذكر القرآن الكريم هذا المعنى في معرض الرد على المشركين ، حين طلبوا أن يكون النبي المرسل من الملائكة لا من البشر ، ﴿وقالوا لولا[1] أنزل عليه ملك؟ولو انزلناملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون.[2] .ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلا وَلَلَبَسْنا[3] عليهم ما يلبسون﴾.

ومعنى الآية الكريمة : لو جعلنا النبي ملكاً كما اقترحوا لجعلناه في صورة رجل من البشر ، ليمكن اجتماعهم به وأخذهم عنه ، وحينئذ يلتبس عليهم الأمر ، هل هو ملك أم بشر ؟ فيشكون في أمره ، ويعودون إلى سيرتهم الأولى في طلبهم أن يكون النبي من الملائكة . قال العلامة القرطبي في تفسيره الجامع الجامع لأحكام القرآن : قوله تعالى ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلا﴾ أي أنهم لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلا بعد التجسم بالأجسام الكثيفة ، لأن كل جنس يألف بجنسه ، وينفر من غير جنسه ، فلو جعل الله تعالى الرسول إلى البشر (ملكاً) لنفروا من مقابلته ، ولما أنسوا به ، ولداخلهم من الرعب من كلامه والاتقاء له ما يكفهم عن كلامه ، ويمنعهم عن سؤاله ، فلا تعم المصلحة ، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به ، ويسكنوا

---

(١) لولا : (لولا) هنا بمعنى هلا فهي للتحضيض ، وليست حرف امتناع لوجود .
(٢) لا ينظرون : أي لا يؤخرون ولا يمهلون .
(٣) وللبسنا : اللبس : الخلط ، يقال لبست عليه الأمر ألبسه لبساً أي خلطته .

إليه ، لقالوا : لست ملكاً وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك، وعادوا إلى مثل حالهم ، حيث كانوا يقولون عن محمد ﷺ انه بشر ، وليس بينه وبينكم فرق ، فيلبسون على الناس بهذا ويشككونهم ، فأعلمهم الله عز وجل أنه لو أنزل ملكاً في صورة رجل لوجدوا سبيلا إلى اللبس (الشك) كما يفعلون[١] .

وقد ذكر تبارك وتعالى في آية كريمة أخرى الحكمة من كون النبي من البشر ، لا من الملائكة، وذلك أن المرسل ينبغي أن يكون من جنس المرسل إليهم .. فلو كان الذين يسكنون الأرض من الملائكة لبعث الله تعالى إليهم نبياً (ملكا) كما قال تعالى : ﴿وما منعَ الناسَ أن يؤمنوا إذْ جاءَهُمُ الهدى إلا أنْ قالوا : أبعثَ اللهُ بشراً رسولا ؟ قلْ : لو كان في الأرضِ ملائكةٌ يمشونَ مطمئنينَ ، لنزّلنا عليهِمْ منَ السّماءِ ملَكاً رسولا﴾ .

اعتراض المشركين :

ولقد اعترض المشركون على بعثة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، كيف يكون من البشر وهو يدعي النبوة ؟ انه بشر مثلهم يأكل ، ويشرب ، وينام ، ويمشي في الأسواق !! واتخذوا من ذلك ذريعة لتكذيبه والطعن في رسالته .. وطلبوا أن يكون معه من الملك ، والجاه ، والسلطان ، ما يؤهله للنبوة المال الوفير ، والكنوز العظيمة ، والحدائق الغناء ، ومن كل زهرة الدنيا مما يكون عادة للملوك والعظماء.. ثمّ لما رأوه فقيراً يتيماً ، استبعدوا على الله – جل وعلا – وانكروا رسالته ، وقالوا انه ساحر يسحر الناس بحلاوة لسانه ، وطيب كلامه ، وما جاء به ما هو إلا من أساطير الأولين ، اقرأ قوله تعالى في سورة الفرقان : ﴿وقالوا : ما لهذا الرّسولِ يأكلُ الطعامَ ، ويمشي في الأسواقِ ؟ لولا أُنزلَ إليهِ ملكٌ فيكونَ معهُ نذيراً . أو يُلقى إليهِ كنزٌ ، أو تكونُ له جنّةٌ يأكلُ منها . وقالَ الظالمونَ إن تتّبعونَ إلاّ رجلاً مسحوراً انظرْ كيفَ ضربوا لكَ الأمثالَ فضلّوا فلا يستطيعونَ سبيلا . تبارك الذي إن

---

(١) انظر تفسير القرطبي ج٢ ص ٣٩٤ .

شاءَ جعلَ لك خيراً من ذلك ، جنات تجري من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصورا . بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ﴾.

وهكذا نجد منطق الشرك والضلال ، في كل عصر وزمان ، منطقاً واحداً لا يكاد يتغير .. فما بعث الله نبياً إلا وقف المشركون في وجهه وقفة (استكبار وعناد) يتساءلون : انه بشر مثلنا ؟ يأكل كما نأكل ، ويشرب كما نشرب ، وينام كما ننام !! لماذا لا يكون من الملائكة ؟ لماذا لا يكون من الأشراف العظماء ، من أهل الثروة والغنى والسلطان ؟ استمع إلى موقف الجحود والعناد في قصة قوم نوح عليه السلام : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره ، أفلا تتقون ؟ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشرٌ مثلكمً ، يريد أن يتفضل عليكم ، ولو شاء الله لأنزل ملائكةً ،ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولينَ. إن هو إلا رجل به جِنَّةٌ فتربصوا به حتى حين ﴾ .

واستمع إلى موقف (عاد) مع نبي الله الكريم (هود) ﴿ وقال الملأ من قومه الذينَ كفروا ، وكذّبوا بلقاءِ الآخرة ، وأترفناهُم في الحياةِ الدنيا ، ما هذا إلا بشر مثلُكمْ ، يأكل مما تأكلون ، ويشرب مما تشربون !! ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون . أيَعِدُكُم أنكم إذا مِتّم وكنتمْ تراباً وعظاماً أنكم مُخْرَجون ؟ هيهات هيهات لما توعدون ﴾.

واستمع أيضاً إلى موقف (الطغيان) يمثله فرعون الأثيم مع زبانيته في وجه النبيين الكريمين (موسى وهارون) عليهما الصلاة والسلام .

﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين. إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين . فقالوا : أنؤمن لبَشَريْن مثلِنا وقومُهُما لنا عابدون ؟ فكذبوهما فكانوا من المُهْلكين ﴾ .

ثم انظر إلى موقف كفار قريش من دعوة سيد الرسل محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

﴿وإذا رَأوْك إن يتخذونَك إلا هُزُوا ، أهذا الذي بعث الله رسولا ! إنْ

كان ليضلُّنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ، وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضلُّ سبيلا ﴾ .

انه موقف واحد لا يكاد يتغير .. موقف أملاه عليهم الطغيان ، والعناد ، والاستكبار .. وكأنهم عموا أو تعاموا عن حكمة الله الأزلية ، في أن يكون النبي المرسل إلى الخلق ، من البشر لا من الملائكة وصدق الله حيث يقول : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ﴾ .

مهمة الرسل الكرام :

لما كان العقل البشري وحده لا يكفي للتفريق بين الخير والشر ، وكانت هناك بعض الأمور الغيبية العظيمة ، التي لا يمكن للإنسان معرفتها إلا عن طريق الوحي وعن طريق الشرع ، كالإيمان بالله تعالى : وبصفاته العلية ، والإيمان بالملائكة وبالبعث والنشور إلى غير ذلك من الأمور الغيبية .. لذلك فقد اقتضت حكمة الباري جل وعلا أن يبعث إلى الخلائق الأنبياء الكرام ، ليقطع على البشر معاذيرهم ، ولئلا يبقى لإنسان حجة عند الله يوم القيامة ، ولهؤلاء الرسل وظائف جليلة ، ومهمات جسيمة .

وظائف الرسل :

أولاً : دعوة الخلق إلى عبادة الله الواحد القهار . وهذه — في الحقيقة — هي الوظيفة الأساسية ، بل هي المهمة الكبرى التي بعث من أجلها الرسل الكرام وهي تعريف الخلق بالخالق — جل وعلا — والإيمان بوحدانيته ، وتخصيص العبادة له دون سواه ، كما قال جل ثناؤه :

﴿وما أرسلنا من قبلِكَ من رسولٍ إلا نوحي إليهِ أنّه لا إله إلاّ أنا فاعبدون ﴾ .

وقال تعالى :﴿ ولَقدْ بَعَثْنا في كلّ أمةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوتَ فمنهُم من هدى اللهُ ومنهم من حَقّت عليه الضّلالة ..﴾ الآية .

ثانياً : تبليغ أوامر الله عز وجل ونواهيه إلى البشر فالأوامر الإلهية لا بد لها من مُبلغٍ ، ولا بد أن يكون هذا المبلّغ من البشر ليمكن الأخذ عنه ، ولهذا فقد اختار الله عز وجل الرسل من البشر ، للحكمة السابقة التي ذكرناها ، وقد أدى الرسل الكرام هذه الوظيفة على أكمل الوجوه ، فلم يتأخر واحد منهم عن تبليغ دعوة الله ، وفيهم يقول القرآن الكريم : ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ، وكفى بالله حسيبا﴾ .

وقد جعل الله تعالى علامة الرسول (تبليغ الرسالة) وخاطب سيد الأنبياء بقوله عز من قائل :

﴿يا أيّها الرسولُ بلّغْ ما أُنْزِلَ إليكَ من ربّكَ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته واللهُ يعصِمُكَ من الناسِ ، إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾.

ثالثاً : هداية الناس وارشادهم إلى الصراط المستقيم .

وهذه الوظيفة مهمة كل رسول كما قال تعالى في شأن موسى عليه السلام:

﴿ ولقد ارسلنا موسى بآياتنا ان اخرج قومك من الظلمات الى النور، وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ .

وكما قال في شأن خاتم الرسل عليه السلام :

﴿ يا أيها النبي انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ، ونذيرا ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا ﴾ .

رابعاً : ليكون الرسل قدوة حسنة ، واسوة صالحة للبشر . فالرسل الكرام عليهم من الله أفضل الصلاة والتسليم هم القدوة الحسنة والأسوة الصالحة لجميع البشر ، وقد أمرنا الله عز وجل بالاقتداء بهم ، والسير على منهاجهم ، وجعلهم نماذج للكمال ، وعنواناً للفضل لأنهم أكمل الناس عقلا وأطهرهم سلوكاً ، وأشرفهم رتبة ومنزلة ، قال تعالى : ﴿ لقدْ كانَ لكم في رسولِ اللهِ أسوةٌ حسنةٌ ، لمن كان يرجو الله واليومَ الآخرَ وذكر الله كثيرا ﴾.

وقال تعالى : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده .. ﴾ الآية .

خامساً : التذكير بالنشأة والمصير ، وتعريف الناس بما بعد الموت من شدائد وأهوال .

قال الله تعالى : ﴿ يا معشر الجنّ والإنس ألم يأتكم رسلٌ منكم يقصّون عليكم آياتي ، وينذرونكم لقاءَ يومِكم هذا ؟! قالوا : شهِدْنا على أنفسنا ، وغرّتهم الحياةُ الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين . ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلمٍ وأهلُها غافلون ﴾ .

سادساً : تحويل اهتمام الناس من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية .

فلقد بعث الله الرسل الكرام ليحولوا أنظار البشر من هذه الحياة الزائلة إلى تلك الحياة الباقية الخالدة وهي (الدار الآخرة) كما قال تعالى :

﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لعبٌ ولهوٌ ، وإن الدارَ الآخرةَ لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ .

وكما قال جل ثناؤه :

﴿ اعلموا أنما الحياةُ الدنيا لعبٌ ، ولهوٌ ، وزينةٌ وتفاخرٌ بينكُمْ وتكاثرٌ في الأموالِ والأولاد .. ﴾ الآية .

سابعاً : وأخيراً لئلا يبقى لإنسان حجة عند الله . كما قال تعالى : ﴿ رسلاً مبشّرينَ ومنذرينَ لئلا يكون للناسِ على اللهِ حجةٌ بعدَ الرُّسل ﴾ .

هذه أهم وظائف الرسل الكرام عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام ذكرناها بإيجاز والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

الفصل الثاني

مزايا دعوة الانبياء

* المزية الأولى : دعوتهم ربانيّة
* المزية الثانية : لا يطلبون أجراً على الرسالة .
* المزية الثالثة : إخلاص الدين لله تعالى .
* المزية الرابعة : البساطة وعدم التعقيد .
* المزية الخامسة : وضوح الهدف والغاية .
* المزية السادسة : إيثار الآخرة والزهد في الدنيا .
* المزية السابعة : التشديد في أمر الغيب .
* صفات الأنبياء (الصدق ، الأمانة ، التبليغ ، الفطانة ، السلامة من العيوب المنفّرة ، العصمة) .

خصائص ومزايا الدعوة

ما هي مزايا دعوة الأنبياء :

أهم ما في دعوة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أن لها خصائص ومزايا نلخصها فيما يلي :

أولاً : دعوة الأنبياء (ربانية) أي بوحي وتكليف من الله عز وجل.
ثانياً : ان الأنبياء لا يطلبون أجراً على الرسالة بل يأخذون الأجر من الله.
ثالثاً : اخلاص الدين لله سبحانه ، وافراد العبادة له جل وعلا.
رابعاً : البساطة في الدعوة ، وعدم التكلف أو التعقيد .
خامساً : وضوح الهدف والغاية في دعوة الأنبياء الكرام.
سادساً : الزهد في الدنيا ، وايثار الآخرة على الحياة الدنيا .
سابعاً : التركيز على (عقيدة التوحيد) والتشديد في أمر الإيمان بالغيب .

هذه أهم مزايا دعوة الأنبياء الكرام ، وسنوضح كل مزية من هذه المزايا بشيء من التوضيح والبيان ، والله المستعان .

المزية الأولى :

أولاً : أما أن دعوة الأنبياء (ربانية) فانما يقصد بذلك أنها بوحي وتكليف من الله عز وجل ، فليست هي نابعة من نفوسهم ، وليست نتيجة للعوامل الاجتماعية التي تكون في زمانهم ، من ظلم وبغي وجور واستبداد .. كما أنها ليست نتيجة

تفكيرهم العميق أو تألمهم على الحالة المؤسفة التي يعيشها الناس، بل هي بوحي من الله وتكليف من الباري جل وعلا ، فكل ما جاء به الأنبياء إنما مصدره الوحي ، فكل نبي من الأنبياء يقول ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ فليس لهم إذاً إلا تبليغ أوامر الله سبحانه وتعالى .

يقول فضيلة الشيخ (أبو الحسن الندوي) حفظه الله في كتابه «النبوة والأنبياء» :

(ان أول وأهم ما يمتاز به معشر الأنبياء ، أن العلم الذي ينشرونه بين الناس ، والعقيدة التي يدعون إليها والدعوة التي يقومون بها ، لا تنبع من ذكائهم أو حميتهم ، أو تألمهم بالوضع المزري الذي يعيشون فيه ، أو من شعورهم الدقيق الحساس ، وقلبهم الرقيق الفياض ، أو تجاربهم الواسعة الحكيمة لا شيء من ذلك ، إنما مصدره الوحي والرسالة التي يصطفون لها ، ويكرمون بها .. فلا يقاسون أبداً على الحكماء أو الزعماء ، أو المصلحين وجميع أصناف القادة الذين جربتهم البشرية وتاريخ الاصلاح والكفاح الطويل ، والذين هم نتيجة بيئتهم وغرس حكمتهم ، وصدى محيطهم ورد فعل لما كان يجيش به مجتمعهم من فساد فوضى..والقول الفصل في ذلك القول القرآن الكريم على لسان سيد الرسل صلى الله عليه وسلم :

﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ؟ ﴾ .

وقول الله تعالى :

﴿ وكذلكَ أوحينا إليكَ روحاً من أمرنا، ما كنتَ تدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ ، ولكنْ جعلناهُ نوراً نهدي بهِ من نشاءُ من عبادنا ، وإنكَ لتهدي إلى صراطٍ مستقيم ﴾ .

ويقول القرآن الكريم عن طبيعة الرسالة التي يختار لها الرسل ، وعن مبدئها ومصدرها :

﴿ينزّل الملائكةَ بالرّوحِ من أمره على من يشاءُ من عباده أنْ أنذِروا أنّه لا إله إلا أنا فاتقونِ ﴾ .

لذلك لا يخضع الرسول لعوامل نفسية داخلية ، أو حوادث وقتية خارجية ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال والأوضاع وشاء المجتمع ، وقد قال الله عن رسوله الكريم ﴿ وما ينطقُ عن الهوى إنْ هو إلاّ وحيٌ يوحى ﴾ .

ولا يستطيع ان يحدث تغييراً ، أو تبديلاً ، أو تحويراً ، أو تعديلا في رسالته وأحكام الله ، وقد قال الله لرسوله ﷺ :

﴿ قلْ ما يكون لي أن أُبدّلَهُ من تلقاء نفسي، إن أتّبعُ إلاّ ما يوحى إلي، إني أخاف إن عصيْتُ ربي عذاب يوم عظيم ﴾ .

وهذه هي السمة الفاصلة الأساسية المميزة بين الأنبياء صلوات الله عليهم وبين القادة والزعماء ، الذين تكون رسالتهم وكفاحهم وحي بيئتهم وثقافتهم ومشاعرهم ، والذين يلاحظون دائماً البيئة والمجتمع ، والظروف والأحوال ، ويراعون المصلحة والسياسة ، ويخضعون لها في كثير من الأحوال فيتنازلون عن أشياء كثيرة ، وقد يتساومون مع الأحزاب ، ويتبادلون معها المنافع ، ومبدأ كثير منهم الذين يأخذون به : « در مع الدهر كيف دار[1] » .

ويظهر لنا الفرق جلياً واضحاً في سيرة الأنبياء الكرام صلوات الله عليهم ، حيث لا يقبلون المساومة على شيء من أمور الدعوة مهما كان الثمن بخلاف دعوة الزعماء والمصلحين .. فحين عرض المشركون عروضاً سخية على رسول الله ﷺ ، وكان من جملة تلك العروض أن يملكوه عليهم ، أو يزوجوه ما شاء وأحب من النساء ، أو يدفعوا له كرائم أموالهم ويعطوه ما شاء من مال ومتاع ، مقابل أن يترك الدعوة ، ويعرض عن ذم الآلهة والسخرية بالأوثان والأصنام ، ماذا كان جوابه ؟ وماذا كان موقفه ؟؟ لقد قال قولته الشهيرة ، التي لا يزال يرددها الزمان :

« والله لو وضعوا الشمس عن يميني ، والقمر عن يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه[2] » .

---

(١) انظر كتاب النبوة والأنبياء ص ٣٥-٣٦ .

(٢) انظر سيرة ابن هشام .

المزية الثانية :

أما المزية الثانية لدعوة الأنبياء الكرام صلوات الله عليهم ، فهي أنهم لا يطلبون أجراً من أحد ، ولا يقبلون على تبليغ الرسالة ثمناً من انسان ، إنما يطلبون الأجر والثواب من الله تبارك وتعالى ، فكل نبي من الأنبياء كان يعلن على رؤوس الأشهاد ، علانية وجهاراً أنه لا يريد أجراً على الدعوة ، ويقرر بكل وضوح وجلاء أن دعوته لم تكن من أجل طلب الدنيا أو طلب المال .

واستمع إلى (هود) وهو يخاطب قومه فيقول :

﴿ ويا قومِ لا أسألكم عليه أجراً ، إن أجريَ إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون ؟ ﴾ .

وهذا هو خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله يقرر الحقيقة ناصعة جلية فيقول :

﴿ قلْ ما أسألكم عليه من أجرٍ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ .

ويقول في موطن آخر من الدعوة :

﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلّفين ﴾ .

وهكذا كان الرسل الكرام لا يدعون أحداً بقصد الكسب المادي ، أو الربح الدنيوي ، إنما يعلنون أنهم لا يطلبون أجرهم إلا من الله ، فهم في دعوتهم يخلصون العمل ، وفي نصحهم وارشادهم لا يرجون الثناء أو المديح إنمايقصدون ثواب الآخرة ووجه الله ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعملْ عملا صالحاً ولا يشركْ بعبادة ربه أحداً ﴾ .

المزية الثالثة :

أما المزية الثالثة لدعوة الأنبياء الكرام فهي إخلاص الدين لله سبحانه ، وافراد العبادة له جل وعلا .. وهذا هو الهدف الأسمى الذي دعا إليه جميع الأنبياء في كل عصر وزمان ، وفي كل بيئة ومكان ، فلم يكن هدف الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم إلا أن يوجهوا المخلوق الضعيف إلى خالقه العظيم

القدير ، وأن يصرفوا وجهة البشر من عبادة العباد إلى عبادة رب الأرباب جل وعلا ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدينَ ، حنفاءَ ويقيموا الصلاةَ ، ويؤتوا الزكاةَ ، وذلك دينُ القيِّمة ﴾ .

ولقد أرسل الله جميع الرسل بهذه الدعوة الكريمة المباركة (دعوة التوحيد) واخلاص النية والعمل له تعالى عن طريق افراده بالعبادة كما قال تعالى : ﴿وما أرسلْنا من قبلِك من رسولٍ إلا نوحي إليهِ أنّه لا إلهَ إلا أنا فاعبدون ﴾ .

يقول الشيخ الجليل (أحمد الدهلوي) رحمه الله في كتابه (حجة الله البالغـة) :

« ان الأنبياء عليهم السلام كان أول دعوتهم ، وأكبر هدفهم في كل زمان ، وفي كل بيئة هو (تصحيح العقيدة) في الله تعالى ، وتصحيح (الصلة بين العبد وربه) والدعوة إلى (اخلاص الدين) وإفراد العبادة لله وحده ، وأنه النافع الضار ، المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء والنسك وحده .. وكانت حملتهم مركزة موجهة إلى الوثنية القائمة في عصورهم . الممثلة بصورة واضحة في عبادة الأوثان والأصنام ، والصالحين والمقدسين ، من الأحياء والأموات الذين كان يعتقد أهل الجاهلية أن الله قد خلع عليهم لباس الشرف والتألـه ، وجعلهم متصرفين في بعض الأمور الخاصة ، ويقبل شفاعتهم فيهم بالاطلاق ، بمنزلة ملك الملوك يبعث على كل قطر ملكاً ، ويقلده تدبير المملكة »[1] .

المزية الرابعة :

أما المزية الرابعة في دعوة الأنبياء صلوات الله عليهم فهي : البساطة في الدعوة ، وعدم التكلف والتعقيد .

وهذه المزية واضحة في دعوة جميع الأنبياء ، فإنهم يسيرون مع الفطرة ، ويخاطبون الناس على قدر عقولهم ، ولا يتكلفون في دعوتهم كما يفعل بعض

---

(١) انظر كتاب حجة الله البالغة للدهلوي .

الزعماء والمصلحين ولا يعقدون الأمور أو يخاطبون الناس بما لا يفهمون أو يدركون .. بل يسلكون طريق الحكمة ،في الدعوة والتبليغ ، فهذا سيد الرسل ﷺ يقول على لسانه القرآن :

﴿وما أنا من المتكلفين﴾ .

كما يأمره ربه بالدعوة إلى الله بالحكمة فيقول عز من قائل :

﴿ ادعُ إلى سبيل ربِّك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة وجادِلْهُم بالتي هي أحسنُ ، إنَّ ربك هو أعلمُ بمنْ ضلَّ عن سبيلهِ وهوَ أعلمُ بالمهتدين﴾ .

ولا بد لنجاح الدعوة من سلوك طريق الأنبياء في البعد عن الأساليب الصناعية والتصنع ، وعدم التكلف في دعوة الناس أو مخاطبتهم ، واقامة الحجة عليهم بالمنطق والبرهان العقلي ، الذي يفهمه الكبير والصغير ، والعالم والجاهل ، انظر إلى (ابراهيم) عليه السلام وهو يقيم الحجة القاصمة على خصمه العنيد ، ويقطع عليه الطريق بأيسر السبل وأظهر البراهين الدامغة ﴿قال ابراهيمُ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب ؟ فبُهِتَ الذي كفرَ والله لا يهدي القومَ الظالمين﴾ .

ولهذا نجد أن أنجح طريق للدعوة هو (الأسلوب الفطري) الذي يخاطب الفطرة بعيداً عن الأساليب الصناعية ، والمناهج الكلامية ، والأمور العويصة وقد أجاد حجة الإسلام رحمه الله حين قال :

«أدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل انسان ، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ويستضر به الاكثرون .. بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي والرضيع ، والرجل القوي ، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة ، ويمرضون بها أخرى ، ولا ينتفع بها الصبيان أصلا »[1].

وقد قال الإمام الرازي رحمه الله :

« لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلا ،

---

(١) راجع كتاب (النبوة والأنبياء) للاستاذ الندوي .

ولا تروي غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي » [1] .

المزية الخامسة :

والمزية الخامسة في دعوة الأنبياء هي : وضوح الهدف والغاية في الدعوة فهم يدعون الناس إلى هدف واضح ، وإلى فكرة بينة ، لا لبس فيها ولا غموض استمع إلى قوله تعالى مخاطباً خاتم الأنبياء والمرسلين :

﴿ قل هذهِ سبيلي أدْعو إلى اللهِ على بَصيرةٍ أنا ومن اتَّبعني ،وسبحانَ اللهِ وما أنا من المشركين ﴾ .

فطريقة الأنبياء واضحة ، ودعوتهم ظاهرة ساطعة ، مثل الشمس في رابعة النهار ، ولهذا قال النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم :

« لقد تركتكم على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك » .

وهكذا نجد أن الأنبياء الكرام إنما دعوا الناس إلى رسالة ربانية ، ذات هدف واضح ، وغاية نبيلة ، وهم في دعوتهم لا يسلكون الطرق الملتوية التي تخفى وراءها الغرض والهدف من تلك الدعوة ، كما هو الحال عند بعض القادة والزعماء ، الذين لا يعرفون قصدهم ولا غرضهم على وجه الحقيقة والتأكيد .

المزية السادسة :

المزية السادسة في دعوة الأنبياء هي (الزهد في الدنيا وايثار الآخرة على الحياة الدنيا) .. وهذه المزية ملازمة لدعوة الأنبياء الكرام ، فليس هدفهم الاستمتاع بزهرة الدنيا وزينة الحياة ، لذلك فقد عاش كلّ الرسل الكرام في شظف من العيش ، وفي شدة الضيق ، مع أنهم كانوا يستطيعون أن يتنعموا في الدنيا ، وأن يعيشوا فيها عيشة العظماء .. ولكنهم آثروا الباقية على الفانية ،

---

(١) راجع كتاب (النبوات لابن تيمية) .

لأنهم أيقنوا أن﴿ما عندَ الله خيرٌ وأبقى﴾ وأن﴿ما عندَ الله خيرٌ للأبرار ﴾ لذلك فقد كانوا زاهدين في الدنيا ، مقبلين على الآخرة .. وقد خاطب الله سيد الأنبياء بقوله :

﴿ولا تَمدنّ عينَيْك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم ،زهرةَ الحياةِ الدنيا لنفْتِنَهُم فيه ، ورزقُ ربّك خيرٌ وأبقى﴾ .

وحين طلب أزواج رسول الله ﷺ من الرسول الكريم أن يوسع عليهن في النفقة وأن يزيد لهن في الرزق ، ويعاملهن كبقية النساء اللواتي يعيشن في رَغد من الدنيا ، وفي بحبوحة من النعيم .. حين طلبن ذلك نزل التخيير لهن من السماء وكان ذلك ، درساً لهن قاسياً في الحياة حيث نزل قوله تعالى :

﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك، إن كُنتنّ تردنَ الحياةَ الدنيا وزينتَها ، فتعالَيْنَ أُمتّعْكُنّ وأُسَرِّحْكنّ سَراحاً جميلا.وإن كنتنّ تردنَ اللهَ ورسولَهُ والدارَ الآخرةَ فإنّ اللهَ أعدَّ للمحسناتِ منكُنّ أجراً عظيماً﴾.

ولقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : والله اني لأحبك فقال : «انظر ماذا تقول ؟» فكرر الرجل عليه الكلمة ثلاث مرات ، فقال له الرسول الكريم : «ان كنت تحبني فأعد للفقر تجفافا [1] فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه »[2] .

يقول الشيخ (أبو الحسن الندوي) في كتابه النبوة والأنبياء ما نصه :

« ولم تكن دعوة الرسل إلى الآخرة ، وايثارها على الدنيا ، والاستهانة بقيمتها ومتاعها ، ودعوة باللسان فقط ، ودعوة لأمتهم فقط ، بل كان ذلك مبدأ ومنهاجاً لحياتهم ، وكانوا من أول المؤمنين بها ، السائرين عليها في حياتهم ، فكانوا زاهدين في الدنيا ، مقبلين على الآخرة ، قد زهدوا في المناصب الكبيرة والمراكز الخطيرة ، وضحوا بها في سبيل دعوتهم .. »

ثم قال حفظه الله :

---

(١) تجفافا : المراد به اللباس وأصله ما يلبسه الفرس ليتقي به الأذى .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

« ومعيشة النبي ﷺ وحياته وحياة أهل بيته معروفة في التاريخ معروفة في السيرة النبوية ، تثير العجب ، وتسحر النفوس ، وتملأ القلوب عظمة ومهابة وتنصب للدعاة والسائرين على منهاج النبوة مناراً عالياً من نور ، وكان شعارها الدائم : اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » .

المزية السابعة :

والمزية السابعة من مزايا دعوة الأنبياء هي : التركيز على عقيدة التوحيد ، والتشديد في أمر الإيمان بالغيب .

وهذه من المزايا الواضحة ، التي تظهر للعيان بكل جلاء ووضوح ، في دعوة جميع الأنبياء ، حيث أنهم جميعاً قد ركزوا جهودهم على تقرير (عقيدة التوحيد) واثبات وحدانية الله ، ووجود الصانع المدبر الحكيم ، كما أنهم قد ركزوا على موضوع الإيمان بالغيب ، فلا نكاد نجد نبياً من الأنبياء إلا وقد حذر قومه من خطر الوثنية والاشراك ، ودعاهم إلى توحيد الله واخلاص العبادة له .. استمع إلى القرآن الكريم يحدثك عن الأنبياء الكرام نبياً نبياً .. وكيف كان التوحيد أساس دعوتهم ، وغاية جهادهم ، فتجده يقول عن (نوح) عليه السلام :

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ،قال يا قومِ اعبدوا اللهما لكُمْ من إلهٍ غيرُه﴾.

وتجده يقول عن هود عليه السلام :

﴿ وإلى عادٍ أخاهُمْ هوداً .فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيرُه..﴾

وتجده يقول عن صالح عليه السلام :

﴿ وإلى ثمودَ أخاهُمْ صالحاً قال يا قومِ اعبدوا اللهما لكُمْ من إلهٍ غيرُه.﴾

وهكذا يحدثنا القرآن الكريم عن جميع الأنبياء، وأنهم قد دعوا إلى (التوحيد) أما إبراهيم الخليل صلوات الله عليه فقد كانت دعوته إلى التوحيد، ومحاربته للوثنية ، أوضح وأصرح ، حيث تجلى موقفه الصلب مع قومه في تسفيه عقولهم ، وتسفيه ما يعبدونه من أصنام ، حتى حكموا عليه بالتحريق في النار ، ولكن الله تبارك

وتعالى قد نجاه من كيدهم ﴿ قلنا يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيمَ ، وأرادوا به كيداً فجعلناهُمُ الأخسرين﴾ وهكذا نرى المعركة تشتد بين الأنبياء وأقوامهم حول رسالة الحق ودعوة التوحيد ، وتنتهي بانتصار الحق وتغلب الرسل ، وهلاك المكذبين .. وصدق الله حيث يقول (ولقد سبقت كلمتُنا لعبادنا المُرسَلين إنهم لَهُمُ المنْصورونَ ، وإن جندَنا لهمُ الغالبون ﴾ .. وما أروع هذه البشرى لعباد الله المرسلين ولدعاة الحق إلى يوم الدين حيث يقول جل ثناؤه : ﴿ إنَّا لَنَنْصُرُ رسُلَنا والذينَ آمنوا في الحياةِ الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ . يومَ لا ينفعُ الظّالمين معذرَتُهُم ولهُم اللعنةُ ولهم سوءُ الدارِ ﴾.

صفات الأنبياء الكرام :

اختار الله تباركت أسماؤه الأنبياء الكرام ليكونوا سفراء بينه وبين عباده ، واصطفاهم من بين سائر الخلق ليحملوا الأمانة العظيمة (أمانة الوحي) وتبليغ الدعوة والرسالة لعباده .. وقد اقتضت حكمته العلية أن يجعلهم أكمل البشر خلقاً . وأفضلهم علماً ، وأشرفهم نسباً ، وأعظمهم أمانة ، وأن يحفظهم بعنايته ، ويكلأهم برعايته ، ويربيهم على عينه تبارك وتعالى كما قال جل ثناؤه مخاطباً سيد الرسل الكرام ﴿ فاصْبِر لحكم ربك فإنك بأعيننا ..﴾ وكما قال لموسى عليه السلام ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ .

وإذا تتبعنا القرآن الكريم ، وقرأناه قراءة تدبر وتبصر ، واستعرضنا آياته الكريمة التي تتحدث عن (النبوة والأنبياء) نجد فيها الذكر العاطر ، والثناء المجيد ، لهؤلاء الصفوة المختارة من عباد الله الصالحين الذين أكرمهم الله بالنبوة واصطفاهم لحمل الرسالة ، واختارهم من بين سائر الخلق ليكونوا حملة مشعل (الهداية والاصلاح) وقادة ركب الإنسانية إلى طريق السعادة ، وشاطىء الأمن والسلام .

نستعرض الكتاب المجيد فتطالعنا صور ونماذج لم يخلق الله أجمل منها في هذا الكون .. ونرى أسلوب القرآن في الحديث عنهم أسلوباً يتدفق بالحياة ، .

ويفيض بالبشر ، وينم عن الحب والايثار .. فيذكرهم بالثناء العاطر ، ويصفهم بأسمى الصفات والمواهب العقلية والخلقية ، كل ذلك ليدل على أنهم (الصفوة) المختارة من خلق الله ، و (المثل العليا) الكاملة للبشرية .. اقرأ إن شئت قوله تعالى :﴿وجعلناهُم أئمةً يهدونَ بأمرنا وأوْحَينا إليهِم فعلَ الخَيْراتِ ، وإقامَ الصلاةِ وإيتاءَ الزكاةِ وكانوا لنا عابدين﴾ .

واقرأ قوله تعالى عن ابراهيم الخليل عليه السلام :

﴿ واذكر في الكتابِ إبراهيمَ إنه كان صِدّيقاً نبياً ﴾ .

وقوله تعالى عنه :

﴿ إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يَكُ من المشركين.شاكراً لأنعُمِـهِ اجتباهُ وهداهُ إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾ .

واقرأ قوله عن الكليم موسى عليه السلام :

﴿قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذْ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ .

كما يذكر في موطن آخر الثناء العاطر على نبيه وكليمه موسى عليه السلام فيقول :

﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلَصاً وكانَ رسولاً نبياً وناديناه من جانبِ الطورِ الأيمن وقرّبناه نجياً﴾ .

واقرأ قوله جل وعلا عن نبيه (اسماعيل بن ابراهيم) عليه السلام :

﴿ واذكر في الكتابِ إسماعيلَ إنه كان صادقَ الوعد وكان رسولاً نبياً وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربّه مرْضياً ﴾.

ثم استمع إلى ذلك الثناء والمديح العاطر ، الذي وصف به القرآن الكريم جماعة من الأنبياء المكرمين حيث يقول :

﴿ واذكر عبادَنا إبراهيمَ واسحقَ ويعقوبَ ، أولي الأيدي والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصةٍ ذكري الدار . وإنهم عندنا لمنَ المصْطَفين الأخيارِ . واذكر إسماعيلَ ، واليسعَ ، وذا الكفلِ ، وكلٌ من الأخيار﴾ .

وهكذا نجد القرآن العظيم حين يتحدث عن الأنبياء الكرام ، يصفهم بأسمى الصفات العالية ، وينعتهم بأكمل الأوصاف ، وتظهر من خلال سطوره معالم الحب والتكريم ، والاصطفاء والاجتباء ، فيصفهم تارة بالطاعة والانابة ، وأخرى بالتضحية والايثار ، ويذكرهم في بعض المواطن بالصدق والنزاهة ، فكل ذلك ليشير إلى علو شأنهم ، ورفعة مكانتهم ، وسمو الرسالة التي بعثوا من أجلها ، فكانوا هداة العالم ، وقادة البشرية[١] .

ما هي صفات الأنبياء :

والأنبياء صلوات الله عليهم – وان كانوا من البشر – يأكلون ويشربون ، ويصحون ويمرضون ، وينكحون النساء ، ويمشون في الأسواق ، وتعتريهم العوارض التي تمر على البشر من ضعف وشيخوخة وموت .. الا أنهم يمتازون بخصائص ، ويتصفون بأوصاف عظيمة جليلة ، هي بالنسبة لهم من ألزم اللوازم ومن أهم الضروريات ، وهذه الصفات نلخصها فيما يلي :

١ – الصدق .

٢ – التبليغ .

٣ – الأمانـة .

٤ – الفطانة .

٥ – السلامة من العيوب المنفرة .

٦ – العصمة .

ولنشرح كل صفة من الصفات الواجبة للأنبياء الكرام صلوات الله عليهم بشيء من التفصيل فنقول وبالله التوفيق :

أولاً : الصدق :

وهذه الصفة ملازمة للنبوة ، وهي وان كانت ضرورية للبشر ، إلا أنها

---

(١) راجع كتاب النبوة والأنبياء للاستاذ الندوي .

بالنسبة لدعوة الأنبياء ، صفة لازمة ، بل هي من الصفات الفطرية فيهم ، فلا يمكن للنبي – أي نبي كان – أن يصدر منه ما يخل بالمروءة كالكذب والخيانة، وأكل أموال الناس بالباطل ، وغيرها من الصفات القبيحة ، لأن هذه الصفات لا تليق برجل عادي ، فكيف بنبي مقرب أو رسول مكرم ؟! ولو جاز وقوع الكذب من الأنبياء ، لما أصبح هناك ثقة فيما ينقلونه من أخبار الوحي ، أو يروونه عن الله عز وجل .. إذ يحتمل أن يكون ذلك من الأمور التي جاءوا بها من تلقاء أنفسهم ، أو اخترعوها من بنات أفكارهم ، ثم نسبوها إلى الله – وحاشاهم من ذلك – كذباً وزوراً ولذلك نجد القرآن الكريم ، يحكم ذلك الحكم الفاصل ، في حق كل من يفتري على الله أو يكذب على لسانه ، فيقول في حق سيد المرسلين :

﴿ ولو تقوَّلَ[١] علينا بعضَ الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لَقَطَعْنا منه الوتينَ[٢] . فمَا منكُمْ من أحدٍ عنهُ حاجزينَ . وإنه لتذكرةٌ للمتقين﴾ .

يقول شهيد الإسلام (سيد قطب) عليه رحمة الله في كتابه ظلال القرآن: « وفي النهاية يجيء ذلك التهديد الرهيب ، لمن يفتري على الله في شأن العقيدة ، وهي الجد الذي لا هوادة فيه ، يجيء لتقرير الاحتمال الواحد الذي لا احتمال غيره ، وهو صدق الرسول ﷺ ، وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه .. ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية ، أن محمداً ﷺ صادق فيما أبلغهم ، وأنه لو تقول بعض الأقاويل ، التي لم يوح بها إليه لأخذه الله فقتله على هذا النحو الذي وصفته الآيات ، ولما كان هذا لم يقع فهو ﷺ لا بد صادق .. » انتهى ولقد اشتهر الرسول ﷺ منذ الصغر بالصدق والأمانة ، حتى كان المشركون يسمونه (الصادق الأمين) فيقولون : جاء الصادق الأمين ، وذهب الصادق الأمين .. وهكذا كان النبي الكريم قبل البعثة علماً بين قريش في صدقه وأمانته ، وعلو مكانته .

(١) تقول : أي افترى علينا الكذب تقولا لأنه قول متكلف .
(٢) الوتين : عرق متصل بالقلب إذا قطع مات صاحبه .

روي أن رجلا من سادة قريش لقي (أبا جهل) في أحد طرقات مكة ، فاستوقفه ثم قال له : يا أبا الحكم ليس هنا غيري وغيرك ، أنشدك بالله هل محمد صادق أم كاذب ؟ فأجابه أبو جهل بكل صراحة : والله ان محمداً صادق، وما كذب قط .. فقال فما الذي يمنعكم من اتباعه ؟ فقال له أبو جهل : تنافسنا نحن وبنو هاشم ، وتنازعنا الزعامة والفخر ، فأطعموا فأطعمنا ، وسقوا فسقينا ، وأجاروا فأجرنا ، حتى كنا كفرسي رهان ، - أي استوينا واياهم في السبق والفخر - ثم زادوا علينا فقالوا : بعث منا نبي فمن أين نأتيهم بنبي ؟ والله لا نؤمن به ولا نتبعه ، وفي هذا أنزل الله جل ثناؤه تسلية لنبيه (قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون).

فهذا هو عدو الله يقر ويعترف بصدق الرسول ، ولكن يمنعه من اتباعه حب الزعامة والرئاسة ، وصدق من قال : والفضل ما شهدت به الأعداء .

وحين سأل (هرقل) ملكُ الروم أبا سفيان بن حرب - قبل اسلامه - عن أمر محمد ﷺ وكان السؤال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان : ما عرفنا عليه كذباً قط !! فأجابه هرقل بجواب رائع قوله « ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله » وهذا لعمر الحق هو المنطق السديد ، والقول الفصل .

ثانياً : الأمانة :

وهي أن يكون النبي أميناً على الوحي ، يبلغ أوامر الله ونواهيه إلى عباده ، دون زيادة أو نقص ، ودون تحريف أو تبديل ، امتثالا لقول الله تبارك وتعالى ﴿ الذين يبلِّغونَ رسالاتِ الله ويخشَونه ولا يَخْشون أحداً إلا اللهَ ،وكفى الله حسيباً ﴾ .

فالأنبياء جميعاً مؤتمنون على الوحي ، يبلغون أوامر الله كما نزلت عليهم ، لا يمكن لهم أن يخونوا ، أو يخفوا ما أمرهم الله تعالى به .. لأن الخيانة تتنافى

مع الأمانة ، وهل يليق بالنبي أن يخون أمانته ، فلا ينصح الأمة ، ولا يبلغ رسالة الله ؟

فالأنبياء الكرام كلهم قد أدوا الأمانة على الوجه الأكمل ، وكل نبي كان يقول لقومه ﴿ إني لكم ناصحٌ أمين ﴾ وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه :

﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ .

أي ليس بمتهم على الوحي والغيب ولو لم تكن في الأنبياء الأمانة لتغيرت مظاهر الرسالة وتبدلت ، ولما اطمأنّ الإنسان على الوحي المنزل .. ولهذا تقول السيدة عائشة رضي الله عنها : « لو كان محمد كاتماً شيئاً مما نزل عليه لكتم هذه الآية الكريمة ﴿ وتخفي في نفسكَ ما الله مُبْديه ، وتخشى الناسَ والله أحقّ أنْ تخشاهُ ﴾ .

ولكتم أيضاً الآيات التي فيها عتاب له ﷺ مثل قوله تعالى :

﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ .

وقوله تعالى :

﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسْرى حتى يُثْخِنَ في الأرض ، تريدونَ عرَضَ الدنيا واللهُ يريدُ الآخرةَ واللهُ عزيزٌ حكيمٌ . لولا كتابٌ من الله سبقَ لمسّكم فيما أخذتُمْ عذابٌ عظيمٌ ﴾ .

فلا بد من توفر صفة (الأمانة) في كل نبي ورسول ، لتظل النفس مطمئنة إلى سلامة الوحي ، وإلى أن كل ما جاء به النبي إنما هو من عند الله العزيز الحكيم وصدق الله حيث يقول : ﴿وما ينطقُ عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى﴾.

ثالثاً : التبليغ :

وهذه الصفة خاصة بالرسل الكرام صلوات الله عليهم ويقصد بها أن يبلغ الرسلُ أحكامَ الله ، ويبلغوا الوحي الذي نزل عليهم من السماء ، فلا يكتموا شيئاً مما أوحاه الله تعالى إليهم ، حتى ولو كان في تبليغه للناس ايذاء عظيم لهم ، أو شر مستطير يلحقهم من الأشرار والفجار ، وقد قال القرآن الكريم في قصة

(نوح) عليه السلام :﴿ قال يا قوم ِ ليسَ بي ضلالةٌ ولكنّي رسولٌ من ربّ العالمينَ . أبلّغكُم رسالاتِ ربي وأنصحُ لكمْ ، وأعلمُ من اللهِ ما لا تعلمون﴾.

وقال عن (صالح) عليه السلام :

﴿ فتولىّ عنهمْ وقالَ يا قومِ لقد أبْلغتكُم رسالةَ ربي ونصحتُ لكُم ولكنْ لا تحبون الناصحين﴾ .

وقال في (شعيب) عليه السلام :

﴿ فتولىّ عنهم وقال يا قومِ لقد أبلغتكُم رسالاتِ ربي ونصحتُ لكم فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ .

وهكذا نجد جميعاً الرسل يعلنون بكل صراحة ووضوح أنهم قد بلغوا رسالة الله ، ونصحوا للأمة ، حتى خاتم الرسل (محمد) صلوات الله عليه يأمره ربه بتبليغ الرسالة فيقول مخاطباً له :﴿ يا أيها الرسول بلّغْ ما أُنزلَ إليك من ربك ، وإن لم تفعلْ فما بلّغتَ رسالتهُ والله يعصمكَ من الناسِ ، إن اللهَ لا يهدي القومَ الكافرين ﴾ .

فكل رسول مكلف بتبليغ الدعوة والرسالة ، ولا يمكن لأحد من الرسل أن يزيد حرفاً أو ينقص حرفاً مما نزل عليه ، لأنه يكون قد خالف أمر الله ، وخان الأمانة التي عهدت إليه ... ولهذا نجد بعض السور أو الآيات الكريمة تبدأ بقوله تعالى (قل) وهو أمر موجه للنبي عليه الصلاة والسلام ليبلغه لأمته ، فيبلغها الرسول كما نزلت عليه دون زيادة أو نقص ، اقرأ مثلا قوله تعالى :

﴿ قلْ هذهِ سبيلي أدعو إلى اللهِ على بصيرة أنا ومنِ اتّبعني .. ﴾ .

وقوله تعالى :

﴿ قلْ يا أيّها الكافرونَ . لا أعبدُ ما تعبدونَ ﴾ .

وقوله تعالى :

﴿ قلْ أعوذُ بربّ الفلق﴾وقوله تعالى﴿ قلْ أعوذُ بربّ النّاس﴾ وقد كان

يكفي الرسول أن يبلغ الأوامر الإلهية دون تلك اللفظة التي خوطب بها ، ولكنه أمين على الوحي يبلغ رسالة ربه بالحرف الواحد دون تغيير أو تبديل ، أو زيادة أو نقصان ، فلم يقل (هذه سبيلي أدعو إلى الله) ولم يقل (أعوذ برب الفلق) أو (أعوذ برب الناس) وإنما ذكر الأمر الذي توجه إليه من العلي القدير ، بنفس الصيغة ونفس الحروف ، وذلك دليل الأمانة القصوى في تبليغ الدعوة والرسالة .

والغرض من (التبليغ) أن يقطع الله الحجة على الناس ، ولئلا يبقى لأحد عذر يوم القيامة ، فإن الله تبارك وتعالى أكرم من أن يعذب انساناً قبل أن تبلغه الرسالة وأرحم من أن يعذبه بدون ذنب كما قال تعالى :

﴿ وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ .

وكما قال جل ثناؤه :

﴿وما كانَ ربّكَ مُهْلكَ القرى حتى يبعَثَ في أمها رسولاً يتلو عليهِم آياتنا ، وما كنا مُهْلكي القُرى إلا وأهْلها ظالمون ﴾.

وقد بعث الله جل ثناؤه خاتم المرسلين ليكون للعالمين نذيراً ، وأرسله على فترة من الرسل ليقطع على أهل الكتاب (اليهود والنصارى) معاذيرهم فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، وقد ذكر تبارك وتعالى ذلك في كتابه العزيز فقال وهو أصدق القائلين :

﴿ يا أهلَ الكتابِ قدْ جاءكُمْ رسولُنا يبيّنُ لكمْ على فترةٍ من الرّسل، أنْ تقولوا ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ ، فقدْ جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ ، واللهُ على كلّ شيءٍ قديرٌ ﴾ .

وقد بلغ الرسول الكريم دعوة ربه ، فحين نزل عليه قول العلي الكبير : ﴿ فاصدع بما تُؤمر وأعرضْ عن المشركينَ ﴾ جهر الرسول بالدعوة ، وقام بتبليغ الرسالة ، فصعد على جبل الصفا ثم جعل ينادي القبائل وبطون قريش : « يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر ، يا بني كعب .. » حتى اجتمعوا إليه فقال لهم الرسول الكريم : « أرأيتم لو أني أخبرتكم ان خيلا بسفح هذا الجبل ، تريد أن تغير

عليكم هل كنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك كذباً قط !! فقال لهم عليه الصلاة والسلام : فإني لكم نذير بين يدي عذاب شديد .. فقال له عمه (أبو لهب) : تباً لك يا محمد ألهذا جمعتنا ، فأنزل الله رداً عليه : ﴿ تبّت يدا أبي لهبٍ وتبّ الآية﴾ »[1].

رابعاً : الفطانة :

وهي الذكاء والنباهة ، فلم يبعث أحد من الأنبياء إلا وكان على جانب عظيم من النباهة ، والذكاء الخارق ، مع كمال العقل والرشد ، استمع إلى قوله تبارك وتعالى في وصف الخليل ابراهيم عليه السلام ﴿ ولقد آتينا إبراهيمَ رُشدَهُ من قبلُ وكنّا بهِ عالمين ﴾ .

وانظر إليه في موقف المحاجة لقومه المشركين تجد فيه آيات النبوغ والذكاء ﴿ فجعلهم جُذاذاً إلا كبيراً لهم لعلّهم إليه يرجعون . قالوا : منْ فعلَ هذا بآلهتنا إنه لمنَ الظّالمين ؟ قالوا : سمعنا فتىً يذكرهُم يقالُ له إبراهيم . قالوا : فأتوا بهِ على أعينِ الناس لعلهم يَشْهدون . قالوا : أأنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيمُ ؟ قال : بلْ فعلهُ كبيرهُمْ هذا فاسألوهُمْ إن كانوا ينطقونَ . فرجَعوا إلى أنفسهِمْ فقالوا إنّكم أنتُمُ الظّالمون . ثم نكسوا على رؤوسهِمْ لقدْ علمتَ ما هؤلاءِ ينطقونَ . قالَ : أفتعبدونَ من دونِ اللهِ ما لا ينفعُكُمْ شيئاً ولا يضرّكُمْ ، أفٍّ لكمْ ولِمَا تعبدونَ من دونَ اللهِ ، أفلا تعقلونَ ؟ ﴾

وحقاً انه لمنتهى الذكاء والنبوغ ، يتجلى في عمل ابراهيم عليه السلام فلقد حطم بيده الأصنام ، ثم علق القدوم في عنق أكبر الأصنام ليقيم الحجة على قومه .. فحين قدموه للمحاكمة سألوه هذا السؤال : من الذي حطم آلهتنا وأقدم على تكسير الأصنام ؟ هل أنت الذي فعلت ذلك يا ابراهيم ؟ فأجابهم ابراهيم عليه السلام : اني لم أحطمها ، ولكن الصنم الكبير والإله العظيم هو الذي حطمها لأنه لم يرض أن تعبد معه ، والدليل على ذلك أنه وضع القدوم في عنقه ، وإذا

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ونور اليقين .

لم تصدقوا كلامي فاسألوهم عن ذلك الأمر وسلوه .. وهنا كان قد بلغ ابراهيم إلى هدفه ، فأقام عليهم الحجة بعد أن سفه عقولهم ، وجعلهم يضحكون من أنفسهم ، وهكذا يكون منطق الأنبياء .

وانظر إليه في موقف آخر وهو يجادل الطاغية (النمرود) الذي نازع الله في ملكه ، وزعم أنه إله يعبد من دون الله ، وأنه الرب المعبود ، كيف كان نبوغ ابراهيم وذكاؤه ؟ وكيف دحض خصمه العنيد ، قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذي حاجَّ ابراهيمَ في ربِّه ، أن آتاهُ اللهُ الملكَ ، إذْ قال ابراهيمُ : ربيَّ الذي يحيي ويميتُ ! ! قالَ : أنا أحيي وأميتُ ، قالَ ابراهيمُ فإنَّ اللهَ يأتي بالشمسِ من المشرقِ ، فأتِ بها من المغربِ ، فبُهِتَ الذي كفرَ ، واللهُ لا يهدي القومَ الظالمين ﴾

وهكذا جميع الأنبياء والرسل ، أعطاهم الله العقل والرشد ، فكانوا على أكمل وجوه الذكاء والنبوغ ، فقد خصهم الله تعالى بالذكاء الخارق ، والفطنة والنباهة ، ليستطيعوا اقامة الحجة على أقوامهم ، وقد جرت حكمة الله الأزلية ، أن يختار للرسالة أكمل الناس عقلا ، وأوفرهم ذكاء ، وأقواهم حجة ، وبرهاناً ليظهر ضياء الحق ، وتعلو دعوة الله وصدق الله حيث يقول : ﴿ الله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه ، سيصيبُ الذينَ أجرموا صَغَارٌ عندَ اللهِ وعذابٌ شديدٌ بما كانوا يمكرون ﴾ .

وإذا كان البشر يعتريهم النقص ، وتضعف قواهم العقلية ، وربما وصل البعض منهم إلى حالة (الخرف) عند بلوغ سن الشيخوخة .. فان الأنبياء الكرام يظلون في القمة العليا من رجاحة العقل ، وقوة التفكير ، مهما امتدت أعمارهم لأن الله تعالى قد أحاطهم بعنايته ، وحفظهم برعايته ، ولا يمكن أن تضعف حواسهم الفكرية وتتعطل مواهبهم العقلية ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

خامساً : السلامة من العيوب المنفرة :

وهذه الصفة من خصائص الأنبياء الكرام ، فإنه لا يمكن أن تكون فيهم عيوب خلقية أو خلقية ، تنفر الناس من الاجتماع بهم ، أو اتباعهم والسماع لدعوتهم كما أن الأمراض المنفرة كالبرص والجذام ، والتشويه الجسدي لا يكون في أحد من الأنبياء ، فهم وان كانوا من البشر ، تصيبهم العوارض التي تصيب البشر ، إلا أن الله عز وجل قد صانهم من العيوب المنفرة ، وسلمهم من الأمراض الشائنة ، التي تجعل النفوس تنفر منهم ، وما روي عن (أيوب) عليه السلام من أنه مرض واشتد به المرض حتى تعفن جسده وأصبح الدود يخرج من بدنه ، حتى كرهته زوجته ، فإن هذا من الأباطيل والأكاذيب التي نقلت عن (الإسرائيليات) ولا يصح تصديقها أو الاعتقاد بها ، لأنها تتنافى مع صفات الأنبياء ، والقرآن الكريم لم يذكر لنا شيئاً من هذا ، وإنما الذي ذكره أنه قد اصابه الضر في بدنه فدعا ربه — بعد أن اشتد به الكرب والضر — فكشف الله عنه ما أصابه من كرب وبلاء ، قال تعالى :

﴿ وأيوبَ إذ نادى ربَّه أني مسَّنِيَ الضرُّ وأنتَ أرحمُ الراحمينَ . فاستَجَبْنا لهُ فكَشَفْنا ما به من ضرٍ .وآتيناهُ أهلَهُ ومثلَهم معهُمْ رحمةً من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ .

وظاهر من الآية الكريمة أن الضر الذي أصابه كان في جسمه وأهله ، وهذا النوع من الضر يلحق البشر ويلحق الأنبياء ، فان المرض يعتري الأنبياء كما يعتريهم الموت ، وليس في ذلك شيء ينقص من قدرهم ، أو يزري بمقامهم .

سادساً : العصمة :

وسنفرد لها بحثاً خاصاً ان شاء الله لأهميتها والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

الفصل الثالث

عصمة الأنبياء

١ – تعريف العصمة ومعناها الشرعي
٢ – هل العصمة قبل النبوة أو بعدها ؟
٣ – شبهات حول عصمة الأنبياء والرد عليها .
٤ – عصمة آدم أبي الأنبياء عليه السلام
٥ – عصمة ابراهيم خليل الرحمن عليه السلام .
٦ – عصمة يوسف الصديق عليه السلام .
٧ – هل أخطأ الرسول ﷺ .

من المزايا التي امتاز بها الأنبياء على بقية البشر ، بعدهم عن اقتراف المعاصي وعزوفهم عن الشهوات واجتنابهم لكل ما يخل بالمروءة ، أو يهدر الكرامة ، أو يحط من قدر الإنسان .. فهم صلوات الله وسلامه عليهم أكمل الناس خلقاً ، وأزكاهم عملا ، وأطهرهم نفساً ، وأعطرهم سيرة ، لأنهم « القدوة » للبشر وهم الأسوة الحسنة للإنسانية ، ولذلك أمر الله عز وجل بالاقتداء بهم ، والتخلق بأخلاقهم ، والسير على منهاجهم في جميع شئون الحياة قال تعالى :

﴿ أولئكَ الذينَ هدى اللهُ فبهداهُمُ اقتدِه .. ﴾

وقال تعالى :

﴿ لقد كانَ لكُمْ في رسولِ الله أُسوةٌ حسنةٌ .. ﴾

تعريف العصمة :

العصمة في اللغة معناها : المنع ، يقال عصمته عن الطعام أي منعته عن تناوله ، وعصمته عن الكذب أي منعته منه ، ومنه قوله تعالى﴿ قال سآوي إلى جبلٍ يعصِمني من الماء ﴾ .

الآية أي يمنعني من الغرق .

وقوله تعالى ﴿ ولقد راودْتُهُ عنْ نفسِهِ فاستَعصَمَ ﴾ .

أي امتنع امتناعاً شديداً .

وجاء في الحديث الشريف قوله ﷺ :

« أمرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله .. فإذا فعلو ا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله »(١) أي منعوا مني دماءهم وأموالهم .

قال القرطبي : وسميت العصمة عصمة لأنها تمنع من ارتكاب المعصية .

وأما في الشرع : فالعصمة هي : حفظ الله لأنبيائه ورسله عن الوقوع في الذنوب والمعاصي . وارتكاب المنكرات والمحرمات .. فالعصمة ثابتة للأنبياء وهي من صفاتهم التي أكرمهم الله تعالى بها . وميزهم على سائر البشر . فلم تكن لأحد إلا للأنبياء الكرام حيث وهبهم الله هذه النعمة العظمى . وحفظهم من ارتكاب المعاصي والذنوب . صغيرها وكبيرها .. فلا يمكن أن تقع منهم معصية أو مخالفة لأوامر الله عز وجل بخلاف سائر البشر .

والحكمة من ذلك : أن الله عز وجل . أمر باتباعهم والاقتداء بهم . و ال على نهجهم . فهم « القدوة الحسنة » والاسوة الصالحة للخلق . و (النموذج الكامل) للبشرية جمعاء . فلو جاز وقوعهم في المعصية . أو ارتكابهم للموبقات والآثام ، لأصبحت المعصية مشروعة . أو أصبحت طاعتهم علينا غير واجبة . وهذا غير سليم . بل هو أمر مستحيل . فالأنبياء هم القادة . وكيف يصح أن يأمر القائد بالفضيلة . وينهى عن الرذيلة . ثم يرتكب هو أنواع الفواحش والمنكرات ؟! ثم ان المعاصي والذنوب ما هي إلا نجاسات معنوية . وهي تشبه القاذورات والنجاسات الحسية . فكيف يجوز نسبتها إلى الأنبياء والرسل الكرام؟

وقد جاء في الحديث الشريف ما يشير إلى أن المعصية نجاسة باطنية وذلك في قوله ﷺ :

« من ابتلي منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر فانه من يبدلنا صفحته نقم عليه كتاب الله » أو كما ورد. والمعنى : من يظهر المعصية ويعلنها فلا بد

(١) الحديث رواه الشيخان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

من اقامة الحد عليه .

فالعقل والشرع يلزمان القول (بعصمة النبي) اى كيف يجوز أن يكون نبياً ويكون سارقاً ، أو قاطع طريق ، أو شارب خمر ، أو زانياً أو غير ذلك من القاذورات والنجاسات التي تمنع من الاقتداء به ، أو من أتباعه ؟!

وهل يكون لكلام النبي أثر في النفوس إذا كانت سيرته غير عطرة ، أو كانت حياته ملوثة ببعض الموبقات والآثام

إذا فلا بد من أن تكون حياة (النبي) حياة كريمة فاضلة ، مشرقة بنور الهداية ، معروفة بالعفة والطهارة ، زاخرة بالفضل والنبل والصلاح ، وهذا ما يسمى بـ (عصمة الأنبياء) !.

جاء في كتاب « العقيدة الإسلامية »[1] في باب صفة العصمة ما نصه :

(وحيث ثبت أن الرسول هو « المثل الأعلى » في أمته ، الذي يجب الاقتداء به في اعتقاداته ، وأفعاله ، وأقواله ، وأخلاقه ، إذ هو الأسوة الحسنة بشهادة الله له — إلا ما كان من خصائصه بالنص — وجب أن تكون كل اعتقاداته ، وافعاله ، وأقواله ، وأخلاقه الاختيارية بعد الرسالة موافقة لطاعة الله تعالى ، ووجب أن لا يدخل في شيء من اعتقاداته وأفعاله ، وأقواله ، وأخلاقه معصية لله تعالى ، لأن الله تعالى أمر الأمم بالاقتدء برسلهم ، فاذا أمكن أن يفعل الرسل بعد الرسالة المعاصي كان معنى الأمر باتخاذهم أسوة — في حال المعصية جزء من أفعالهم — أمرا بالمعصية وفي هذا تناقض ظاهر) .

عصمة الله لرسوله منذ الطفولة :

وقد حفظ الله تعالى نبينا ﷺ منذ طفولته ، وعصمه من أفعال الجاهلية في صغره وشبابه ، إلى أن جاءته النبوة فأكملت عليه النعمة وتمت له « العصمة » بتشريفه بتحمل أعباء الرسالة على الوجه الأتم الأكمل .

---

(١) هو كتاب لاخينا الفاضل الاستاذ (عبد الرحمن حبنكه) المدرس بكلية الشريعةو الدراسات الإسلامية بمكة المكرمة ، وهو من الكتب النفيسة في العقيدة الإسلامية .

قال (ابن هشام) في السيرة النبوية :

(فشب رسول الله ﷺ والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته ، حتى بلغ ان كان رجلا ، وأفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم حسباً ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً ، حتى ما كان اسمه في قومه إلا الأمين ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة .

وكان رسول الله ﷺ — فيما ذكر لي — يحدث عما كان الله يحفظه به في صغره ، وأمر جاهليته ، أنه قال :

« لقد رأيتني في غلمان من قريش ، ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان كلنا قد تعرى ، وأخذ ازاره فجعله على رقبته ، يحمل عليه الحجارة ، فاني لأقبل معهم كذلك وأدبر ، إذ لكمني لاكم لكمة وجيعة ثم قال : شد عليك ازارك ، قال : فأخذته وشددته علي ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وازاري علي من بين أصحابي » [(١)] .

قال (السهيلي) في التعليق على هذه القصة : وهذه القصة إنما وردت في الحديث الشريف في حين بنيان الكعبة ، وكان رسول الله ﷺ ينقل الحجارة مع قومه إليها ، وكانوا يحملون أزرهم على عواتقهم لتقيهم الحجارة ، وكان رسول الله ﷺ يحملها على عاتقه وازاره مشدود عليه ، فقال له العباس رضي الله عنه : يا ابن أخي ، لو جعلت ازارك على عاتقك ففعل فسقط مغشياً عليه ، ثم قال : ازاري ، ازاري ، فشد عليه ازاره وقام يحمل الحجارة ، وحديث ابن اسحاق ان صح أنه كان في صغره ، فمحمله على أن هذا الأمر كان مرتين ، مرة في صغره ، ومره في شبابه .

---

(١) السيرة النبوية الجزء الأول ص ١٩٤

هل العصمة قبل النبوة أم بعدها ؟

وقد اختلف العلماء في (عصمة الأنبياء) هل هي قبل النبوة أم بعدها ؟ وهل تكون العصمة عن الكبائر فقط أم عن الكبائر والصغائر من الذنوب ؟

فذهب بعضهم إلى أن العصمة ثابتة لهم قبل النبوة ، وبعدها ، وذلك لأن السلوك الشخصي – ولو قبل النبوة – يؤثر على مستقبل الدعوة للنبي ، فلا بد الا وأن يكون إذا من ذوي السيرة العطرة ، والصفاء النفسي ، حتى لا يكون ثمة مطعن في رسالته ودعوته .

واستدلوا على ذلك بأن الله تبارك وتعالى قد اختار أنبياءه من صفوة البشر ، ورعاهم منذ الصغر على عينه كما قال لموسى عليه السلام ﴿ ولِتصنعَ على عيني﴾ وجعلهم من المصطفين الأخيار ﴿ وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾ فلا بد إذا أن يكونوا معصومين ومحفوظين قبل النبوة وبعدها .

وأما الفريق الآخر : فقد ذهبوا إلى أن (عصمة الأنبياء) إنما تكون بعد النبوة ، وتكون من الصغائر والكبائر معاً ، لأن البشر ليسوا مأمورين باتباعهم قبل النبوة ، فالاتباع والاقتداء إنما يكون بعد نزول الوحي عليهم . وبعد تشريفهم بحمل الرسالة والأمانة ، وأما قبلها فانما هم كسائر البشر ، ومع ذلك فان سيرتهم تأبى عليهم الوقوع في المعاصي والآثام ، أو الانحراف في طريق الفاحشةوالرذيلة فانهم ولو كانوا قبل النبوة غير معصومين ، لكنهم محظوظون بالعناية والفطرة.

جاء في كتاب (العقيدة الإسلامية وأسسها) ما نصه : ان النبي قبل اصطفائه بالنبوة على وجهين :

١ – فهو اما أن يكون لم يكلف بعد مطلقاً بشرع ما ، فالعصمة في حقه غير ذات موضوع ، لأن المعاصي والمخالفات بعد ورود الشرع والتكليف به، والمفروض أنه لم يكلف ، فلا مجال لبحث العصمة أو عدمها ، لأن الذمة خالية من التكليف .

لكن علو فطرة الرسول ، وصفاء نفسه ، وسمو روحه ، وصحة عقله

تقتضي أن يكون أنموذجاً رفيعاً بين قومه . في أخلاقه . ومعاملاته . وأمانته . وفي بعده عن ارتكاب القبائح ، التي تنفر منها العقول السليمة والطباع المستقيمة.

٢ – وأما أن يكون قد كلف بشرع رسول سابق ، كسيدنا لوط عليه السلام حينما كان تابعاً – قبل نبوته – لعمه ابراهيم عليه السلام . وكأنبياء بني اسرائيل من بعد موسى قبل أن يوحى إليهم بالنبوة . وهذه الحالة لم يثبت في عصمة النبي فيها دليل قاطع . لا عن الكبائر ، ولا عن الصغائر . لكن سيرة الأنبياء التي أثرت عنهم قبل نبواتهم تشهد بأنهم من أبعد الناس عن المعاصي كبائرها وصغائرها .

ولئن وقع منهم شيء من ذلك فبهفوات نادرة ، لا تطعن فيهم لعلو فطرتهم . وصفاء نفوسهم ، وسمو أرواحهم والمهمة التي سيكلفون بها فيما بعد . وإنما تقع منهم هذه الهفوات اثباتاً لبشريتهم أمام الخلائق ، لئلا يرفعوهم فوق المستوى البشري ، ويحملوهم من صفات الألوهية ما لا يمكن أن يتصفوا به . فهم عبيد مخلوقون لله تعالى . وليظهر الفرق بين أحوالهم قبل النبوة وأحوالهم بعدها [١] .

والصحيح الذي عليه المعول من أقوال العلماء هو : أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون عن المعاصي (الصغائر والكبائر) بعد النبوة باتفاق. وأما قبل النبوة فيحتمل أن تقع منهم بعض المخالفات اليسيرة التي لا تخل بالمروءة ولا تقدح بالكرامة والشرف .

قال العلامة (القرطبي) رحمه الله في تفسيره الجامع لأحكام القرآن :

« واختلف العلماء هل وقع من الأنبياء – صلوات الله عليهم أجمعين – صغائر من الذنوب ، بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر . ومن كل رذيلة فيها شين ونقص اجماعاً ، فقال جمهور الفقهاء ، انهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها ، لأنا أمرنا باتباعهم ، في أفعالهم

(١) العقيدة الإسلامية للأستاذ حبنكه ص ١١٦ .

وآثارهم وسيرهم . أمراً مطلقاً من غير التزام قرينة ، فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم ، إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القربة والاباحة ، أو الحظر ، والمعصية .. ولا يصح أن يؤمر المرء بامتثال أمر لعله معصية .

وقال (أبو اسحق الأسفرايني) من علماء أهل السنة : لا يقع من الأنبياء ذنوب ، لأنهم معصومون من الكبائر والصغائر . وذلك مقتضى دليل المعجزة، وقال بعضهم بوقوع الصغائر منهم ، ولا أصل لهذه المقالة ، والذي عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم .

وقال بعض المتأخرين :

الذي ينبغي أن يقال : ان الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ، ونسبها إليهم ، وعاتبهم عليها ، واخبروا بها عن نفوسهم ، وتنصلوا منها ، وأشفقوا منها وتابوا ، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها ، وان قبل ذلك آحادها ، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم ، وإنما وقعت على جهة الخطأ والنسيان فهي بالنسبة إلى غيرهم (حسنات) وفي حقهم (سيئات) ولقد أحسن الجنيد حيث قال : (حسنات الأبرار سيئات المقربين) إذ قد يؤاخذ الوزير ، بما يثاب عليه الأجير ، قال القرطبي : وهذا هو الحق ، فهم صلوات الله وسلامه عليهم ، — وان كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم — فلم يخل ذلك بمناصبهم ولا قدح في رتبهم، بل تلافاهم واجتباهم ، وهداهم وزكاهم ، واختارهم واصطفاهم[1] صلوات الله عليهم وسلامه» .

هل تكون العصمة لغير الأنبياء ؟

والعصمة لم تثبت لغير الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، إذ كل فرد من البشر معرض للخطأ والانحراف . والوقوع في المعصية ، إلا أن الله عز وجل حفظ بعض أوليائه ، من الكبائر ، وصانهم عن الرذائل ، عن

---

(١) تفسير القرطبي الجزء الأول ص ٣٠٨ .

طريق « الحفظ » والتأييد ، وهذا من اللطف الإلهي ، لا من « العصمة » التي خص الله بها رسله وأنبياءه .

قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وآمنوا برسوله يؤتِكُمْ كِفلَيْنِ[1] من رحمتهِ ،ويجعلْ لكمْ نوراً تمشونَ بهِ ،ويغفرْ لكمْ ،واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾.

فالنور الذي أشارت إليه الآية الكريمة هو المراد باللطف الإلهي ، الذي يكون للأولياء والأتقياء ، أو للصديقين من الرجال ، وهو من الحفظ والتأييد ، لا من العصمة .

وقد كان من الصحابة الكرام من خصه الله بذلك الفضل الإلهي أمثال (أبي بكر) و (عمر) رضي الله عنهما ، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام بأن الله قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه ، وقال لعمر (والذي نفسي بيده ما رآك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك يا عمر) .

ودعوى بعض المخالفين بعصمة بعض الأشخاص لا صحة لها ، ولا برهان من كتاب أو سنة ، وإنما هي مجرد أوهام وأحلام ، فما كانت (العصمة) لأحد إلا للأنبياء لأن الله جعلهم قدوة للعالمين[2] كما قال تعالى : ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعلَ الخيرات وإقامَ الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾ .

وكل انسان – عدا الأنبياء الكرام – معرض للخطأ ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله تعالى :

(ما منا إلا من رد ورد عليه ، إلا صاحب هذا القبر) يعني بذلك النبي ﷺ بسبب العصمة .

---

(١) كفلين الحظ والنصيب ، والمراد يؤتكم مثلين من الأجر تفسير (القرطبي) .
(٢) انظر رسالة (الخطوط العريضة لمذهب الشيعة الإثني عشرية) لمؤلفها الفاضل الشيخ محب الدين الخطيب فانها نفيسة .

عقيدة أهل الكتاب في الأنبياء :

وإلى جانب هذه الصورة المشرفة ، صورة الكمال الإنساني للأنبياءالكرام (الأسوة ، والقدوة ، والامامة ، والهداية للبشرية) التي يضفيها عليهم القرآن الكريم ، وينعتهم بها ، نجد عقيدة أهل الكتاب (اليهود والنصارى) تتجاوز الحد من النيل من كرامة الأنبياء الأطهار ، فلا يكتفون بنسبة المعصية إليهم ، وعدم الاعتقاد بعصمتهم ، بل يجعلون منهم (أبطالا) للجريمة و (قادة)للفجور والدعارة وارتكاب أعظم الآثام .

تجد في التوراة (المحرفة طبعاً) للشيء الكثير من هذه المخازي ، منها أن أحد الأنبياء وهو (لوط عليه السلام) شرب الخمر ثم نام مع ابنتيه (وطأهما بعد أن سكر) فحملتا منه عن طريق الزنى ، استغفر الله !! أي جريمة أقبح من هذه الجريمة النكراء أن يرتكب النبي جريمة الزنى مع ابنتيه بعد معاقرة الخمرة يا لشناعة الأمر ، وفظاعة الاتهام !!

ونحن ننقل النص الذي ورد في التوراة ، ليتبين للقارىء عقيدة اليهود في الأنبياء ، ومدى الافتراء والبهتان الذي ألصقه اليهود بهم ، مما نقطع ونجزم بأنها أخبار كاذبة على الأنبياء الكرام ، وأنها من التحريف لكتاب الله . جاء في سفر التكوين صفحة (١٢٨) ما نصه :

« فصعد لوط وسكن الجبال وابنتاه معه،وخاف أن يسكن صاغر ، وأوى إلى كهف هو وابنتاه .. فقالت الكبرى منهما للصغرى : ان أبانا قد شاخ ، وليس رجل على الأرض يستطيع أن يدخل علينا ، فهلمي نسقيه خمراً ، ونضطجع معه ، ونقيم من أبينا خلفاً ، فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة ودخلت الكبرى فاضطجعت مع أبيها وهو لا يعلم عند انضجاع ابنته ولا نهوضها .. ولما كان الغد قالت الكبرى للصغرى : هوذا قد اضطجعت البارحة مع أبي فلنسقه خمراً في ليلتنا هذه أيضاً ، وادخلي فاضطجعي معه فنقيم نسلا من أبينا ، فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة أيضاً ، ودخلت الصغرى فاضطجعت مع أبيها ،

ولم يعلم عند اضطجاعها ، فحملت ابنتا لوط من أبيهما ، وولدت الكبرى ابناً ودعت اسمه (مواب) وهو أبو الموابيين إلى يومنا هذا ، وولدت الصغرى أيضاً ودعت اسمه (عمان) فهو أبو العمانيين إلى اليوم » :

ونجد في الباب الثامن والثلاثين من سفر التكوين ص ١٢٨ أن (يهوذا بن يعقوب) زنا بزوجة ابنه ، وحملت بالزنى منه وولدت توأمين (فارض ، وزارح) وأن داود وسليمان وعيسى كلهم من أولاد فارض كما هو مصرح به في الباب الأول من (انجيل متى) .

وأن (داود) عليه السلام زنا بامرأة (أوريا) قائد جيشه وحملت بالزنى منه ، فأهلك زوجها بالمكر وأخذها زوجة له ، كما هو مصرح به في الباب الحادي عشر من سفر (صموئيل) .

وهناك ما هو أدهى وأمر .. فإن اليهود يزعمون ان (سليمان) عليه السلام ارتد في آخر عمره ، وكان يعبد الأصنام بعد الارتداد ، وبنى المعابد لها كما هو في الباب الحادي عشر من سفر الملوك الأول .

ويا ليت شعري ماذا يبقى من حرمة الأنبياء، وكيف يمكن الاقتداء بهم ، إذا كان هذا هو تاريخهم .. (سكر ، وعربدة ، واقتراف لجرائم الزنى ، وسفك للدماء ، وعبادة للأوثان) ؟؟

هذه بعض عقائد اليهود في أنبيائهم ، وكلها كذب وزور وبهتان . ونحن نقطع ونجزم بأنها كلها وأمثالها باطلة ، وأنها من تحريف اليهود . لا من التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام .

وأما (النصارى) فانهم لا يعتقدون بعصمة الأنبياء وذلك بناء على عقيدتهم بألوهية السيد (المسيح) عليه السلام فهو وحده المعصوم . وكل البشر — بما فيهم الأنبياء — يخطئون ، وليس هناك شفيع ولا مخلص سوى (المسيح) لأن المخطىء لا يخلص المخطئين ، على حد تعبير الانجيل ..

وعند النصارى صور مخزية لا تقل شناعة عن عقيدة اليهود في الأنبياء وكلها ترميهم باقتراف الآثام وارتكاب الجرائم مما لا يقبله عقل ولا نقل .

يقول المرحوم محمد رشيد رضا في كتابه (الوحي المحمدي) ما نصه: إذا كان ارسال الأنبياء إلى البشر، لأجل هدايتهم إلى تزكية أنفسهم، بماتصلح به أحوالهم في دنياهم، ويستعدون به لحياة أعلى من هذه الحياة الدنيا في نشأة أخرى، فلا يتم هذا الغرض ولا تتحقق هذه الحكمة إلا إذا كان هؤلاء الأنبياء أهلا لأن يقتدي بهم في أعمالهم وسيرتهم، والتزام الشرائع والآداب التي يبلغونها عن ربهم، ومن ثم قال علماؤنا بوجوب (عصمة الأنبياء) من المعاصي والرذائل وبالغ بعضهم فيها حتى قالوا بعصمتهم من الذنوب الصغائر والكبائر، قبل النبوة وبعدها، وخص بعضهم العصمة من الصغائر بما كان باعثه الخسة والدناءة.

وأهل الكتاب لا يقولون بهذه العصمة، وكتبهم المقدسة ترمي بعض كبار الأنبياء بكبائر الفواحش المنافية لحسن الأسوة، بل المجرئة على الشرور والمفاسد.

والنصارى منهم يجعلون معاصي الأنبياء دليلا على عقيدتهم، وهي أن المسيح هو المعصوم وحده لأنه رب وإله، ولأنه هو المخلص للناس من العقاب على الخطيئة اللازمة لكل ذرية آدم بالوراثة له، وأنه لا شفيع ولا مخلص لهم غيره، لأن المخطىء لا يخلص المخطئين وهو منهم، وهذه العقيدة وثنية مخالفة لدين الأنبياء، وكتبهم، وللعقل، ومطابقة للأديان الوثنية الهندية وغيرها.

بيد أن كتب العهدين (القديم والجديد) المقدسة عندهم، المحرفة في اعتقادنا، لا تشهد لهم برمي جميع الأنبياء بالذنوب فضلا عن المعاصي، التي هي أشد من الذنوب، فإن (يوحنا المعمدان)[1] لم يوصم بخطيئة قط، بل شهدت له أناجيلهم، بما يدل على أنه أعظم من المسيح في عصمته ففي إنجيل (لوقا) جاء قوله: (انه يكون عظيماً أمام الرب، وخمراً ومسكراً لا يشرب ومن بطن أمه يمتلىء بروح القدس).

وفيه أيضاً يقول: (كانت يد الرب معه).

وقال المسيح فيه: (الحق أقول لكم انه لم يقم بين المولودين من النساء

---

(١) هو يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام.

أعظم من يوحنا المعمدان)[1].

بل شهدت الأناجيل أن المسيح عليه السلام أهان أمه واخوته ، ولم يسمح لهم بلقائه ، وقد استأذنوا عليه ليكلموه ، جاء في انجيل (لوقا) : فأخبروه قائلين : أمك واخوتك واقفون خارجاً يريدون أن يروك ، فأجاب وقال لهم : أمي واخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها » .

يقول السيد رشيد رضا :

نعم ان اخوته لم يكونوا يؤمنون به كما هو مصرح به في موضع آخر ، ولكن هل كانت أمه كذلك ؟ وهل يجازيها هذا الجزاء ؟ والله تعالى يوصي بالإحسان بالوالدين حتى المشركين ، ويفضل أم السيد المسيح على نساء العالمين ، واهانة الأم ذنب في جميع الشرائع والآداب .. ونحن نبرئه من كل ذلك[2] .

والخلاصة أن عقيدة المسلمين في الأنبياء هي العقيدة الحقة ، التي جاء بها القرآن الكريم ، وشهد بها واقع حياتهم الطاهرة الشريفة ، وهي التي تتناسب مع مقامهم العالي ، ومنزلتهم الرفيعة ، والقول (بعصمة الأنبياء) والاعتقاد بطهارتهم ونزاهتهم ، هو ما يتفق مع النصوص القرآنية المجيدة ، في جعلهم أئمة الدنيا والدنيا ، وحملهم لواء الدعوة والهداية للعالمين وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه :

﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ،وأوحينا إليهم فعلَ الخيرات ،وإقامَ الصلاة وايتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين ﴾ .

ولا بد في القدوة أن يكون كاملا ، ولا بد في النبي ان يكون معصوماً .. هذا ما يقتضيه العقل ، ويوجبه الشرع وسنتعرض في مقال آخر ان شاء الله لدفع بعض الشبهات عن (عصمة الأنبياء) ليظهر الحق ، وينبثق ضياؤه ، والله ولينا ونعم الوكيل .

---

(١) انجيل متى اصحاح (١١) .

(٢) الوحي المحمدي ص ٢٨ .

شبهات حول عصمة الأنبياء :

وقد يقول قائل : كيف يكون الأنبياء « معصومين » مع أن القرآن الكريم قد أثبت لبعضهم بعض المخالفات ونسب إلى البعض الآخر منهم الذنب والمعصية فقال في حق آدم : ﴿ وعصى آدمُ ربَّه فغوى ﴾ .

وقال في حق نوح ﴿ إني أعظكَ أنْ تكونَ من الجاهلين ﴾ .

وقال لسيد المرسلين﴿ليغفر لكَ اللهُ ما تقدّمَ من ذنبكَ وما تأخرَ ..﴾ ؟؟

وللجواب على ذلك نقول :

« ان العصمة للأنبياء ثابتة كما دلت على ذلك النصوص القرآنية الكريمة ، وكما قضى بذلك المنطق العلمي السليم .. إذ كيف يأمر عز وجل البشر باتباعهم والاقتداء بهم ، والسير على نهجهم ان لم يكونوا مثالا للكمال ، ونموذجاً للفضل والنبل والطهر !! ولو لم تكن (العصمة) من صفاتهم لما كنا مكلفين باتباعهم في جميع الأعمال والأفعال !.

أما ما ورد من بعض النصوص الشرعية ، التي يدل ظاهرها على وقوع المعاصي والمخالفات من بعض الأنبياء صلوات الله عليهم ، فهي محمولة على بعض الوجوه الآتية :

أولاً : أنها ليست معصية وإنما هي فعل خلاف الأولى .

ثانياً : أنها ليست معصية وإنما هي خطأ في الاجتهاد .

ثالثاً : على فرض أنها مخالفة ومعصية فانها قد وقعت قبل النبوة .

معصية آدم عليه السلام :

معصية آدم عليه السلام ، التي صرح القرآن بها في قوله تعالى ﴿ فأكلا منها فبدتْ لهمُا سوآتُهُما ، وطَفِقا يخصِفَانِ عليهما من ورقِ الجنّةِ ، وعصى

آدمُ ربَّهُ فغوى . ثم اجتباهُ ربُّه فتابَ عليهِ وهدى﴾ .

إنماكانت هذه المخالفة والمعصية قبل النبوة بدليل قوله تعالى (ثم اجتباه ربه) والاجتباء هو اصطفاء الله له بالرسالة ، فتكون المعصية قد وقعت من آدم عليه السلام قبل النبوة .

وهناك قول آخر أن « آدم » عليه السلام إنما أكل من الشجرة ناسياً بدليل قوله تعالى :

﴿ ولقد عهِدْنا [1] إلى آدمَ من قبلُ فنسيَ ولمْ نجدْ لهُ عَزْما ﴾ .

وقيل : ان آدم عليه السلام لما نهي عن الأكل من الشجرة بقوله تعالى ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ظن أن المراد عين هذه الشجرة لا جنسها فأكل من شجرة أخرى من جنسها فخالف الأمر ، وكان ذلك باجتهاد منه ، لا عن سابق تعمد واصرار على المخالفة .

وأقرب الأقوال في هذا أن نقول : ان آدم أكل من الشجرة ناسياً،والنسيان يرفع الإثم عن الفاعل كما قال عليه الصلاة والسلام : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » وكما قال تعالى : ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ .. ولم يكن من آدم تعمد أو عز م منه على المعصية بدليل الآية التي ذكرناها (فنسي ولم نجد له عزما) .. وذلك ما اختاره بعض المفسرين كالقرطبي وابن العربي: أو نقول ان المعصية وقعت منه قبل النبوة وذلك ما اختاره صاحب تفسير المنـار .

جاء في تفسير المنار الجزء الأول صفحة (٣٨٠) قوله :

« وأما مسألة عصمة آدم ، فالجري على طريقة السلف يذهب بنا إلى أن العصيان والتوبة من المتشابه ، كسائر ما ورد في القصة ، مما لا يركن العقل إلى ظاهره ، ولنا أن نقول : ان تلك مخالفة صدرت منه قبل أن يدركه عزم النبوة

---

(١) تقول : عهدت إليه بكذا ، أي أمرته بكذا والمعنى : أمرنا آدم بعدم الأكل من الشجرة فنسي هذا الأمر ولم نجد له عزماً على المعصية .

كما قال جل شأنه (فنسي ولم نجد له عزما) .. والاتفاق إنما هو على العصمة عن مخالفة الأوامر بعد النبوة ، وقد يكون الذي وقع من آدم نسياناً ، فسمي تفخيماً لأمره عصياناً .. والنسيان والسهو مما لا ينافي العصمة » .

وأما (ابن العربي) رحمه الله فقد رجح الأول ، وذهب إلى أن المخالفة وقعت من آدم عليه السلام بسبب النسيان ، فقد جاء في كتاب أحكام القرآن الجزء الثالث صفحة (١٢٤٩) ما نصه :

« كم قال في تنزيه الأنبياء عن الذي لا يليق بمنزلتهم مما ينسب الجهلة إليهم — من وقوعهم في الذنوب عمداً منهم إليها ، واقتحاماً لها مع العلم بها ، وحاشا لله — فان الأوساط من المسلمين يتورعون عن ذلك فكيف بالنبيين .. ولكن الباري سبحانه وتعالى بحكمه النافذ ، وقضائه السابق ، أسلم آدم إلى المخالفة ، فوقع فيها متعمداً ناسياً ، فقيل في تعمده (وعصى آدم ربه) .. وقيل في بيان عذره ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما﴾ ونظيرها : أن يحلف الرجل لا يدخل دارا أبداً ، فيدخلها متعمدا ناسياً ليمينه ، أو مخطئاً في تأويله ، فهو عامد ، ناس ، ومتعلق العمد غير متعلق النسيان .. وجاز للمولى أن يقول في عبده : عصى تحقيراً وتعذيباً ،ويعود عليه بفضله فيقول : نسي تنزيهاً.

ثم قال رحمه الله :

« ولا يجوز لأحد منا اليوم أن يخبر بذلك (أي بعصيان آدم) إلا إذا ذكرناه في أثناء قوله تعالى عنه ، أو قول نبيه ، فأما أن يبتدىء ذلك من قبل نفسه ، فليس بجائز لنا في آبائنا الأدنين ، المماثلين لنا ، فكيف في أبينا الأقدم الأعظم الأكرم ، النبي المقدم ، الذي عذره الله ، وتاب عليه وغفر له) .

وقال العلامة القرطبي رحمه الله :

(واختلفوا كيف أكل منها مع الوعيد المقترن بالقرب وهو قوله تعالى ﴿فتكونا من الظالمين﴾ ؟ فقال قوم : أكلا من غير التي أشير إليها ، فلم يتأولا النهي واقعاً على جميع جنسها ، وقيل : أكلها ناسياً ، وهو الصحيح لاخبار الله تعالى في كتابه العزيز بذلك حتماً وجزماً فقال ﴿ولقد عهدنا إلى آدمَ من قبلُ

فنسي ولم نجد له عزما ﴾ .

ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقظ ، لكثرة معارفهم ، وعلو منازلهم ، ما لا يلزم غيرهم ، كان تشاغله عن تذكر النهي تضييعاً صار به عاصياً ، أي مخالفاً .. قال أبو امامة : « لو أن أحلام بني آدم منذ خلق الله الخلق ، إلى يوم القيامة وضعت في كفة ميزان ، ووضع حلم آدم في كفة أخرى لرجحهم ، وقد قال الله تعالى :﴿ ولم نجد لهُ عزما ﴾[1] .

إذا يتوضح لنا من أقوال العلماء والمفسرين أن آدم عليه السلام لم يتعمد مخالفة أمر الله عز وجل ، وإنما أكل من الشجرة متأولا ، بطريق الاجتهاد ، أو ناسياً لأمر الله تبارك وتعالى ، فعاتبه ربه باخراجه من الجنة وانزاله إلى الأرض وذلك لحكمة إلهية سابقة ، فلا يجوز لنا أن نرميه بالعصيان ، مع أن ما وقع منه لم يكن إلا بسبب النسيان، ولا أن نسيء الأدب ولا سيما بعد أن نزل القرآن بقوله تعالى ﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ !.

عصمة ابراهيم عليه السلام :

وأما بالنسبة لابراهيم الخليل صلوات الله عليه فقد وردت بعض النصوص من الكتاب والسنة ، ظاهرها يفيد عدم العصمة .. وهذا الظاهر غير مراد لأنه يعارض نصوصاً أخرى، ولا بد حين الجمع بين هذه النصوص ، من فهمها على الوجه الذي يتفق مع عقيدة المسلم بـ (عصمة الأنبياء) الكرام .

أما النص الأول فهو في سورة الأنعام في قوله تعالى :

﴿ فلما جنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً ، قال : هذا ربي ، فلما أفَلَ قالَ لا أحبُّ الآفلينَ[2]. فلما رأى القمرَ بازغاً قالَ : هذا ربي ، فلما أفلَ قالَ لـَئِنْ لمْ يهدِني ربي لأكونَنَّ من القومِ الضّالينَ . فلما رأى الشمسَ بازغةً

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٠٦ .
(٢) جن : بمعنى أظلم واشتد ظلامه ، أفل : بمعنى غاب ، بازغاً : طالعاً .

قال : هذا ربي ، هذا أكبرُ ، فلما أفلَتْ قالَ يا قومِ : إني بريءٌ مما تشركونَ إني وجهتُ وجهيَ للذي فطرَ السمواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ .

فهذه الآيات الكريمة توهم بظاهرها أن ابراهيم كان شاكاً في الله ، جاهلا بعظمته ، لا يدري من هو الإله المستحق للعبادة !.

وقد يظن بعض الناس ان (ابراهيم) عليه السلام كان متأثراً ببيئة قومه ، وأنه في بدء نشأته عبد معهم الكواكب ، كما عبد الشمس والقمر ، وهذا جهل فاضح وخطأ مبين ، لا يصدر إلا عمن جهل صفات الأنبياء الكرام ، ولم يفقه معاني القرآن الحكيم ..

فالله — جل ثناؤه — قد أخبر عن نبيه وخليله (ابراهيم) عليه السلام ، بأنه قد أطلعه على ملكوت السموات والأرض ، وأنه كان من المؤمنين الموحدين ، الكاملين في الإيمان واليقين ، وأن الله تعالى قد وهبه كمال الرشد منذ الصغر ، وأعطاه الحجة الدامغة ، التي تقصم ظهر كل معاند ومكابر ، وأنه في مقام الاستدلال واقامة البرهان على وجود الله الواحد الأحد ، ما كان يغلبه أحد ، استمع إلى صدر الآيات الكريمة ، كيف أن الله عز وجل يسوق البراهين على كمال يقين ابراهيم فيقول جل ثناؤه :

﴿وإذ قالَ إبراهيمُ لأبيه آزر أتتخذُ أصناماً آلهةً ؟ إني أراكَ وقومَكَ في ضلالٍ مبينٍ . وكذلكَ نُري إبراهيمَ ملكوتَ السمواتِ والأرضِ وليكونَ من الموقنين . فلما جنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً .. ﴾.

فالله عز وجل أعطى ابراهيم الحجج المقنعة ، والبراهين الساطعة ، التي بها قام الدليل على وجود الصانع الحكيم ، فهو يجادل أباه بقوله ﴿ أتتخذ أصناماً آلهة ؟﴾ ثم يصفه وقومه بالضلالة في عبادة من لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يغني عن صاحبه شيئاً ، فيقول : ﴿ إني أراكَ وقومَكَ في ضلالٍ مبين﴾ .

ثم يأتي البرهان على كمال يقين ابراهيم بشهادة الله عز وجل﴿ وكذلك نُري ابراهيم ملكوتَ السمواتِ والأرض وليكونَ من الموقنين﴾ .

والآيات التي جاءت بعدها إنما هي في مقام الاستدلال على وجود الله ، وفي تقرير الحجة على قومه ، بحيث يتنزل معهم إلى مستوى إدراكهم وفهمهم ، ويتدرج معهم على حسب اعتقادهم ، فيقول عن النجم هذا ربي ، ثم عن القمر ثم عن الشمس ، ليبطل عقيدتهم في عبادة هذه الآلهة المزعومة بالمنطق السليم ، وبالحجة والبرهان .. ولهذا ختم الله عز وجل هذاه القصة بقوله جل وعلا :

﴿ وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾ .

ولقد ذكر العلامة (الزمخشري) كلاماً رائعاً هو في منتهى الجودة والاتقان ننقل طرقاً منه حول تفسير هذه الآيات الكريمة ، قال رحمه الله :

(وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام ، والشمس ، والقمر ، والكواكب ، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم ، ويرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً ، لقيام دليل الحدوث فيها ، وأن وراءها محدثاً أحدثها ، وصانعاً صنعها ، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها ، وانتقالها ومسيرها ، وسائر أحوالها .. وقول ابراهيم (هذا ربي) قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل ، فيحكي قوله كما هو ، غير متعصب لمذهبه ، لأن ذلك أدعى إلى الحق ، وأنجى من الشغب ، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة حيث يقول ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ أي لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال ، المنتقلين من مكان الى مكان المحتجبين بستر ، فإن ذلك من صفات الأجرام ، وقوله ﴿ لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴾ تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلهاً — وهو نظير الكواكب في الأفول — فهو ضال وان الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه) (١) .

فالقصة التي ساقها القرآن الكريم ، إنما ترمز إلى اسلوب الاقناع وقـوة الحجة ، التي أعطاها الله سبحانه وتعالى ، لنبيه وخليله ابراهيم عليه السلام ، وكيف استطاع ان يفحم قومه في اقامة البرهان على وجود الله ، وأن يبرهن لهم ضلالهم وخطأهم في عبادة الكواكب والشمس والقمر .... ويظهر أن ابراهيم

---

(١) تفسير الكشاف الجزء الثاني صفحة ٤٠ .

عليه السلام قد سلك معهم أيسر الطرق لبلوغ غرضه ، فلم يجابههم بالضلال ، وإنما تدرج معهم فادعى أن (الكوكب) الذي رآه ساطعاً في السماء هو ربه، وذلك ليستأنسوا بكلامه ، ثم لما غاب الكوكب أنكر ابراهيم أن يكون هذا الكوكب صالحاً لأن يكون رباً ، لأنه متغير متنقل ، وذلك علامة الحدوث .. ثم لما رأى (القمر) بازغاً مضيئاً في السماء ، قال هذا ربي ، فلما غاب القمر ولم يعد له نور ، أنكر أن يكون رباً معبوداً ، وهنا لمح ابراهيم إلى ضلالهم ولكن بأسلوب في منتهى الحكمة حيث قال ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾ فما عرض إلى التصريح بضلالهم وإنما اتهم نفسه بالضلالة ان عبد هذا الإله المتحرك المتنقل ، الذي تظهر عليه علامات الحدوث ، وقوله (من القوم الضالين) تلميح بضلال من عبد القمر .

ثم لما بزغت الشمس ، وسطعت بأشعتها الذهبية على الكون ، وأضاءت الوجود ، قال : هذه الشمس ربي فهي أكبر المخلوقات وهي أحق بالعبادة من سائر النجوم والكواكب ، وقال ذلك ليقيم الحجة على ضلالهم ، فلما غابت الشمس ، وتوارت خلف الأفق ، ولم يعد لها ضياء أو نور .. صرح هنالك بضلال من يعبدها أو يعبد تلك المحدثات ، وتبرأ من قومه ومن عبادتهم لها وذلك بعد أن ظهرت الحجة ، وتبلج الحق ، وبلغ من الظهور غاية المقصود.. ﴿قال يا قوم إني بريء مما تشركون . اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ..﴾ إلى قوله تبارك وتعالى ﴿وتلك حجتنا آتيناها ابراهيمَ على قومه نرفعُ درجاتٍ من نشاءُ إنَّ ربكَ حكيمٌ عليمٌ﴾.

فظهر أن هذه الأقوال من ابراهيم الخليل لم تكن شكاً في الله ، ولم تكن جهلا بالخالق جل وعلا .. وإنما كانت من أجل اقامة الحجة على ضلال قومه ، عن طريق البرهان والاستدلال ، وافحامهم بأعظم الحجج الدامغة .

يقول (ابن العربي) في أحكام القرآن :

(والذي أوتيه ابراهيم عليه السلام من العلم بالحجة ، بظهور دلالة التوحيد، وبيان عصمة ابراهيم عن الجهل بالله تعالى ، والشك فيه ، والاخبار أن ما جرى

بينه وبين قومه إنما كان احتجاجاً ، ولم يكن اعتقادا) [1].

فمن ظن بابراهيم الشك ، أو اعتقد أنه عبد الشمس أو الكواكب ، فقد جانب الحق ، وأخطأ الفهم ، وجهل صفات الأنبياء والمرسلين .. وكيف يكون ذلك والله جل جلاله قد أعطاه العقل وكمال الرشد قبل النبوة ﴿ ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾ !!

أما النص الثاني الذي يوهم عدم العصمة فهو قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيمُ ربِّ أرني كيفَ تُحيي الموتى !! قالَ : أولَمْ تؤمنْ ؟ قالَ : بلى ولكنْ ليطمئنَّ قلبي . قالَ فخذْ أربعةً من الطيرِ فصُرْهُنَّ [2] إليكَ ثمَّ اجعلْ على كلِّ جبلٍ منهنَّ جزءاً . ثم ادعهُنَّ يأتينكَ سعياً واعلمْ أنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ ﴾ .

فإن هذا النص الكريم قد يفهم منه أن ابراهيم الخليل كان شاكاً في قدرة الله على احياء الموتى .. وهذا الفهم غير سليم . فمعاذ الله أن يشك ابراهيم في ربه أو في قدرة الله تعالى . وهو أبو الأنبياء الذي وضع أسس التوحيد . وبنى أول بيت لعباده الواحد القيوم .. فابراهيم عليه السلام إنما سأل عن الكيفية (كيف تحيي الموتى) ولم يسأل عن الماهية فلم يقل : هل تقدر يا رب أن تحيي الموتى ؟ والسؤال عن الكيفية إنما هو بقصد الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية .

يقول الشيخ (أحمد المنير) في تعليقه على تفسير الكشاف ما نصه :

(أما سؤال الخليل عليه السلام بقوله (كيف تحيي الموتى) فليس عن شك — والعياذ بالله — في قدرة الله على الأحياء .. ولكنه سؤال عن كيفية الاحياء . ولا يشترط في الايمان الاحاطة بصورتها . فانما هي طلب علم ما لا يتوقف الإيمان على علمه .. ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة (كيف) وموضوعها السؤال عن الحال ، ونظير هذا السؤال . أن يقول القائل : كيف يحكم زيد

---

(١) أحكام القرآن ج ٢ ص ٧٣٢ .

(٢) فصرهن إليك : أي اضممهن إليك .

في الناس ؟ فهو لا يشك أنه يحكم فيهم ، ولكنه سأل عن كيفية حكمه لا ثبوته ، ولو كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر ، فيطرق إلى ابراهيم شكاً من هذه الآية .. وقد قطع النبي عليه الصلاة والسلام دابر الوهم بقوله : « نحن أحق بالشك من ابراهيم » أي ونحن لم نشك ، فلأن لا يشك ابراهيم أحرى وأولى .. وأراد بقوله (أولم تؤمن ؟) أن ينطق ابراهيم بقوله : بلى آمنت ، ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظي في العبارة الأولى ، ليكون إيمانه مخلصاً نص عليه بعبارة يفهمها كل من يسمعها فهما لا يلحقه فيه شك)[1] .

ويقول (سيد قطب) عليه رحمة الله في تفسيره الظلال عند هذه الآية الكريمة :

﴿وإذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ..﴾ الآية ما نصه :

« انه التشوف إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية ، وحين يجيء هذا التشوف من ابراهيم الأواه ، الحليم ، المؤمن ، الراضي ، الخاشع ، العابد ، القريب ، الخليل .. حين يجيء هذا التشوف من ابراهيم فإنه يكشف عما يختلج أحياناً من الشوق ، والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الألهية في قلوب أقرب المقربين !

انه تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره ، وليس طلباً للبرهان أو تقوية للإيمان .. إنما هو أمر آخر ، له مذاق آخر .. انه أمر الشوق الروحي إلى ملابسة السر الإلهي ، في أثناء وقوعه العملي .. ومذاق هذه التجربة في الكيان البشري مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب ، ولو كان هو ابراهيم الخليل الذي يقول لربه ، ويقول له ربه ، وليس وراء هذا ايمان ، ولا برهان للايمان ، ولكنه أراد أن يرى يد القدرة وهي تعمل ، ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها ، ويتنفس في جوها ، ويعيش معها ، وهي أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان[2] !.

ما هي الكذبات الثلاث ؟ :

أما ما ورد في السنة النبوية مما يشير ظاهره إلى (عدم العصمة) بحق ابراهيم

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٠٨ .

(٢) في ظلال القرآن ج ٣ ص ٤٥ .

عليه السلام ، وذلك في قوله عليه السلام :

(لم يكذب ابراهيم إلا ثلاث كذبات : اثنتين منهن في ذات الله ، قوله (اني سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) .. وقال : بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة ، فقيل له : ان ههنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه فسأله عنها : من هذه ؟ قال أختي .

فأتى فقال لها : ان هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك ، فإنسألك فأخبريه أنك أختي .. فانك أختي في الإسلام ، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، فأرسل إليها فأتي بها ، وقام ابراهيم يصلي ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده ، فأخذ حتى ركض برجله ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت الله فأطلق ، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك .. فدعت الله فأطلق ، فدعا بعض حجبته فقال : إنك لم تأتني بإنسان إنما أتيتني بشيطان ، فأخدمها هاجر ، فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده مهيم ؟ قالت : رد الله كيد الكافر في نحره ، وأخدم هاجر .. قال أبو هريرة : تلك أمكم يا بني ماء السماء) « رواه البخاري ومسلم »

فهذا الحديث الشريف ليس فيه ما يدل على عدم العصمة ، لأن النبي ﷺ لم يقصد بهذه الكذبات الثلاث حقيقة معنى الكذب : إنما قصد أن ابراهيم الخليل أخبر باخبارات توهم الكذب في الصورة وهي ليست بكذب في الحقيقة والواقع فقول ابراهيم لقومه : (اني سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) إنما هو نوع من التهكم والسخرية بهم وبآلهتهم المعبودة فأراد بقوله (اني سقيم) المعنى المجازي : أي اني سقيم من عبادتكم لهذه الأصنام ، التي لا تسمع ولا تنفع ، ولا تغني عن صاحبها شيئاً .. وكما يكون الإنسان سقيم الجسم يكون سقيم النفس وخاصة إذا رأى قومه في الجهالة والضلالة يتيهون ، ودعاهم إلى الهدى ولكنهم ظلوا في ضلالتهم يعمهون !.

وقوله ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ لم يكن في الحقيقة كذباً وإنما هو نوع من الحجة الدامغة ، والبرهان الساطع أراد أن يقيمه ابراهيم على قومه فحين سألوه

من حطم هذه الأصنام ؟ أشار إلى الصنم الأكبر ، سخرية وتهكماً بهم وبهذه الأصنام ، ثم لما رآهم متعجبين من كلامه أجابهم بالجواب المسكت (فاسألوهم ان كانوا ينطقون) ؟

وأما قوله لزوجته سارة (انك أختي) فانما قصد به اخوة العقيدة واخوة الإيمان كما قال تعالى (انما المؤمنون اخوة) ولم يقصد به اخوة النسب لأنها زوجته وليست أخته .. وكل هذا إنما هو من التعريض لا من الكذب الذي يؤاخذ صاحبه ويأثم فاعله ، وقد قال ﷺ « ان في المعاريض لمندوحة عن الكذب » أي أن في التعريض ما يمنع المسلم عن الوقوع في الكذب المحرم . فليس إذا في كلام ابراهيم ما يدل على تعمد الكذب الذي يخل بعصمة الأنبياء وإنما هو نوع من التعريض المباح والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

عصمة يوسف عليه السلام :

وفي قصة يوسف الصديق عليه السلام ، التي قصها علينا القرآن الكريم ، صور مشرقة عن نزاهة هذا النبي الكريم وبراءته وعصمته ، مع ما أعطاه الله عز وجل من الجمال ، وما كساه من البهاء والجلال ، حتى افتتنت به امرأة العزيز — عزيز مصر — فصنعت ما صنعت بقصد إغوائه وإغرائه ولكنه عليه السلام كان أصلب من الحديد ، وأقوى من الجبال ، فلم تؤثر فيه تلك العواصف الهوجاء ، والمكائد المدبرة ، التي اصطنعها النسوة مع امرأة العزيز ، والتي قص علينا القرآن الكريم طرفاً منها كما قال تعالى :﴿ وقالَ نسوةٌ في المدينةِ امرأةُ العزيزِ تراودُ فتاها عن نفسهِ قدْ شغفَها حبّاً ، إنّا لَنَراها في ضلالٍ مبينٍ . فلمّا سمعَتْ بمكرهنّ أرسلَتْ إليهنّ ، وأعتدَتْ لهنّ متكئاً ، وآتتْ كلّ واحدةٍ منهنّ سكيناً ، وقالتْ اخرجْ عليهنّ ، فلمّا رأينَهُ أكبَرْنَهُ وقطّعْنَ أيديَهنّ ، وقلنَ حاشا للهِ :ما هذا بشراً إنْ هذا إلا ملكٌ كريمٌ ﴾.

افتراء وبهتان :

ومما تجدر الاشارة إليه أن بعض البسطاء السذج ممن ليس لهم قدم راسخ في العلم . قد اغتروا ببعض روايات اسرائيلية باطلة مكذوبة ، لا يصح أن تروى أو تذكر في كتب التفسير . وقد نبه عليها العلماء الأثبات . والحفاظ الثقات . لأنها تصادم النصوص القرآنية الكريمة . وتتنافى مع (عصمة الأنبياء) الأطهـار .

من هذه الروايات الباطلة المفتراة على الصديق يوسف عليه السلام . أنه حين راودته امرأة العزيز عن نفسها . وطلبت منه أن يواقعها . استجاب لها واستكان . وحاول أن يرتكب معها الفاحشة وأنه عليه السلام حل سراويله وقعد بين شعبها الأربع ، وهم أن يواقعها وهي مستلقية على قفاها . ولكنه سمع صوتاً يناديه ، وتصور له والده « يعقوب » عليه السلام وهو عاض على أصابعه .. تصور له على جدار الغرفة ، فخجل واستحيا وترك ما كان قد هم عليه من فعل الفاحشة بزوجة عزيز مصر .. وقد نسى هؤلاء الزاعمون أن « يوسف الصديق » نبي مكرم ، وأن الله قد حفظه وصانه من رجس المعاصي والفواحش ، وأي منكر أعظم . وأية فاحشة أكبر من ارتكاب الزنى ، ثم خيانة سيده الذي تعهده ورباه ، وأحسن نزله ومثواه ؟!

﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا .. ﴾ .

ولم ينس الصديق هذه المعاملة الحسنة من سيده . بل ذكر امرأة العزيز حين راودته عن نفسها ، بهذا الجميل والاحسان الذي فعله معه سيده ، وأسداه إليه ، فكيف يخونه في شرفه وعرضه ؟

﴿ قال معاذ الله انه ربي (أي سيدي ومالك أمري) أحسن مثواي ، انه لا يفلح الظالمون﴾ .

ان الزنى جريمة من أبشع الجرائم ، حرمتها الأديان السماوية ، فكيف

يرتكبها نبي من أنبياء الله ؟! سبحانك هذا بهتان عظيم . والذي جعل هؤلاء يخبطون خبط عشواء ، في قبول أمثال هذه الأباطيل والأكاذيب ، الأحوله عن الاسرائيليات ، هو ذلك النص القرآني الكريم ، الذي جاء في أثناء عرض قصة يوسف عليه السلام ، والذي فهمه هؤلاء البسطاء فهماً خاطئاً ، لا يتفق مع عصمة الأنبياء ، ولا ينسجم مع النصوص القرآنية الأخرى .

ذلك النص هو قوله تعالى :

﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه .. ﴾ .

فقد فسروا الهم من يوسف على أنه مطاوعة منه لامرأة العزيز ، وعزم على قربانها .. وفسروا البرهان على أنه الصورة التي ظهر بها والده يعقوب عليه السلام وهو يعض على أنامله حتى ترك يوسف ذلك العمل القبيح .

وهذا التأويل باطل لا يجوز بحال من الأحوال ، للوجوه الآتية التي سنذكرها فيما بعد ان شاء الله .. وقد نبه كثير من المفسرين إلى أمثال هذه الاسرائيليات ، وبينوا بطلانها لئلا ينخدع بعض المسلمين بها فيظنوا أنها أخبار حقيقية موثوقة ، يقول العلامة الشيخ عبد الله بن أحمد النسفي في تفسيره :

(ولقد همت به) هم عزم (وهم بها) هم الطباع مع الامتناع ، ولو كان همه كهمها لما مدحه الله تعالى بأنه من عباده المخلصين ، وفيه اشعار بالفرق بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها .. وفسروا البرهان بأنه سمع صوتاً يناديه : اياك واياها مرتين ، ثم سمع في الثالثة : أعرض عنها ، فلم ينجع فيه (أي لم ينفع فيه ذلك النداء) حتى مثل له يعقوب عاضاً على أنملته ألخ قال الشيخ : وهو باطل ويدل على بطلانه قوله ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ ولو كان ذلك منه لما برأ نفسه من ذلك، وقوله ﴿ذلك ليعلم أني لم أخُنْهُ بالغيب﴾ ولو كان ذلك لخانه بالغيب ، وقوله ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾ ولو كان كذلك لم يكن السوء مصروفاً عنه ألخ .

أقول : ان الآية الكريمة لها مفهوم دقيق ينبغي ألا يغفل عنه واسع العلم ، دقيق البصر ، ذلك أن الهم الذي وقع من امرأة العزيز كان هم سوء ، كانت

تدعوه إلى نفسها من أجل عمل الفاحشة ، ومن أجل ذلك راودته عن نفسها بعد أن أحكمت اغلاق الأبواب وحاصرته في الدار كما قال تعالى :

﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلّقت الأبواب ، وقالت هيتَ لك ، قال : معاذ الله انه ربي أحسن مثواي انه لا يفلح الظالمون﴾ .

أما الهم الذي كان من يوسف الصديق فلم يكن هم سوء ، ولم يكن عزماً على خيانة أو فاحشة ، وما خطر بباله عليه السلام شيء مما يتوهمه بعض الجهلاء من ارادة السوء أو عمل الفاحشة .. وإنما كان همه أن يدفع العدوان عنه ، أن يدفع عنه هذه المكيدة الخبيثة التي دبرتها له سيدته امرأة العزيز .. ولهذا نجد الصلابة في موقفه ، والمقاومة العنيفة في حديثه ﴿ قال معاذ الله انه ربي أحسن مثواي ﴾ .

فالهم منها غير الهم منه ، همت به طلباً ، وهم بها دفعاً كما يقول بعض المفسرين .

أو نقول : أن الهم منها وقع فعلا ، وأما هم يوسف فكان بالطبع ، أي أنه عليه السلام مال إليهابطبيعته الفطريةمع الامتناع عن مقارفة السوء ، والإنسان غير مؤاخذ على ما تشتهيه نفسه أو يميل إليه طبعه ما لم يعزم على فعل الشيء .. وهذا ما فسره به (النسفي) رحمه الله حيث قال (همت به) هم عزم (وهم بها) هم الطباع مع الامتناع .

ويرى بعض المفسرين أن في الآية تقديماً وتأخيراً ويصبح المعنى : (لولا أن رأى برهان ربه) المعنى لولا برهان الله أي عصمته ليوسف لهم بها ولكن عصمة الله تعالى له حالت دون ذلك الهم .

وهناك أقوال أخرى للمفسرين تبرىء ساحته عليه السلام مما نسبه إليه أهل الكتاب وقبله بعض البسطاء من الاسرائيليات المكذوبة .

الأدلة على عصمة يوسف عليه السلام :

وهناك وجوه عشرة على عصمة يوسف وبراءته عليه السلام من تلك التهمة

الشنيعة التي نسبها إليه من لا يعرف قدر النبوة ولا عظمة الرسالة ، ولا صفات الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .. ونحن نوجزها فيما يلي :

الوجه الأول : امتناعه عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز ووقوفه في وجهها بكل صلابة وعزم ﴿قال معاذ الله انه ربي أحسن مثواي انه لا يفلح الظالمون﴾ .

الوجه الثاني : فراره عليه السلام من امرأة العزيز بعد أن حاصرته وضيقت عليه الخناق ، وأرادته على نفسها بالغصْبِ والاكراه ، ولو كان يوسف قد هم بالفاحشة لما فر منها ، لأن الذي يريد عمل الفاحشة يقدم ولا يفر قال تعالى ﴿واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب﴾ الآية .

الوجه الثالث : شهادة بعض أقرباء زوجة العزيز ببراءة يوسف حيث أشار بفحص ثوبه لأنه إذا كان هو الطالب لها وهي الممتنعة فإن ثوبه سيشق من أمام وان كانت هي الطالبة له وهو الممتنع الهارب منها فإن ثوبه سيشق من خلف قال تعالى﴿ وشهدَ شاهدٌ من أهلِها إنْ كان قميصُه قُدّ منْ قبلٍ (أي شق من أمام) فصدَقَتْ وهوَ من الكاذبينَ .وإنْ كان قميصهُ قدّ من دبرٍ (أي شق من خلف) فكذَبتْ وهو من الصادقين . فلما رأى قميصَهُ قُدّ من دبرٍ قال إنه من كيدِ كُنّ ، إن كيدَكُنّ عظيمٌ﴾ .

وقيل ان الذي شهد هو طفل كان في المهد أنطقه الله بهذه الحجة الدامغة لتظهر براءة يوسف عليه السلام ، وهو أحد الثلاثة الذين تكلموا في المهد ، ولا عجب فالله على كل شيء قدير .

الوجه الرابع : تفضيله السجن على الفاحشة ﴿قال ربّ السّجْنُ أحبّ إليّ مما يدعونَني إليهِ وإلا تصرِفْ عني كيدهُنّ أصْبُ إليهنّ وأكنْ من الجاهلين﴾ .

وهذا من أعظم البراهين على براءته عليه السلام إذ كيف يعقل أن يفضل شخص السجن على شيء يرغبه ويتمناه ، ولو أنه استجاب لدعوتها ، وطاوعها على نفسها لما لبث في السجن بضع سنين بسبب تلك التهمة التي ألحقتها به .

فدعوى هم يوسف بامرأة العزيز باطل ظاهر البطلان ، يدرك ذلك كل منصف درس تاريخ هذا النبي الكريم ، وفهم معاني القرآن العظيم .

الوجه الخامس : ثناء الله عز وجل عليه في مواطن عديدة من السورة كما قال تعالى : ﴿كذلك لنصرفَ عنهُ السوءَ والفحشاءَ إنه من عبادِنا المخلَصين﴾.

وقال تعالى في صدر هذه القصة :

﴿ولما بلغَ أشدَّهُ آتيناهُ حكْماً وعلماً ، وكذلكَ نجزي المحسنينَ ، وراودَتْهُ التي هوَ في بيتِها عنْ نفسِهِ ..﴾ .

فقد أخبر الله تعالى عنه بأنه من المحسنين وأنه من عباده المخلصين ، الذين اختارهم الله لنبوته ، وأخلصهم لطاعته وعبادته . وهل يكون ثناء الله تبارك وتعالى إلاّ على من صفت نفسه ، وطهرت سريرته من كل نية سيئة ، وكل عمل قبيح ، فكان من الأطهار المقربين ؟ وقد شهد رسول الله ﷺ له أيضاً بالصلاح والتقى ، وبالطهارة والاستقامة فقال صلوات الله عليه : (ان الكريم ابن الكريم بن الكريم ، يوسف بن يعقوب ، بن اسحق ، بن ابراهيم) وكفى بذلك شرفاً وفضلا !!

الوجه السادس : اعتراف امرأة العزيز نفسها بعصمته وعفته أمام جمع من نسوة المدينة كما قال تعالى ﴿فلما رأينَهُ أكْبَرنَه وقطّعْنَ أيديَهُنَّ ، وقلْنَ حاشا لله ما هذا بشراً ، انْ هذا إلا ملكٌ كريمٌ . قالت : فذلكُنَّ الذي لمتُنَّني فيه ، ولقدْ راودتُهُ عنْ نفسِهِ فاستَعْصَمَ ..﴾ الآية .

فهذه شهادة صريحة واضحة على عفة يوسف وبراءته صدرت من نفس امرأة العزيز ، التي اتهمته أمام زوجها بعمل الفاحشة ، ولفظ (استعصم) يدل على الامتناع البليغ ، والتحفظ الشديد ، كأنه في عصمة من الأمر وهو يجتهد في الاستزادة منها ، وهذا بيان جلي على أن يوسف عليه السلام بريء مما فسر به بعض الناس (الهم والبرهان) كما أسلفنا بطلانه فيما سبق .

الوجه السابع : ظهور أمارات البراءة على يوسف عليه السلام بالدلائل

الواضحة ، والبراهين الساطعة أمام جميع الشاهدين ، ومع ذلك فقد أقدم عزيز مصر على سجنهُ إيهاماً للناس وستراً على زوجته قال تعالى : ﴿ثم بدا لهم من بعدِ ما رَأَوْا الآياتِ لَيسجُنُنّهُ حتّى حينٍ﴾ .

قال العلامة النسفي في تفسيره :

(ثم بدا لهم) أي ظهر لهم والضمير يعود للعزيز وأهله (من بعد ما رأوا الآيات) وهي الشواهد على براءة يوسف كقد القميص ، وقطع الأيدي ، وشهادة الصبي ، وغير ذلك، (ليسجننه) لابداء عذر الحال ، وارخاء الستر على القيل والقال ، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها وكان مطاوعاً لها ، وحملا ذلولا زمامه في يدها، (حتى حين) إلى زمان كأنها اقترحت أن يسجن زماناً حتى تبصر ما يكون منه .

الوجه الثامن : استجابة الله عز وجل لدعوة يوسف حين طلب من ربه أن يصرف عنه كيدهن ومكرهن الخبيث به ، ولو كان له رغبة في مطاوعة زوجة العزيز لما طلب من الله أن يصرف عنه كيدهن وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿فاستجابَ لهُ ربّه فصرفَ عنهُ كيدَهُنّ إنّه هوَ السّميعُ العليمُ﴾ .

الوجه التاسع : عدم قبول يوسف الخروج من السجن حتى تظهر براءته أمام جميع الناس ، وذلك يدل على منتهى شهامته ، وعفته ، ونزاهته ، ولولا ذلك لما فضل البقاء في السجن بعد أن مكث فيه سبع أو تسع سنوات ولاقى فيه الشدائد . فلم يقبل الخروج من السجن حتى يقر الجميع ببراءته وتنزه ساحته من تلك التهمة الشنيعة ﴿وقال الملكُ ائتوني به ، فلمّا جاءَهُ الرّسولُ قالَ ارجعْ إلى ربّك (أي سيدك عزيز مصر) فاسأله ما بالُ النسوةِ اللاتي قطّعْنَ أيديَهُنّ ، إن ربي بكيدِهِنّ عليمٌ﴾ .

الوجه العاشر : وأخيراً الاعتراف الواضح الصريح من النسوة ومن امرأة العزيز التي اتهمته بنفسها ، وذلك لا يدع ذرة من شك في براءة يوسف ونزاهته

وعصمته مما نسب إليه وذلك حين جمع العزيز النسوة وسألهن عن يوسف الصديق فأجبنه بجواب صريح قاطع :

﴿قال ما خطبُكُنَّ إذْ راودْتُنَّ يوسُفَ عن نفسِهِ ، قُلْنَ حاشا لله ما علِمْنا عليهِ من سوءٍ ، قالتْ امرأةُ العزيزِ الآنَ حَصْحَصَ (أي ظهر وبان) الحقّ ، أنا راودْتُهُ عن نفسِه وإنه لمنَ الصّادقين ذلك ليعلمَ أنّي لمْ أخُنْهُ بالغيبِ وأنّ اللهَ لا يهدي كيدَ الخائنين﴾ .

هذه عشرة وجوه في عصمة الصديق يوسف عليه السلام وبراءته مما نسب إليه من الزور والبهتان ، اقتبستها من القرآن الكريم ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

ما ورد بشأن نوح عليه السلام :

ومن هذه النصوص الكريمة قول الله تعالى في قصة نوح عليه السلام :

﴿ونادى نوحٌ ربّه فقالَ ربّ إنّ ابني من أهلي وإنّ وعدَكَ الحقّ ، وأنتَ أحكمُ الحاكمينَ . قالَ يا نوحُ إنه ليسَ من أهلِكَ ، إنه عملٌ غيرُ صالحٍ . فلا تَسْألنِ ما ليسَ لكَ به علمٌ إني أعِظُكَ أن تكونَ من الجاهلينَ﴾

فنوح عليه السلام إنما سأل ربه أن ينجي ولده ، لأن الله عز وجل قد وعده بإنجاء أهله وإهلاك الظالمين ، وولده من أهله ، وكان ابنه قد وعده بالإيمان ، فطلب من الله أن ينجيه من الغرق اعتقاداً منه بأن ولده على دينه ، ولم يعلم بحقيقة كفره إلا بعد أن أظهر الله تعالى ذلك بقوله ﴿إنه ليس من أهلك﴾ أي أنه ليس من أهلك الذين وعدتك بانجائهم لأنه غير مؤمن وقد وعدتك بانجاء المؤمنين عند ذلك تبرأ نوح من ولده .

ثم إن نوحاً عليه السلام لم يرتكب هنا معصية أو إثماً ، وإنما دعا الله أن ينجي ولده ، وأخذته الشفقة والعاطفة الأبوية ، بكونه بشراً وأباً رحيماً فطلب من الله أن يلهم ولده الإيمان ، لينجو من الغرق ، فأخبره الله تعالى بأنه قد سبقت له الشقاوة وأنه من الهالكين .

قال الشيخ أبو منصور رحمه الله عند تفسير هذه الآية الكريمة :

« وقد كان عند نوح عليه السلام أن ابنه كان على دينه ، لأنه كان ينافق ، وإلا لا يحتمل أن يقول : ابني من أهلي ، ويسأله نجاته ، وقد سبق منه النهي عن سؤال مثله بقوله جلا وعلا ﴿ولا تخاطبني في الذينَ ظلموا إنّهم مُغْرَقون﴾

فكان نوح يسأله على الظاهر الذي عنده ، كما كان أهل النفاق يظهرون لنبينا عليه السلام الموافقة ، ويضمرون الخلاف له ، ولم يعلم بذلك حتى أطلعه الله تعالى عليه ، وقوله(ليس من أهلك) أي من الذين وعدت النجاة لهم ، وهم المؤمنون حقيقة في السر والعلن[١] .

ما ورد بشأن يونس عليه السلام :

ومن النصوص الكريمة قول الله تعالى في قصة يونس عليه السلام ـ :

﴿وذا النونِ إذْ ذهبَ مُغاضباً فظنّ أنْ لنْ نَقدِرَ عليهِ فنادى في الظّلماتِ

(١) انظر تفسير النسفي الجزء الثاني صفحة ١٩١-١٩٢ .

أنْ لا إلهَ إلاّ أنتَ سبحانك إنّي كنتُ من الظّالمينَ . فاستَجَبْنا لهُ ونجيّنْاهُ من الغمّ ، وكذلك نُنْجِي المؤْمنين﴾ .

فإن ظاهر هذه الآية قد يوهم أن (يونس) عليه السلام قد فعل ما أغضب الله عز وجل ، وأنه شك في قدرة الله على الانتقام منه ، وهذا فهم خاطىء وتفسير للآية الكريمة على غير معناها الصحيح ، وقد وقع في هذا الوهم بعض الجهلاء ، فظنوا أن (يونس) عليه السلام قد وقع في المعصية . وخالف أمر الله فذهب مغاضباً لربه ، فابتلعه الحوت بسبب هذا الذنب .

والصحيح الذي ذكره المفسرون في معنى هذه الآية الكريمة أن (يونس) عليه السلام كان قد أنذر قومه ، وحذرهم من عذاب الله ان لم يؤمنوا ، فتمادوا في ضلالهم وكفرهم فأوعدهم بالعذاب العاجل ، فلما تأخر عنهم العذاب ، خرج كالمستور منهم ليتوارى عن أنظارهم ، خشية أن يهزؤوا منه ويسخروا ، ويتهموه بالكذب على الله حيث أخبرهم بنزول العذاب ولم ينزل ، فخرج مغاضباً لقومه . لا مغاضباً لربه – وحاشاه – عليه أفضل الصلاة والسلام أن يغضب ربه . أو يعصي له أمراً .. قال الشيخ أبو البركات عبد الله النسفي في تفسيره :

قوله تعالى﴿وذا النون إذْ ذهبَ مغاضِباً ..﴾الآية المعنى : أذكر صاحب الحوت ، والنون الحوت فأضيف إليه ﴿ إذ ذهب مغاضباً ﴾ أي مراغماً لقومه ومعنى مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بمفارقته ، لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها .. روي أنه برم[1] بهم لطول ما ذكرهم . فلم يتعظوا وأقاموا على كفرهم فراغمهم وظن أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضباً لله ، وبغضاً للكفر وأهله ، وكان عليه أن يصابر الإذن من الله تعالى في المهاجرة عنهم فابتلى ببطن الحوت..[2]

فالمغاضبة كانت لقومه لا لربه ، والمعاتبة كانت لعدم الصبر ، ولخروجه من بين قومه بغير اذن من الله تعالى ، ولهذا أمر الله رسوله الكريم ، أن يصبر

(١) برم بهم : أي ضاق ذرعاً بتكذيبهم له .
(٢) تفسير النسفي الجزء الثالث ص ٨٧ .

على تكذيب المشركين ، وألا يكون ضيق الصدر ، قليل الصبر كما كان شأن يونس عليه السلام مع قومه ، حيث ضربه الله تعالى مثلا فقال عز من قائل :

﴿فاصْبرْ لحكم ربكَ ، ولا تكنْ كصاحبِ الحوتِ إذْ نادى وهوَ مكْظومٌ لولا أن تداركَهُ نعمةٌ منْ ربّهِ لنُبِذَ بالعراءِ وهوَ مذمومٌ . فاجْتباهُ ربّهُ فجعلَهُ منَ الصالحين﴾ .

وقوله تعالى (لنبذ بالعراء وهو مذموم) جواب (لولا) ومعلوم أن(لولا) في اللغة العربية هي حرف امتناع لوجود أي أنها تفيد امتناع الجواب لوجود الشرط .. ومعنى الآية الكريمة : لولا أن الله أنعم عليه باجابة دعائه وقبول عذره لنبذ من بطن الحوت (بالعراء) أي بالفضاء وهو (مذموم) أي معاتب بزلة لكنه رحم فنبذ غير مذموم .

وأما قوله تعالى في الآية السابقة (فظن أن لن نقدر عليه) فهي من القدر لا من القدرة كما قال ابن‌عباس رضي الله عنهما ؛ فقد روى أنه دخل يوماً على معاوية ، فقال له معاوية : لقد ضربتني أمواج البحر البارحة فغرقت فيها ، فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك ، فقال ابن عباس وما هي يا معاوية ؟ فقرأ الآية ثم قال : أو يظن نبي الله أن لا يقدر عليه ربه ؟ فقال ابن عباس : هذا من القدر لا من القدرة ، والمعنى : فظن أن لن نضيق عليه بسبب خروجه بغير إذننا قال تعالى ﴿ومن قُدِرَ عليه رزقه﴾ أي ضيق ، وقال تعالى﴿ وأما إذا ما ابتلاهُ فقَدَرَ عليه رزقه فيقول ربي أهانن﴾ أي ضيق عليه رزقه ، فزال بذلك الاشكال والله أعلم .

هل اخطأ الرسول ﷺ ؟

والرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم ـــ كبقية الرسل الكرام ـــ معصوم من الذنوب والآثام ، محفوظ بعناية الله عز وجل ، محاط برعايته ، فلا يمكن أن تقع منه مخالفة لأمر الله ، أو يرتكب ذنباً يستحق عليه العقوبة .

ولكنه ﷺ قد يجتهد فيفعل خلاف الأفضل والأحسن فيعاتبه ربه .. وليس

هذا من قبيل الذنب والمعصية ، وإنما هو من قبيل التنبيه إلى فعل الأكمل والأفضل وان كان بالنسبة لمقام الأنبياء يعتبر فعل خلاف الأفضل خطأ يستحق عليه المؤاخذة والعتاب على حد قول بعضهم (حسنات الأبرار سيئات المقربين) .

وسنعرض إلى بعض نصوص كريمة ورد فيها العتاب لرسول الله ﷺ ، ونبين فيها وجه الحق وما ورد فيها من العتاب ، كما نعرض لنصوص أخرى ظاهرها يفيد وقوع الرسول في المخالفة والمعصية ونوضح معناها على ضوء أقوال أئمة التفسير ، وضوء الكتاب والسنة ، فنقول ومن الله نستمد العون :

النص الأول : قال تعالى : ﴿ ما كان لنبيٍّ أنْ يكونَ له أسرى حتّى يُثْخِنَ في الأرضِ ، تريدونَ عرَضَ الدنيا واللهُ يريدُ الآخرةَ ، واللهُ عزيزٌ حكيمٌ . لولا كتابٌ من اللهِ سبقَ لمسّكُمْ فيما أخذتُمْ عذابٌ عظيمٌ﴾ .

النص الثاني : قال تعالى : ﴿عفا اللهُ عنكَ لِمَ أذِنتَ لهم حتى يتبيّنَ لكَ الذينَ صدقوا وتعلمَ الكاذبين﴾ .

النص الثالث : قال تعالى : ﴿عبس وتولى أن جاءهُ الأعمى ، وما يدريكَ لعلّه يزّكّى أو يذكرُ فتنفعَهَ الذكرى﴾ .

النص الرابع : قال تعالى : ﴿وإنْ كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليكَ لتفتريَ علينا غيرَهُ ، وإذاً لاتّخذوكَ خليلاً . ولولا أن ثبّتْناكَ لقدْ كدْتَ تركَنُ إليهمْ شيئاً قليلاً . إذاً لأذقْناكَ ضعفَ الحياةِ وضعفَ المماتِ ، ثمّ لا تجدُ لكَ علينا نصيرا﴾ .

النص الخامس : قوله تعالى : ﴿يا أيّها النبيّ اتّقِ اللهَ ولا تُطِعِ الكافرينَ والمنافقينَ إنّ اللهَ كانَ عليماً حكيماً واتّبعْ ما يوحى إليكَ من ربّكَ إنَ اللهَ كانَ بما تعملون خبيراً﴾ .

النص السادس : قوله تعالى : ﴿فإنْ كنتَ في شكٍّ مما أنزلنا إليكَ فاسْألِ

الذين يقرؤونَ الكتابَ من قبلكَ ، لقد جاءكَ الحقّ من ربّكَ فلا تكوننّ منَ المُمْتَرين﴾ .

النص السابع : قوله تعالى : ﴿وإنْ كانَ كبُرَ عليكَ إعْراضهم فإنْ استطعْتَ أنْ تبتغي نفقاً في الأرضِ أو سُلّماً في السّماءِ ، فتأتيهم بآيةٍ ، ولوْ شاءَ اللهُ لجمَعَهُم على الهدى ، فلا تكوننّ منَ الجاهلينَ﴾ .

النص الثامن : قوله تعالى : ﴿ولا تطردِ الذينَ يدعونَ ربّهم بالغداةِ والعشيّ يريدونَ وجهَه ، ما عليكَ منحسابِهِم منْ شيءٍ ، وما منْ حسابِك عليهِم منْ شيءٍ فتطرُدَهم فتكونَ من الظالمين﴾ .

النص التاسع : قوله تعالى : ﴿إنّا فتحنا لكَ فتحاً مبيناً . ليغْفرَ لكَ اللهُ ما تقدّمَ من ذنبِكَ وما تأخّر ، ويُتِمّ نعمتَه عليكَ ويهديكَ صراطاً مُستقيماً﴾

النص العاشر : قوله تعالى : ﴿وإذْ تقولُ للذي أنعمَ اللهُ عليه ، وأنعمت عليه أمسِكْ عليكَ زوجَكَ ، واتّقِ اللهَ ، وتُخفي في نفسكَ ما اللهُ مبديه ، وتخشى الناسَ واللهُ أحقّ أن تخشاهُ ، فلمّا قضى زيدٌ منها وطراً زوّجناكها لكيلا يكون على المؤمنينَ حرجٌ في أزواجِ أدعيائِهم إذا قضوا منهنّ وطراً ، وكان أمرُ اللهِ مفعولا﴾ .

العتاب في أسرى بدر :

أما الآية الأولى التي فيها عتاب للرسول ﷺ ، والتي توهم أن الرسول الكريم قد خالف أمر الله ، وأنه فعل ما لم يرض به الله ، فهي قوله تعالى ﴿ما كانَ لنبيٍ أنْ يكونَ له أسرى حتى يُثْخن في الأرض ، تريدونَ عرَضَ الدنيا؟ واللهُ يريدُ الآخرةَ ، واللهُ عزيزٌ حكيمٌ. لولا كتابٌ من اللهِ سبقَ لمسّكُمْ فيما أخذتُمْ عذابٌ عظيمٌ﴾ .

ولعل بعض الجاهلين يظن أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد ارتكب ذنباً ، أو فعل جرماً ، أو عصى أمراً لرب العالمين ، حتى نزل هذا العتاب الشديد

مع أن الأمر ليس كما يظنون ، وإنما غايته أن الرسول ﷺ قد استشار بعض الصحابة في (أسرى بدر) ثم اجتهد فحكم بترجيح رأي الأكثرين ، فقبل الفداء من الأسرى ، وكان هذا الاجتهاد منه عليه الصلاة والسلام خلاف الأفضل والأحسن والأولى ، لأن مصلحة الدعوة ومصلحة الإسلام كانت تقتضي ألا يقبل عليه الصلاة والسلام منهم الفداء ، بل يسفك ويريق منهم الدماء، لتضعف شوكة الكفر ، وتهن عزيمة المشركين ، ويكون العز والنصر لعباد الله المؤمنين لا سيما وأن هذه المعركة هي أول حرب تقع بين المؤمنين والمشركين .

ونذكر هنا بعض الروايات لأصحاب التفسير بالمأثور حول نزول هذه الآية الكريمة :

١ – روى الترمذي والحاكم والبيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال :

« لما كان يوم بدر جيء بالأسارى فقال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله : قومك ، وأهلك ، استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم .

وقال عمر يا رسول الله : كذبوك ، وأخرجوك ، وقاتلوك ، قدمهم فاضرب أعناقهم .

وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه : انظروا وادياً كثير الحطب فأضرموه عليهم ناراً .

فقال العباس وهو يسمع ما يقول : قطعت رحمك .

فدخل النبي ﷺ ولم يرد عليهم شيئاً فقال أناس : يأخذ بقول أبي بكر رضي الله عنه ، وقال أناس يأخذ برأي عمر رضي الله عنه ، فخرج رسول الله ﷺ فقال : « ان الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن .. وان الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة » .

مَثَلك يا أبا بكر مثل ابراهيم عليه السلام إذ قال : ﴿فمن تَبعني فإنهُ مني ، ومنْ عصاني فإنكَ غفورٌ رحيمٌ﴾ ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام إذ

قال : ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام إذ قال : (ربِّ لا تذرْ على الأرضِ من الكافرينَ ديّاراً﴾ ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام إذ قال : ﴿ربّنا اطْمسْ على أموالهمْ واشدُدْ على قلوبِهمْ فلا يؤْمنوا حتّى يرَوُا العذابَ الأليم﴾ .

ثم قال عليه السلام : أنتم عالة فلا ينفلتن أحد منكم إلا بفداء أو ضرب عنق فقال عبد الله يا رسول الله : إلا (سهيل بن بيضاء) فإنه سمعته يذكر الإسلام فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع علي الحجارة مني في ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ : إلا سهيل بن بيضاء ... فأنزل الله تعالى ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ..﴾ الآية وروى أحمد ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال :

(لما أسروا الأسرى يعني يوم بدر قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر « ما ترون في هؤلاء الأسرى ؟ » فقال أبو بكر : يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : ما ترى يا ابن الخطاب ؟

فقال : لا والله يا رسول الله لا أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكنني أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فتمكن علياً من عقيل (أي أخيه) فيضرب عنقه وتمكني من فلان — قريب لعمر — فأضرب عنقه ومكن فلاناً من فلان قرابته . فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها .

فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت ، فلما كان الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان .. قلت يا رسول الله : أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ؟! فقال رسول الله ﷺ «أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة — لشجرة قريبة منه — وأنزل الله عز وجل : ﴿ما كانَ لنبيٍ أن يكونَ لهُ أسرى حتى يُثخِنَ في الأرض ..﴾ الآية .

فقد دل هذا الحديث الشريف على أن الذين أشاروا على الرسول ﷺ بأخذ الفداء كثيرون وإنما ذكر في أكثر الروايات (أبو بكر) رضي الله عنه لأنه أول من أشار بذلك فقد استشاره ﷺ أول ما استشار أصحابه ، كما أنه أكبرهم مقاماً وأحبهم إلى رسول الله ﷺ .

فهذا العتاب الشديد من الله عز وجل لنبيه ولأصحابه الأبرار كان بقصد التعليم والتنبيه إلى الأخذ بالأكمل والأفضل والتريث في مثل هذه الأمور الدقيقة ، فالله عز وجل يريد عزة الإسلام ورفعة شأنه .. وقد قال (ابن عباس) رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ قال ذلك إنما كان يوم بدر ، والمسلمون يومئذ قليل ، فلما كثروا ، واشتد سلطانهم أنزل الله في الأسارى (فإما منا بعد وإما فداء) فجعل الله النبي والمؤمنين في أمر الأسرى بالخيار : إن شاءوا قتلوهم ، وإن شاءوا استعبدوهم ، وان شاءوا فادوهم (أي اطلقوا سراحهم مقابل الفداء) وقد أشارت الآية الكريمة إلى أن هذا الأمر لما كان عن اجتهاد ومشاورة من الرسول ﷺ لأصحابه وأن الله عز وجل سبقت حكمته الأزلية ألا يؤاخذ المؤمنين على ما وقع خطأ بطريق الاجتهاد ، لذلك أعقبها تعالى بقوله ﴿لولا كتابٌ من الله سبقَ لمسّكم فيما أخذتم عذابٌ عظيمٌ﴾ .

العتاب في الأذن للمنافقين :

أما الآية الكريمة الثانية وهي قوله تعالى : ﴿عفَا اللهُ عنكَ لِمَ أَذِنتَ لهم حتى يتبيّنَ لكَ الذينَ صدقوا وتعلَمَ الكاذبينَ﴾ فهذه الآية الكريمة ليس فيها ما يدل على وقوع الذنب منه عليه الصلاة والسلام ، وغاية ما في الأمر أن الله عز وجل عاتبه لكونه أذن لبعض المنافقين في ترك الخروج للجهاد ، لما اعتذروا إليه عن عدم الاستطاعة ، فنزل العتاب من الله عز وجل له .

قال سفيان بن عيينة : انظروا إلى هذا اللطف ، بدأ بالعفو قبل أن يعيره بالذنب .

وقال عمرو بن ميمون : اثنان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر بهما ، اذنه للمنافقين ، وأخذه الفدية من أسارى بدر ، فعاتبه الله كما تسمعون .

ويرى بعض المفسرين أن الآية الكريمة لا تشير حتى للعتاب فضلاً عن وقوع الذنب، وذلك أن الله عز وجل وقره ورفع منزلته بافتتاح الكلام بالدعاء له كما يقول الرجل لمن يخاطبه إذا كان كريماً عنده : عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي ؟ ورضي الله عنك ألا زرتني ؟ وهذا ما ذهب إليه الإمام الرازي والبغوي وغيرهما .

وقد أساء (الزمخشري) الأدب في تفسيره عند قول الله تعالى لنبيه ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم ؟﴾ الآية حيث قال ما نصه :

« (عفا الله عنك) كناية عن الجناية لأن العفو رادف لها ومعناه : أخطأت وبئس ما فعلت و (لم أذنت لهم) ؟ بيان لما كنى عنه بالعفو ومعناه مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم ، وهلا استأنيت بالاذن (حتى يتبين لك) من صدق في عذره ممن كذب فيه » .

وقد ذكر صاحب (تفسير المنار) كلاماً لطيفاً في منتهى الإبداع والاتقان ننقل طرفاً منه حيث قال رحمه الله :

« هذا وان بعض المفسرين – ولا سيما الزمخشري – قد أساءوا الأدب في التعبير عن عفو الله تعالى عن رسوله ﷺ في هذه الآية ، وكان يجب أن يتعلموا منها أعلى الأدب معه صلوات الله وسلامه عليه ، إذ أخبره ربه ومؤدبه بالعفو قبل الذنب وهو منتهى التكريم واللطف ، وبالغ آخرون كالرازي في الطرف الآخر ، فأرادوا أن يثبتوا أن العفو لا يدل على الذنب ، وغايته أن الاذن الذي عاتبه الله عليه هو خلاف الأولى ... ثم قال : والذنب في اللغة ليس مرادفاً للمعصية وإنما هو كل عمل يستتبع ضرراً ، أو فوت مصلحة أو منفعة ، مأخوذ من ذنب الدابة ، واذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحة المنصوصة في الآية وهي تَبيُّنِ الصادقين ، والعلم بالكاذبين[1] .

---

(١) تفسير المنار الجزء العاشر صفحة ٥٤١–٥٤٢ .

وقد كان الإذن المعاتب عليه اجتهاداً منه ﷺ فيما لا نص فيه من الوحي، وهو جائز وواقع من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وليسوا بمعصومين من الخطأ فيه، وإنما العصمة المتفق عليها خاصة بتبليغ الوحي ببيانه والعمل به، فيستحيل على الرسول أن يكذب أو يخطيء فيما يبلغه عن ربه، أو يخالفه بالعمل، وقد صرح علماء الأصول بجواز الخطأ في الاجتهاد على الأنبياء عليهم السلام، وقالوا: ولكن لا يقرهم الله على ذلك، بل يبين لهم الصواب فيه، وغاية ما فيه هنا أنه مخالف لما يقتضيه الحزم، وكان من لطف الرب اللطيف الخبير، برسوله البشير النذير، أن أخبره بالعفو عنه، قبل بيانه له.. »

النص الثالث: وهو قوله تعالى: ﴿ عبس وتولىّ أن جاءه الأعمى ﴾.

فقد تمسك بظاهر هذه الآية من زعم أن المعصية تقع من الأنبياء، وأنّ العصمة غير واجبة لهم، وهذا خطأ في الفهم، وعدم إدراك للمعنى الصحيح، ومن سبب نزول الآية يتّضح أن الرسول ﷺ لم يرتكب معصية وإنما خالف الأولى فنبّهه الله تعالى إلى الأكمل والأفضل، روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:

(بينا رسول الله ﷺ يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، والعباس ابن عبد المطلب، وكان يتصدى لهم كثيراً، ويحرص عليهم أن يؤمنوا، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له « عبد الله بن أم مكتوم » يمشي وهو يناجيهم، فجعل عبد الله يستقرىء النبي ﷺ آية من القرآن، وقال يا رسول الله: علّمني مما علّمك الله، فأعرض عنه رسول الله، وعبس في وجهه وتولى، وكره كلامه وأقبل على الآخرين فأنزل الله ﴿عبس وتولّى أن جاءه الأعمى ..﴾ الآيات، فلمّا نزل فيه ما نزل كرّمه رسول الله وكلّمه وقال له: ما حاجتك؟ هل تريد من شيء؟ وإذا ذهب من عنده قال له هل لك حاجة في شيء؟ قال ابن جرير: والتعرض بذكر عماه، لزيادة الإنكار كأنه قيل تولّى لكونه أعمى، وكان يجب أن يزيده تعطفاً وترؤفاً، وتقريباً وترحيباً)[1].

(١) انظر تفسير الطبري.

فأنت ترى من سبب النزول أن الرسول ﷺ كان مشغولاً مع رؤساء قريش ، وكان يحرص على دعوتهم لأنهم إذا أسلموا أسلم بإسلامهم الناس ، وقد جاءه هذا الأعمى في وقت كان ﷺ مشغولاً فيه فترك إجابته لما هو — في نظره — أهم وأعظم ، فعاتبه الله على هذا وبيّن له ما هو الأفضل والأحسن ، **قال الرازي** : (القائلون بصدور الذنب عن الأنبياء تمسّكوا بهذه الآية وقالوا لمّا عاتبه الله في ذلك الفعل دلّ على أنّ ذلك الفعل كان معصية ، وهذا بعيد فإنّا قد بينا أنّ ذلك كان هو الواجب المتعيّن ، إلا بحسب هذا الاعتبار الواحد وهو أنه يوهم تقديم الاغنياء على الفقراء وذلك غير لائق بصلابة الرسول وإذا كان كذلك كان ذلك جارياً مجرى ترك الاحتياط وترك الأفضل فلم يكن ذلك ذنباً البتّة)[1] . **وأجاب ابن حزم** بقوله : « وأمّا قوله (عبس وتولى) الآيات فإنه كان عليه السلام قد جلس إليه بعض عظماء قريش ، ورجا إسلامهم ، وعلم أنه لو أسلم لأسلم بإسلامه ناس كثيرون وأظهر الدين ، وعلم أن هذا الأعمى الذي يسأله عن أشياء من أمور الدين لا يفوته وهو حاضر معه ، فاشتغل عنه عليه السلام بما خاف فوته من عظيم الخير ، عمّا لا يخاف فوته ، وهذا غاية في النظر في الدين والاجتهاد في نصرة القرآن في ظاهر الأمر ، ونهاية التقرب إلى الله ، الذي لو فعله اليوم منّا فاعل لأجر ، فعاتبه الله تعالى إذ كان الأولى عند الله أن يقبل على ذلك الأعمى الفاضل البرّ التقي ، ويترك أولئك المعاندين » .

النص الرابع : وهو قوله تعالى ﴿وإنْ كادوا لَيَفْتِنونك عن الذي أوحينا إليكَ لتفتريَ علينا غيرَه وإذاً لاتّخذوكَ خليلاً ولولا أن ثبّتناكَ لقد كدتَ تركَنُ إليهمْ شيئاً قليلاً ..﴾ الآيات ، فهذه الآيات الكريمة يدل ظاهرها على أن الرسول ﷺ قارب مسايرة المشركين والركون إليهم وهذا ذنب عظيم وخاصة

---

(١) انظر تفسير الرازي .

في أمر تبليغ الوحي، وهذا الأمر غير وارد أصلاً، فقد روي في سبب نزول هذه الآية أن قبيلة (ثقيف) وكانت تسكن الطائف قالوا للنبي ﷺ: لا ندخل في دينك حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب، فلا يكون علينا زكاة ولا جهاد ولا صلاة، وأن كل ربا علينا فهو موضوع وكل ربا لنا فهو محفوظ لنا، فإن قالت العرب لمَ فعلتَ ذلك؟ فقل إنّ ألله أمرني .. وطمع القوم أن يعطيهم القوم ما طلبوا فأنزل الله هذه الآية ﴿وإن كادوا ليَفتِنونَكَ﴾ الآية، فأنت ترى أن الرسول ﷺ لم يجبهم وإنما عرضوا عليه عروضاً وطمعوا في أن يوافقهم الرسول على ذلك، وحاشاه ﷺ عن أن يستجيب لدعوتهم الباطلة، وأن يسايرهم على أهوائهم الفاسدة. قال (ابن كثير) رحمه الله: «يخبر الله تعالى عن تأييده لرسوله وتثبيته، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجّار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحدٍ من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها

النص الخامس: وهو قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي اتقِ اللهَ، ولا تطعِ الكافرينَ والمنافقين إنّ اللهَ كانَ عليماً حكيماً، واتّبِعْ ما يُوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾. فإن هذا النص الكريم ليس فيه ما يدل على وقوع الذنب من الرسول ﷺ وإنما هو خطاب للأمة توجّه إلى القائد والزعيم في صورة الخطاب له ﷺ والمراد به أمته كما يقول الملك لقائد جيشه: لا تتسامح مع العدو، وقاتلهم حتى يخضعوا لحكمك وينقادوا لأمرك، ولا تقتل طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً كبيراً، ولا تظهر أمام عدوك الخوف والفزع.. إلى آخر ما يأمر به فهو يخاطب القائد والمراد به الجند، وينبّه الزعيم والمراد به الأمة. والدليل أنّ المقصود بالخطاب هو الأمة لا شخص الرسول أن الله تعالى ختم الآيات الكريمة بصيغة الجمع ﴿إنّ الله كان بما تعملون خبيراً﴾ ولم يقل: بما تعمل، فهو مثل قوله تعالى ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ الآية فهي خطاب للأمة في شخص الرسول ﷺ وإذا حملنا الخطاب على الرسول ﷺ فليس ما فيه ما يدل على أنّ الرسول همّ بطاعة الكافرين

والمنافقين ، أو فعل معصية حتّى أمره الله تعالى بالتقوى ، وإنما غاية ما في الأمر أنّ الله تعالى حذّره من مكر الكافرين ، وخداع المنافقين ، وأطلعه على خبيئة نفوسهم ليكون الرسول منهم على حذر ، ولئلا ينخدع بمعسول كلامهم ، وقد روى أنّ أبا سفيان ، وعكرمة بن أبي جهل ، وأبا الأعور السلمي قدموا على النبي ﷺ في الموادعة التي كانت بينه وبينهم ، فقالوا للنبي ﷺ ارفض ذكر آلهتنا ، وقل إنها تشفع وتنفع ، وندعك وربّك فشقّ ذلك على النبي وعلى المؤمنين ، وهمّ عمر — وكان حاضراً — بقتلهم فنزلت الآية .

وروى أن أهل مكة دعوا النبي ﷺ أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطراً من أموالهم ، وخوّفه المنافقون واليهود بالمدينة فأنزل الله ﴿ يا أيها النبي اتق الله ﴾[1] الآية .

النص السادس: وهو قوله تعالى : ﴿فإنْ كنتَ في شكٍّ مما أنزلنا إليك فاسألِ الذينَ يقرؤونَ الكتابَ من قبلِكَ ، لقدْ جاءكَ الحقُّ من ربّكَ فلا تكونَنّ منَ الممْترين﴾ .

فهذه الآية الكريمة ليس فيها ما يدل على شكّ الرسول ﷺ في الوحي الذي نزل عليه ، وإنما هو من باب (الفرض والتقدير) كما هو عادة العرب في تقدير الشكّ ليبني عليه ما ينفي احتمال وقوعه كما تقول لابنك (إن كنت ابني فلا تكن بخيلاً) ومعنى الآية على هذا التقدير : إن وقع منك يا محمد شكّ — فرضاً وتقديراً — فيما قصصنا عليك من أخبار الأنبياء السابقين كنوح وإبراهيم فاسأل علماء أهل الكتاب الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، فإنهم على علمٍ من ذلك ، فالغرض وصف الأحبار بالعلم لا وصف النبي ﷺ بالشك والريب ، ولهذا قال (ابن عباس) رضي الله عنه : لا والله ما شكّ رسول الله طرفة عين ، ولا سأل أحداً منهم .. وروى أنه لما نزلت هذه الآية قال الرسول الكريم : لا أشك ولا أسأل[2] .

---

(١) أخرجه جويبر وذكره في اللباب .

(٢) انظر تفسير الطبري ص١٦٨ الجزء الحادي عشر .

جاء في محاسن التأويل ما نصّه :

« لا يفهم من هذه الآية ثبوت شكّ له صلوات الله عليه ، فإنّ صدق الشرطية لا يقتضي وقوعها كقولك : إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين .. والسرّ في مثلها تكثير الدلائل وتقويتها لتزداد قوة اليقين ، وطمأنينة القلب ، وسكون الصدر ، أو السرّ هوالاستدلال على تحقيق ما قصّ ،والاستشهاد بما في الكتاب المتقدم ، وأن القرآن مصدق لما فيها ، أو وصف الأحباربالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله صلوات الله عليه تعريضاً بالمشركين .. وقيل الخطاب له ﷺ والمراد غيره على حدّ قولهم : (إياك أعني واسمعي يا جارة) والمعنى إن كنت أيها السامع في شك مما نزلنا على لسان نبينا إليك ويؤيده ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شكّ من ديني ..﴾[1]

النص السابع : قوله تعالى : ﴿وإن كان كَبُرَ عليك إعراضُهمْ فإنْ استطعتَ أن تبتغي نفقاً في الأرض ، أو سلّماً في السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكوننَّ من الجاهلين﴾ فهذه الآية ليس فيها ما يدل على أن الرسول ﷺ اقترف ذنباً حتى عاتبه الله تعالى بهذا العتاب ، وإنما غاية ما في الأمر أن الله تعالى أراد أن يخفّف على رسوله عناء تكذيب المشركين له ، وأن يطلعه على حقيقة نفوسهم ، فلو جاءهم محمد رسول الله بكل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، قال (ابن عباس) رضي الله عنهما : « إنّ رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبره الله أنه لا يؤمن لدعائك إلاّ من قد سبق له من الله السعادة في الذّكر الأول[2] » ولهذا قال الله تعالى عقب هذه الآية ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ..﴾ والمراد بالموتى : الكفّار الذين لا يؤمنون ولا يستجيبون لدعوة الحق .

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي ج٩ ص ٣٣٩٦ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ص ١٤١ ج٢ .

ففي هذه الآية ما لا يخفى من الدلالة على المبالغة في حرصه ﷺ على إسلام قومه ، بحيث لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت الأرض ، أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم وشفقةً عليهم صلوات الله وسلامه عليه وصدق الله حيث يقول ﴿لقد جاءكُمْ رسولٌ من أنفُسكم عزيزٌ عليه ما عنتّم ، حريصٌ عليكمْ ، بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ .

النص الثامن : قوله تعالى ﴿ولا تطردِ الذينَ يدْعونَ ربّهم بالغداةِ والعشيّ يريدون وجهَهُ ، ما عليكَ من حسابهم من شيءٍ ، وما منْ حِسابِكَ عليهم من شيءٍ فتطرُدَهم فتكونَ من الظالمين﴾ .

ففي هذه الآية تحذير له ﷺ على إجابة كفار قريش في طرد المؤمنين المستضعفين ، وليس فيها ما يدل على أنه طردهم فعلاً ، وإنما هو عرض عرضه المشركون على رسول الله فجاء التنبيه من الله والتحذير من فعله، روى ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : مرّ الملأ من قريش برسول الله ﷺ وعنده صهيب ، وبلال ، وعمّار ، وخبّاب وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا يا محمد : أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نصير تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم فلعلّك إن طردتهم نتبعك فنزلت هذه الآية ﴿ولا تطردِ الذينَ يدعونَ ربهم بالغداةِ والعشي﴾ (١) .

إذا علمت ذلك تبيّن لك أن الرسول ﷺ لم يطرد هؤلاء الضعفاء ، وإنما همّ بإبعادهم عن مجلسه حين قدوم أولئك المشركين ، ليتألف قلوبهم فيقودهم ذلك إلى الإيمان ، فنهاه الله تعالى عن تنفيذ ذلك الهم وأمره أن يجعل هؤلاء الفقراء المستضعفين جلساءه وأخصائه كما قال تعالى في سورة الكهف : (واصبرْ نفسكَ معَ الّذينَ يدْعونَ ربّهمْ بالغداةِ والعشيّ يريدونَ وجهَهُ ولا تعدُ عيناكَ عنهمْ تريدُ زينةَ الحياة الدّنيا . ولا تُطعْ منْ أغفلنا قلبَهُ عنْ ذكرِنا واتّبعَ هواهُ وكانَ أمرهُ فُرُطاً ﴾.

(١) انظر محاسن التأويل ص ٢٣٢٣ .

النص التاسع : قوله تعالى : ﴿ إنّا ففتحنا لكَ فتحاً مبيناً .ليَغْفِرَ لكَ اللهُ ما تقدّم من ذنبكَ وما تأخرَ ..﴾ الآية .

قال (ابن كثير) : المراد بقوله تعالى (إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً) هو صلح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وأمن الناس ، واجتمع بعضهم ببعض وتكلّم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان) .

وقال (ابن القيم) : كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم ، أمن الناس به ، وكلّم بعضهم بعضاً ، وناظره في الإسلام ، وتمكّن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه ، والمناظرة عليه ، ودخل بسببه بشر كثير في الإسلام ، ولهذا سمّاه الله فتحاً (١) .

وأمّا الذنب المذكور في الآية فالمراد منه ترك الأفضل والأولى قال أبو السعود في تفسيره : قوله تعالى ﴿ ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ﴾ في جميع ما فرط منك من ترك الأولى ، وتسميته ذنباً بالنسبة إلى منصبه الجليل ﷺ ، وجاء في التفسير الواضح : والمراد بما تقدم من الذنب وما تأخر هو ما فرط من النبي ﷺ — وهو المعصوم عن معصية ربه — من خلاف الأولى بالنسبة لمقامه فهو من قبيل « حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقرّبين » وقيل المراد ما هو ذنب في نظره العالي ، وإن لم يكن في الواقع كذلك ، ولعلّ الإضافة في قوله (ذنبك) تشير إلى هذا المعنى (٢) .

النص العاشر : قوله تعالى : ﴿وإذْ تقولُ للذي أنعمَ اللهُ عليه وأنْعمتَ عليه أمسكْ عليكَ زَوجَكَ واتّقِ اللهَ وتُخفي في نفسكَ ما اللهُ مُبديه ، وتَخشى النّاسَ واللهُ أحقّ أنْ تخشاهُ ..﴾ الآية . وهنا يحلو لبعض ضعفاء الإيمان الذين في قلوبهم مرض أن يثيروا بعض الشبهات حول زواج النبي ﷺ بزينب رضي الله عنها التي كانت عند مولاه ومتبناه (زيد بن حارثة) وأن يقيموا زوبعة من

---

(١) انظر زاد المعاد لابن القيم في الكلام على غزوة الحديبية .

(٢) انظر التفسير الواضح للحجازي ص ٣٩ ج ٢٦ .

الزوابع الهوجاء حول (عصمته) ﷺ ، فقد زعموا أن محمداً رأى زينب فأحبها ثمّ كتم هذا الحب ، ثم بعد ذلك أظهره ، ورغب في زينب فطلّقها زوجها زيد وتزوجها رسول الله ، وزعموا أن العتاب في الآية كان لكتمان حب الرسول لزينب .

وافتروا بعض الفرى الأثيمة فزعموا أن النبي ﷺ مرّ ببيت زيد وهو غائب فرأى زينب فوقع منها في قلبه شيء فقال : سبحان مقلّب القلوب ! فسمعت زينب التسبيحة فنقلتها إلى زيد فوقع في قلبه أن يطلّقها حتى يتزوج بها الرسول إلى غير ما هنالك من المزاعم الباطلة التي تلقفها (المستشرقون) ومن على شاكلتهم من المسلمين المزيفين ، وخبّوا فيها ووضعوا ، وأباحوا لأنفسهم الخوض في الأعراض ، والتكلم في حق النبي الكريم ، وتصويره بصورة يترفع عنها كثير من الناس ، وكان سندهم في ذلك بعض الروايات الاسرائيلية التي دسّت في كتب التفسير وهي روايات باطلة لم يصحّ فيها شيء كما قال (أبو بكر بن العربي) رحمه الله .

وتفصيل الموضوع كما روى ابن أبي حاتم من طريق السّدي ولفظه : بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش ، وكانت أمها (أميمة بنت عبد المطلب) عمة رسول الله ، وكان رسول الله قد أراد أن يزوجها (زيد بن حارثة) مولاه فكرهت ذلك ، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله فزوّجها إياه ، ثمّ أعلم الله عزّ وجل نبيّه ﷺ بعد أنها من أزواجه ، فكان يستحيي أن يأمره بطلاقها ، وكان لا يزال بين زيد وزينب ما يكون بين الناس ، فأمره رسول الله ﷺ أن يمسك عليه زوجه ، وأن يتقي الله ، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا تزوّج امرأة تزوّج امرأة ابنه ، وفي هذه الحادثة نزل قوله تعالى ﴿وما كانَ لمؤمن ولا مؤمنةٍ إذا قَضى اللهُ ورسولُهُ أمراً أنْ يكونَ لَهُمُ الخِيرَةُ من أمرِهِم﴾ .

وروى عن (علي بن الحسين) أنه قال : أعلم الله نبيّه ﷺ أنّ زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد يشكوها إليه وقال له :

اتقّ الله وأمسك عليك زوجك ، عاتبه الله وقال له : أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه .

فالذي أخفاه رسول الله ﷺ ليس هو (الحب) كما زعم المفترون ، وإنما أخفى ما أوحى الله إليه من أمر (الزواج) بها لحكمة عظيمة وهي ابطال (حكم التبني) وقد خشي الرسول من كلام المنافقين أن يقولوا : إن محمداً تزوّج بامرأة ابنه من التبني حيث كان (زيد) رضي الله عنه يدعى (زيد بن محمد) .

يقول الشيخ الحجازي في التفسير الواضح :

« ومن المؤسف أن يندسّ في كتب التفسير أقوال تنسب إلى أكابر العلماء والله يعلم أنهم منها براء ، أو هي في الواقع سموم اسرائيلية ، وضعها من أسلم من اليهود عن حسن قصد أو سوء نيّة ، ومنها ما قيل في تفسير هذه الآيات من نسبة أمور لا تليق بأيّ رجل عادي ، فضلاً عن أشرف الخلق المشهود له من كافة الناس أنه رجل صادق ذو خلق حميد .

ونظرة بسيطة إلى تاريخ (زينب) وظروفها في زواج (زيد) تجعلنا نؤمن بأنّ سوء العشرة التي كانت بين زينب وزيد إنما هو من اختلافهما اختلافاً بيناً في الحالة الاجتماعية ، فزينب شريفة ، وزيد كان بالأمس عبداً ، وقد أراد الله امتحانها بزواج زيد لتحطيم مبدأ العصبيّة القبليّة ، والشرف الجاهلي ، وجعل الشرف في (الإسلام والتقوى) فخضعت زينب مكرهة ، وأسلمت لزيد جسدها دون روحها فكان الألم والضيق .

ومحمد هذا كان يعرف زينب من الصغر لأنها ابنة عمته فمن كان يمنعها منه ؟ وكيف يقدّم إنسان امرأة لشخص وهي (بكر) حتى إذا تزوجها وصارت (ثيباً) رغب فيها ؟!

لا يا قوم : تعقلوا ما تقولون ، وتفهّموا الحق لوجه الحق تدركوه بلا تلبيس ولا تشويش . وانظر إليهم وهم يقولون : إن الذي أخفاه محمد هو حبه لزينب ولهذا عوتب وهل يعاتب الشخص لأنه لم يجاهر بحبه لامرأة جاره ؟!

ولكن الحق هو أنّ هذا الزواج كان امتحاناً في أوله لزينب وأخيها حيث أكرها على قبول زيد ، وفي النهاية كان امتحاناً قاسياً للنبي ﷺ حيث يؤمر به ويعلم نهايته ، وزينب تحت مولاه زيد ، والحكمة كما نطق القرآن هو تحطيم مبدأ كان معمولاً به ومشهوراً عند العرب هو (تحريم زواج امرأة الابن من التبني) كتحريمها إذا كان الابن من النسب﴿ لِكَيْلا يكونَ على المؤمنينَ حَرَجٌ في أزواجِ أدْعيائهم إذا قَضَوا منهُنَّ وطَراً ..﴾ .

فالذي كان يكتمه النبي ﷺ في نفسه تأذيه من هذا الزواج ، وتراخيه في إنفاذ أمر الله به ، وخوفه من لغط الناس وبخاصة المنافقين عندما يجدون نظام التبني قد انهار بعدما ألفوه، ولهذا فقط عوتب عليه الصلاة والسلام[١]

أقول إن الآية صريحة في هذا الشأن ، فقد ذكرت الآية أنّ الله سيظهر ما أخفاه الرسول ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ فماذا أظهر الله تعالى ؟ هل أظهر حبّ الرسول لزينب ؟ كلا ، إنما الذي أظهره هو إرادة الرسول الزواج بها لأن الله قد أوحى إليه بأنها ستكون زوجته ، ولهذا صرّح الباري جل وعلا بهذا الشيء أخفاه الرسول في نفسه فقال تعالى ﴿ فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوّجْنَاكَهَا ﴾ .

وهكذا تبطل مزاعم المفترين أمام الحجج الدامغة ، والبراهين الساطعة التي تدل على عصمة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) التفسير الواضح ج٢٢ ص ١٢ .

الفصل الرّابع
قصص الانبياء

١ – الحكمة من قصص الأنبياء .
٢ – أغراض القصة في القرآن .
٣ – لماذا تكررت قصص القرآن .
٤ – نموذج عن تكرر القصة في القرآن .

قصص الأنبياء :

تاريخ الأنبياء تاريخ العظمة والجلال ، وحياتهم حياة الكفاح والنضال ، وما يستطيع البشر – مهما أوتوا من قوة – أن يدركوا شأنهم ، أو يصلوا إلى ما وصلوا إليه من سموّ في النفس ، وكمال في الخُلُق ، وزهد في الدنيا ، وتضحية في سبيل الله ، من أجل اعلاء كلمة الله ، وتبليغ دعوته ، ونشر رسالة الحق – رسالة الهدى والخير والدين . إنّ تاريخهم سلسلة من حياة طويلةمريرة ، وكفاح دائم مستمر ، ضدّ أعداء الحق وأعداء الله ، وأعداء الإنسانية ، في كل زمان وحين !.

إنه تاريخ مشرّف ، مليء بأنواع البطولات ، وألوان الصبر والشجاعة الفذّة التي قل أن نجد مثلها في تاريخ زعيم أو عظيم ، أو قائد أو مصلح ، لأنهم صُنِعوا على عين الله ، فقد كانت حياتهم مليئة بالجهاد ضد الباطل ، والصمود وراء الحق ، والصبر عند الشدائد ، وتحمل الأذى في سبيل الله ، فقد منحهم الله تبارك وتعالى من العزائم والهمم ، ما يعجز عنه الأقوياء من الرجال ، و لا تتحمله الراسيات من الجبال ، فكانوا – بحق – مفخرة الأزمان ، وأهلاً لقيادة الأمم والشعوب . لقد ضلت البشرية طريق الخير والسعادة، وخيّم عليها ظلام الجهل

والشقاوة ، فتداركها الله العلي القدير ببعثة الرسل الكرام ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ !!

الحكمة من قصص الأنبياء :

ليست الغاية من ذكر قصص الأنبياء إلا أن يتخذ الدعاة والمصلحون من سيرتهم العطرة نبراساً يستضيئون بضيائه ، ويهتدون بهديه ، وأن يسيروا على نهجهم فيجعلوهم قدوتهم في جميع التصرفات والأعمال ، وأن يكون أمامهم (المثل الأعلى) من حياة هؤلاء الرسل الكرام ، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام .. وليس الغرض من ذكر القصص في القرآن « التسلية » أو « الترفيه » عن النفس ، وإنما الغرض « العظة » و « العبرة » وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة ﴿لَقَدْ كَانَ في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأولي الألْبَاب﴾ الآية . كما أشارت الآية الأخرى إلى ضرورة الاستفادة من قصص القرآن ، بالتفكر والتدبر ، والسير على منهاج الأنبياء والمرسلين ﴿فاقصص القَصَصَ لعلهم يتفكرون﴾ وخاصة بالنسبة إلى مقام الدعاة فإن الغرض من ذكر قصص الأنبياء لهم تثبيتهم على الدعوة ، وتقوية عزائمهم ، بإطلاعهم على سيرة الأنبياء الأطهار وما تحملوه من أذى في سبيل الله ، كما قال تعالى لسيد الخلق محمد ﷺ : ﴿وكلاً نقص عليك من أنبَاءِ الرّسُلِ ما نُثبّتُ بِهِ فُؤادَكَ ، وجاءَكَ في هذهِ الحقّ ومَوْعِظَةٌ وذِكْرَى للمؤمنين﴾ .

أغراض القصة في القرآن :

للقرآن الكريم في ذكر القصة أغراض عديدة وجليلة نوجزها فيما يلي :

أولاً : إثبات الوحي والرسالة .

ثانياً : الإشارة إلى وحدة الأديان السماوية .

ثالثاً : بيان الغرض من دعوة الرسل .

رابعاً : موقف الأمم من الأنبياء الكرام .

خامساً : الترابط الوثيق بين الشرائع والأديان .

سادساً النصر للرسل والهلاك للمكذبين .

سابعاً : بيان قدرة الله تعالى على الخوارق .

ثامناً : عاقبة الخير والصلاح وعاقبة الشر والفساد .

هذه أهم أغراض (القصة في القرآن) وهناك أغراض أخرى غير هذه الأغراض لا يمكن استقصاؤها .. ويجدر بنا ههنا أن ننقل طرفاً مما كتبه شهيد الإسلام (سيد قطب) في كتابه : التصوير الفني في القرآن ، حيث قال رحمه الله تحت عنوان (القصة في القرآن) : (سيقت القصة في القرآن ، لتحقيق أغراض دينية بحتة ، وقد تناولت هذه الأغراض عدداً وفيراً ، يصعب استقصاؤه لأنه يكاد يتسرب إلى جميع الأغراض القرآنية .. فإثبات الوحي ، واثبات وحدانية الله ، وتوحد الأديان في أساسها ، ومظاهر القدرة الإلهية ، وعاقبة الخير والشر ، والصبر والجزع ، والشكر والبطر ، وكثير غيرها من الأغراض الدينية ، والمرامي الخلقية ، قد تناولته القصة وكانت أداة إليه ، فإذا نحن استعرضنا أغراض القصة القرآنية فإنما نثبت أهمّ هذه الأغراض وأوضحها ونترك استقصاءها وتتبعها [١] .

ولنبدأ بتفصيل ما أجملناه من أغراض القصة في القرآن :

أولاً : (اثبات الوحي والرسالة) .

لقد كان من أغراض القصة في القرآن (اثبات الوحي والرسالة) أي أن هذا الدين الذي جاء به الرسل الكرام إنما هو بوحي من الله تبارك وتعالى ، وأنهم أنبياء مرسلون من عند الله العزيز الحكيم ، وخاصة بالنسبة إلى أمر محمد ﷺ فقد بيّن القرآن الكريم أن هذا القصص إنما هو بوحي من الله ، فمحمد ﷺ أمي لا يكتب ولا يقرأ ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوْ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ، وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِيْنِكَ ، إذاً لارْتَابَ المُبْطِلُوْنَ ﴾ ولم ينقل عن الرسول ، أنه كان يجلس إلى أحبار اليهود ، أو رهبان النصارى ، فحين جاء بهذا القصص الرائع ، عن

(١) التصوير الفني في القرآن لسيد قطب .

الأنبياء قبله ، وعن الأمم والخلائق ، وما وقع لهم وما حلّ بهم ، وبعض القصص جاء في دقة وإسهاب ، كقصص ابراهيم ، ويوسف ، وموسى ، وعيسى — فمجيء القصص بهذه الدقة المتناهية،وورودها في القرآن بهذا البيان المحكم ، أعظم دليل على أنه وحيٌ يوحى من عند الحكيم الخبير ، وقد أشارت كثير من الآيات القرآنية إلى هذا الغرض ، إشارةً واضحة جلية ، في مقدمات بعض القصص أو في ذيولها ، مثل : قوله تعالى﴿ نَحْنُ نقُصّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بما أَوْحَيْنَا إليك هَذَا القُرْآنَ ، وإنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لمِنَ الغَافِلِيْنَ ﴾. وقوله تعالى ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوْحِيْهَا اليْكَ ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، فاصْبِرْ إنّ العَاقِبة للْمُتّقِيْنَ ﴾ .

ثانياً : الإشارة إلى وحدة الأديان السماوية .

ومن أغراض القصة بيان أن الدين كله من عند الله ، من عهد نوح عليه السلام ، إلى عهد محمد ﷺ .. وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة ، والله الواحد الأحد هو رب الجميع .. فكثيراً ما وردت قصص الأنبياء مجتمعة في سورة واحدة ، معروضة بطريقة خاصة لتؤيد هذه الحقيقة الواضحة ، نضرب لذلك مثلاً ما جاء في سورة الأنبياء في قوله تعالى :

﴿ولقدْ آتينا موسى وهارونَ الفرقانَ وضياءً وذكراً للمتقين . الذينَ يَخْشَونَ ربّهمْ بالغيبِ وهمْ منَ السّاعةِ مُشْفقون ﴾.وقوله تعالى : ﴿ولقدْ آتينا إبراهيمَ رُشدَهُ منْ قبلُ ، وكنّا به عالمين ﴾. وقوله تعالى﴿ ولوطاً آتيناهُ حُكماً وعلماً ، ونجيناهُ من القريةِ التي كانتْ تعملُ السوء﴾ .

ثم بعد ذكر الأنبياء (نوح ، وأيوب ، وإسماعيل ، وادريس ، وزكريا) وبعد ذكر رسالتهم ودعوتهم تأتي تلك الحقيقة الناصعة التي أكّدها القرآن الكريم ألا وهي وحدة الإله ، ووحدة الأمة فيقول جل ثناؤه :

﴿ إنّ هذه أمتكم أمةً واحدة. وأنا ربكم فاعبدون ﴾ وذلك هو الغرض الأصيل من الاستعراض الطويل .

ثالثاً : بيان الغرض من دعوة الرسل .

وكان من أغراض القصة كذلك ، بيان أن الدين كله واحد الهدف والأساس وتبعاً لهذا كان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، يركّزون على هدف واحد، وغاية واحدة ، ألا وهي الاعتقاد (بوحدانية الله) وكانت ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعة كذلك مكرّرة فيها العقيدة الأساسية (الإيمان بالله الواحد) الذي هو الغرض الأساسي من دعوة الرسل على نحو ما جاء في سورة الأعراف في قوله تعالى :

﴿لقد أرْسلنا نوحاً إلى قومه فقالَ يا قومِ اعْبدوا اللهَ مالَكم من إله غيرُهُ﴾.

﴿وإلى عَادٍ أخاهُمْ هُوْداً ، قال يا قوْمِ اعْبُدُوْا اللهَ مَا لكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ ..﴾ الآية .

﴿وإلى ثَمُودَ أخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوْا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ ..﴾ الآية .

﴿ وإلى مَدْيَنَ أخَاهُمْ شُعيباً قالَ يا قومِ اعبُدوا اللهَ ما لكُمْ مِن إلهٍ غَيْرُهُ﴾ .. الآية .

فهذا التوحيد لأصول العقيدة يشترك فيه جميع الأنبياء في جميع الأديان ، وترد قصصهم مجتمعة في هذا السياق لتأكيد ذلك الغرض الخاص .

رابعاً : موقف الأمم من الأنبياء الكرام .

ومن الأغراض أيضاً في قصص القرآن الإشارة إلى موقف الأمم من الأنبياء الكرام فقد كان موقفاً متشابهاً .. فما من نبي دعا قومه إلى الله إلا وقف في وجهه المجرمون موقف العِناد والاستكبار ، وموقف التكذيب والجحود كما قال تعالى ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾ فقد اتحدت في قصص الأنبياء صيغة الدعوة كما اتحدت من أقوامهم صيغة التكذيب .. استمع إلى قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام :﴿ قَالُوْا يا نُوْحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فأكْثَرْتَ جِدالَنَا فأتِنَا بما تَعِدُنَا إنْ كُنْتَ مِنَ الصَادقين﴾ وفي قصة (هود) عليه السلام يحكي القرآن لنا موقف قومه :

﴿قَالُوْا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ، ومَا نَحْنُ بِتَارِكِيْ آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ، ومَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِيْنَ . إنْ نَقُوْلُ إلاّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوْءٍ ..﴾ الآية .

وفي قصة (صالح) مع قومه (ثمود) يقول القرآن حكاية عن قومه :

﴿قالُوْا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِيْنَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا ، أتَنْهَانَا أنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنَا ، وإنّنَا لَفِيْ شَكٍّ مِمّا تَدْعُونَا إليهِ مُرِيْبٍ﴾

وهكذا بقية الأنبياء الكرام نجدُ أنّ موقف أقوامهم لا يختلف عن موقف الأمم السابقين في الجحود والتكذيب والاستهزاء بدعوة الرسل الكرام وصدق الله حيث يقول : ﴿ كذلكَ ما أتى الذيْنَ مِنْ قبْلِهِمْ مِنْ رَسُوْلٍ إلاّ قالُوا ساحِرٌ أوْ مجنُوْنٌ ﴾ .

خامساً : (الترابط الوثيق بين الشرائع والأديان) .

ومن الأغراض في القصة القرآنية بيان الترابط الوثيق بين الأديان السماوية فليس بينها تعارض أو تصادم ، بل إنها جميعاً تستقي من نبع واحد ، وكل نبي إنما يأتي برسالة متمّمة ومكمّلة لرسالة النبي الذي سبقه ، ويدعو إلى الإيمان برسالته ، والاعتقاد بصدق ما جاء به من عند الله تعالى ، ذلك لأنّ مصدر التشريع واحد هو (الله رب العالمين) فليس هناك ما يدعو إلى النزاع والخصام كما قال تعالى ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدّيْنِ مَا وصّى بِهِ نُوْحاً والذي أوْحَيْنَا إليك ومَا وصّيْنَا بهِ إبْراهيمَ ومُوْسَى وعيْسَى أنْ أقيْمُوا الدّيْنَ ولا تَتَفَرّقُوا فِيْه ..﴾ الآية . ثم الترابط بوجه خاص بين دين أبي الأنبياء (إبراهيم) ودين خاتم الرسل (محمد) وكذلك بين دين محمد ، وأديان بني اسرائيل .. استمع إلى قوله تعالى :

﴿ إنّ هَذَا لَفِي الصّحُفِ الأولى ، صُحُفِ إبْرَاهيمَ وموسى ﴾ وإلى قوله تعالى :

﴿ومَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدّيْنِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلّةَ أبِيكُم إبراهيمَ ، هُوَ سَمّاكُمُ المُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وفي هذا .. ﴾ الآية .

﴿ إن أوْلى الناس بإبراهيمَ لَلّذينَ اتّبعوهُ ، وهذا النبيّ ، والّذينَ آمنوا ، واللهُ يحبّ المتقينَ ﴾ . وقد أخذ الباري جل وعلا العهد والميثاق على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويتبعوه ويكونوا من أنصاره — إن أدركوا عهده وحياته وهذا يدلّ على الترابط بين جميع الأديان السماوية . قال تعالى ﴿ وإذْ أخذَ اللهُ ميثاقَ النبيّينَ لما آتيتكُمْ منْ كتابٍ وحكمةٍ ثُمّ جاءَكُمْ رسولٌ مُصدّقٌ لما معَكُمْ لتُؤْمِنُنّ به ولتَنْصُرُنّهُ ، قالَ أأقررْتُمْ وأخذْتم علي ذلكم إصْري[1] ؟ قالوا : أقرَرْنا قالَ فاشْهَدُوا وأنا معكُمْ مِنَ الشّاهِدِيْنَ ﴾ .

سادساً : (النصر للرسل والهلاك للمكذبين) .

ومن أغراض القصة أيضاً بيان أن النصر في النهاية للرسل الكرام ، وأن الهلاك والدمار للأمم المكذبين ، وفي ذلك تقوية للأنبياء ، وتطييب لخاطرهم ، حيث يقرّ الله أعينهم في الدنيا بإهلاك أقوامهم المكذبين ، وبانتصار مبدئهم واعتزاز دعوتهم ، وتغلّبهم على أعداء الدين .

سابعاً : بيان قدرة الله تعالى على الخوارق .

ومن أغراض القصة في القرآن الكريم (بيان قدرة الله على الخوارق) فقد ذكرت قصة خلق آدم عليه السلام ، وقصة ولادة عيسى بن مريم ، وذلك للدلالة على قدرة الله الباهرة التي تقول للشيء كن فيكون .. فآدم عليه السلام ولد بدون أب وبدون أم ، وعيسى عليه السلام ولد من أم دون أب ، وحواء ولدت من ضلع آدم ، وكل ذلك دليل القدرة الباهرة على الخوارق العجيبة ، استمع إلى قوله تعالى في شأن عيسى بن مريم عليه السلام : ﴿إنّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدمَ خَلَقهُ من تُرابٍ ثُمّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكونُ﴾ .

وكذلك قصة (ابراهيم عليه السلام) والطير الذي ذبحه ثم عادت له الحياة ، وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها وقد أماته الله مئة عام ثمّ أحياه ، كل هذه القصص وأمثالها مما يدل على قدرة الله تعالى العجيبة في خرق

(١) الإصر : العهد الموثق المؤكد .

العادات ، وإظهار الخوارق العجيبة في هذا الكون البديع .

ثامناً : عاقبة الخير والصلاح ، وعاقبة الشر و الفساد .

ومن أغراض القصة في القرآن الكريم (بيان عاقبة الخير ، وعاقبة الشر) كقصة ابني آدم (قابيل وهابيل) المذكورة في سورة المائدة في قوله تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ، قَالَ : لأَقْتُلَنَّكَ ، قَالَ : إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وكيف اعتدى (قابيل) على أخيه فأقدم على قتله ، إلى آخر ما في القصة من مغزى دقيق حول العدل الإلهي المطلق . ومثل قصة سدّ مأرب ، وقصة صاحب الجنتين ، وقصة أصحاب الأخدود ، وقصة أهل القرية الآمنة التي كفرت بأنعم الله ، وكل هذه القصص وردت لبيان عاقبة الخير ، وعاقبة الشر .. إلى آخر هذه الأغراض الوعظية التي كانت تساق لها القصص بأروع أسلوب لتؤدي غايتها ، وتفي بمغزاها [1] . استمع إلى قوله تعالى :

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ وتدبّر ذلك الجزاء العادل ، الذي أخذ الله به القوم المجرمين :

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وما كانوا سابقين . فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ومنهم مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ .

لماذا تكرّرت قصصُ القرآن ؟

قصّ الله علينا من قصص الأنبياء والمرسلين ما فيه عظة وذكرى ، وأرشدنا إلى مواطن العظة والعبرة في حياة كل رسول ، لنقتدي بهم في سيرتهم العطرة ،

---

(١) التصوير الفني في القرآن لسيد قطب .

وأخلاقهم الطاهرة ، وليكونوا مصابيح تضيء للناس طرق السعادة والفلاح ﴿لَقَدْ كانَ في قصَصِهِم عبرةٌ لأولي الألباب، ما كانَ حديثاً يُفْتَرى ولكنْ تصْديقَ الذي بينَ يديه﴾ وقد ذكرت قصص الأنبياء في سور عديدة ، فجاءت مكرّرة — حسب الظاهر — ولكنّ هذا التكرار له حكمته البليغة ، وإشارته الدقيقة ، فإنه يدل على (إعجاز القرآن الكريم) وعلى أنه حقاً كتاب منزل من عند الله .. فإنّ أبلغ البلغاء وأفصح الفصحاء يستحيل عليه إذا كتب قصة مرة واحدة ، أن يكتبها مرة أخرى بألفاظ غير الأولى مع المحافظة على متانة الأسلوب ، وفصاحة الألفاظ ، وبلاغة التعبير ، ولا بدّ أن يرى الفرق بين الأسلوبين واضحاً كل الوضوح .. أما القرآن الكريم فقد تفنّن في سَرْد القصص بنفس تلك الفصاحة والبيان ، والروعة والاتقان ، فجاءت القصة فيه مكرّرة معبّرة عن معنى واحد ، ولكنْ بألفاظ أخرى وعبارات مختلفة ، فسبحان القادر على كل شيء ، الذي أنزل كتابه المعجز تبياناً لكل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .

نموذج عن تكرر القصة في القرآن :

ولنأخذ نموذجاً على تكرار القصة في القرآن الكريم (بمعنى واحد) و (أسلوب مختلف) مع بقاء الروعة في التعبير ، ومتانة الأسلوب وذلك في قصة « آدم » عليه السلام فقد ذكرت قصته في مواطن شتّى ، وبأساليب متنوعة ، نختار منها موضعين فقط لنرى الأسلوب الرائع في كلٍ من السورتين الكريمتين

أولاً : قال الله تعالى في سورة « الأعراف » :

﴿ويا آدَمُ اسْكُنْ أنْتَ وزَوْجُكَ الجنّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ولا تَقْرَبَا هَذِهِ الشّجَرَةَ فَتَكُوْنَا مِنَ الظّالمِيْنَ . فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشّيْطَانُ لِيُبْدي لَهُمَا مَا وُوْري عَنْهُمَا مِنْ سَوآتِهِمَا ، وقَالَ مَا نَهَاكُمَا ربّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشّجرةِ إلاّ أن تَكُوْنَا مَلَكَيْنِ أو تَكُوْنَا

مِنَ الخَالِدِيْنَ . وقَاسَمَهُمَا إني لَكُمَا لمنَ النّاصِحينَ . فَدَلاّهُمَا بِغُرُوْر فلمّا ذَاقا الشّجرةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ، وطَفِقَا يخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجنّةِ ، ونَاداهُمَا رَبّهُمَا ألَمْ أنْهكُمَا عَنْ تِلْكُما الشّجرةِ وأقُلْ لَكُمَا إنّ الشّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌ مُبينٌ ؟ قَالا ربّنَا ظلمْنا أنْفُسَنَا وإنْ لمْ تَغْفِرْ لنَا وتَرْحَمْنَا لنكونَنّ من الخاسرين﴾ .

ثانياً : وقال تعالى في سورة « طه » :

﴿ وَإذْ قُلْنَا للمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدمَ فَسَجَدُوا إلاّ إبليسَ أبى . فَقُلْنَا يا آدمُ إنّ هَذَا عَدُوٌّ لكَ وَلِزَوْجِكَ فلا يُخْرِجَنّكُمَا مِنَ الجَنّةِ فَتَشْقَى . إنّ لكَ ألاّ تجوعَ فيها ولا تَعْرى . وأنّكَ لا تَظْمَأُ فيها ولا تَضْحَى . فَوَسْوَسَ إلَيْهِ الشّيْطَانُ قالَ يا آدَمُ : هَلْ أدُلّكَ على شَجَرَةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لا يَبْلَى ؟ فأكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لهما سَوْآتُهما وَطَفِقَا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الجَنّةِ ، وعَصَى آدَمُ رَبّهُ فَغَوَى . ثم اجْتَبَاهُ ربّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وهَدَى﴾. وعلى هذا النموذج من الروعة والإتقان ذكرت قصص الأنبياء وحوادث الأمم مكررة في القرآن لتدل على قدرة الإله العليّ الحكيم .

١ – خلق آدم عليه الصلاة والسلام .
٢ – العبرة من خلق آدم – عليه السلام .
٣ – آدم عليه السلام أبو البشر .
٤ – الأدلة على أنه أول المخلوقات .
٥ – هل نظرية « داروين » تعارض القرآن .
٦ – الرد على نظرية داروين وإثبات بطلانها .
٧ – المراحل التي مر بها خلق آدم عليه السلام .
٨ – قصة قابيل وهابيل ابني آدم .

خلق آدم عليه السلام :

قصة آدم عليه السلام هي قصة البشرية بأسرها ، وحياته حياة هذا الوجود بأكمله ، منذ أن أراد الله – جلّت عظمته – لهذه الدنيا أن تُعْمرَ ، ولهذا الوجود أن يَظْهر ، ولهذه الحياة أن تكتمل وتزْدان بظهور هذا الإنسان ..!

إنها قصة الحياة كاملة من بدايتها إلى نهايتها ، قصة الوجود بأجمعه منذ أن ظهرت هذه الكتل البشرية على ظهر هذا الكوكب الأرضي ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون . قصة الأحقاب الطويلة ، والأجيال الكثيرة التي مرّت على هذا العالم فعاشت فيه ثمّ رحلت عنه ، مخلّفةً وراءها هذه المظاهر والآثار البشرية .. ولسان حالها يقول :

تلك آثارنا تدلّ علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

العبرة من خلق آدم :

لم يكن خلق آدم من تراب ، ثم تناسل ذريته من بعده أمراً عادياً طبيعياً .. إنما هو أمر هام ، وخلق عظيم ، فيه تجلّت مظاهر القدرة الربانية ، والعظمة الإلهية التي تقول للشيء « كن فيكون » .. إنه منتهى « الإبداع » والإعجاز ،

فإن أهل الأرض جميعاً لو اجتمعوا على خلق «ذُبابة » أو « بعوضة » لما طاعوا فكيف بإنسان له عقل وسمع وبصر وإدراك ! ! « فتبارك الله أحسن الخالقين » ! إنها « القدرة الإلهية » الفائقة التي تخلق من العدم وجوداً ، وتجعل من الضعف قوة ومن السكون حركة ، ومن الجماد حياة وروحاً ، فإذا التراب يتحرك ، وإذا الطين يتكلّم ، وإذا الجماد بشر سوي ، في أجمل صورة وأحسن تقويم ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ .

هذا هو « آدم » وهذه هي ذريته ، بل هذه قصته وقصة الخليقة أجمعين .. مخلوق يخلقه الله من طين ، ثم يخلق ذريته من نطفة من ماء مهين ، ويستخلف هذه الذرية في الأرض ، ويملّكها الوجود ، ويجعل هذا الإنسان خليفةً عن الله ، فإذا بهذا المخلوق الضعيف يستعلي على ربه ، ويريد أن ينازعه في ملكه ، ويتجرأ على عصيان أوامر الله . أليس عجيباً أنْ ينكر وجود الله من لم يكن بالأمس شيئاً مذكوراً ! ! أليس عجيباً أن يكفر بنعم الله من وجودُه برهان على وجود الله ! ! وصدق الله حيث يقول :﴿قُتِلَ الإنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ؟ مِنْ أيّ شَيءٍ خَلَقَهُ ؟ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ . ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ .ثُمَّ إذا شَاءَ أنْشَرَهُ . كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ يا عجباً ممن ينكر وجود الله،وكلّ ذرة في الكون ناطقة بوجوده ! !

يا عجباً ممن يكذّب بآيات الله ، وكل حركة في الوجود شاهدة بوحدانيته وعظيم قدرته !

يا عجباً ممن يغمض عينيه حتى لا يرى نور الشمس الساطع ، ويصمّ أذنيه حتى لا يسمع صوت الكون الرائع !

وحقاً كما قال الله ﴿ فإنها لاتعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ . ولله در القائل حيث يقول :

فيا عجباً كيف يعصى الإله — أم كيف يجحده الجاحد ؟
ولله في كل تحريكة — وتسكينة أبداً شاهد
وفي كل شيءٍ له آيةً — تدل على أنه واحد

أفليست قصة « آدم » قصة عجيبة ؟.. أفليس وجود هذا الإنسان في هذا الكون يستدعي منه التبصّر والانتباه ؟ أفليس خلقه من تراب وطين يستلزم منه الإيمان واليقين ﴿ فلينظر الإنسان ممّ خلق ؟ خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر ﴾ . !

آدم أول البشر :

حدثنا القرآن الكريم عن خلق « آدم » عليه السلام ، وأخبرنا أنه أول مخلوق من البشر ظهر على سطح الأرض في هذا الوجود، فهو إذاً أبو الخلائق، وأصل هذا العالم ، وإليه ينتمي جميع سكان الأرض ، وليس قبله مخلوق من النوع الإنساني على الإطلاق ، أما من غير البشر فقد كان هناك ملائكة قبله ، وكذلك من الجن مخلوقات قبله ، ولهذا لما اقتضت حكمة الله الأزلية خلق هذا الإنسان ، أخبر الباري جلّ وعلا الملائكة بذلك وأخبرهم بأنه سيكون من ذريته أشخاص يسفكون الدماء ويفسدون في الأرض ، فتعجبوا وسألوا عن « الحكمة الإلهية » في خلق هذا الإنسان ، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إني جَاعِلٌ في الأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ؟ ونحنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لكَ ! ! قالَ : إني أَعْلَمُ ما لا تَعلمونَ ﴾ .

قال العلامة (القرطبي) في تفسيره الجامع لأحكام القرآن :

« قد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم إلا ما علمها الله ، ولا تسبق بالقول ، لأن قوله تعالى : ﴿ لا يسبقونه بالقول ﴾ خرَج على جهة المدح لهم فكيف قالوا ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾؟ والجواب : أن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء ، وذلك لأنّ الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء ، فبعث الله إليهم في جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورؤوس الجبال فجاء قولهم « أتجعل فيها » ؟ على جهة الاستفهام المحض ، هل هذا الخليفة على طريقة من تقدّم من الجنّ أم لا ؟ وقيل : إن

الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء ، فقالوا لذلك هذه المقالة ، إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه ؟ أو التعجب من عصيان من يستخلفه الله في أرضه .. انتهى كلام القرطبي بتصرف ..

وعلى هذا ينبغي أن نفهم أن سؤال الملائكة لم يكن اعتراضاً على خلق الله أو على مشيئته وإرادته وإنما كان بغرض الاستفسار عن الحكمة لأن الملائكة لا يعصون أمر الله ولا يمكن أن يتصور منهم المخالفة والإباء .

الأدلة على أن آدم أول البشر :

لقد جاءت النصوص القرآنية مؤيدة أن « آدم » عليه السلام هو أول المخلوقات ، وأنه لم يكن قبله أحد من هذا النوع البشري .. وكذلك الكتب السماوية كلها قد أجمعت على هذا ، وبذلك تضافرت الأخبار عن جميع أهل الملل والأديان بأنّ « آدم » أبو الخليقة ، وأنه أول مخلوق من البشر على الاطلاق أما الأدلة في القرآن الكريم فكثيرة نكتفي بذكر بعضها وهي كما يلي :

أولاً : تكرّر النداء للبشر بنسبتهم إلى أبيهم « آدم عليه السلام » مثل قوله تعالى :

﴿ يا بني آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كما أخْرَجَ أبَوَيْكُمْ مِنَ الجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لباسَهُما .. ﴾ الآية .

﴿ يا بَني آدَمَ قَدْ أنْزَلنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُواري سَوْآتِكُم وريشاً ، وَلِباسُ التَّقْوى ذلكَ خَيْرٌ .... ﴾ الآية .

﴿ يا بَني آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا ، إنَّهُ لا يُحِبّ المُسْرِفين﴾ .. الآية .

ثانياً : أخبر الله سبحانه وتعالى بأنّ البشر جميعاً هم من « أصل » واحد

﴿يا أيها النّاسُ اتّقوا رَبَّكُمُ الّذي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ، وخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وبَثّ مِنْهُما رِجَالاً كَثيراً ونِساءً .. ﴾ الآية.

وقال تعالى ﴿خلقكم من نفسٍ واحدة ، ثم جعل منها زوجها ..﴾ الآية . وليس المراد من النفس الواحدة إلا « آدم » كما أن المراد من قوله (زوجها) ليس إلا (حواء) لأنهما أصل الخليقة ، وقد بينت الآية الكريمة أن الله قد بثّ أي نشر وخلق منهما الرجال والنساء . الكثيرين فمنهما توالد البشر وتناسلوا وكثروا ، ثم تفرقوا في الأرض ..

ثالثاً : ذكر الله تعالى أن كل مخلوق خلق من « أبوين » بطريق التزاوج إلا (آدم) فقد خلقه الله بيده من طين ، ثم نفخ فيه من روحه ، فآدم لم يخلق من أبوين إنما جاء نموذجاً فرداً كما قال تعالى ﴿إذْ قالَ رَبّكَ للمَلائكَةِ إني خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ . فإذا سَوّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِين﴾ وقال تعالى في قصة امتناع إبليس عن السجود : ﴿قالَ يا إبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أنْ تَسْجُدَ لما خَلَقْتُ بِيَدَيّ ، أَسْتَكْبَرْتَ أمْ كُنْتَ مِنْ العَالين ؟﴾ وقال تعالى ﴿ الذي أحْسَنَ كُلّ شيءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأ خَلْقَ الإنْسانِ مِنْ طِينٍ . ثُمّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ ﴾. السُلالة : من السّل وهو استخراج الشيء من الشيء ؛ يقال: سللت الشعر من العجين ، فالنطفة سلالة لأنها تستل من الظهر « أفاده القرطبي »

رابعاً : التصريح بذكر « آدم » وأنه أبو البشر وذلك كما في حديث (الشفاعة) المروي في الصحيحين وفيه أن الناس يلتمسون من يشفع لهم من هول يوم الزحام فيذهبون إلى آدم يسألونه الشفاعة فيقولون له : (يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك جنته ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا تشفع لنا عند ربك ؟ فيقول : نفسي نفسي إذهبوا إلى غيري ..) الحديث .

هل نظرية (داروين) تعارض القرآن ؟

ومن هذه النصوص الكريمة التي ذكرناها — من الكتاب والسنة — يتبين لنا بجلاء ووضوح بطلان نظرية (داروين) التي تجعل أصل البشر ليس هو « آدم » وإنما تفرّع الناس على زعمه .. من سلالات أخرى ، وانحدروا من

أصل آخر يختلف عن أصل آدم .. إنه يعتقد بأنّ الإنسان بدأت حياته بجرثومة صغيرة ، ظهرت على سطح الماء ثم تحولت إلى حيوان صغير ، ثم تدرّج هذا الحيوان فأصبح ضفدعاً ، فسمكة ، فقرداً ، ثم ترقّى هذا القرد وتمدّن فصار إنساناً . فالإنسان في نظره قرد متمدّن ، وقد استطاع ذلك القرد بعبقريته ونبوغه أن يتطوّر ويتغير فيصبح انساناً ذكياً بعد أن كان قرداً غبيّاً .. وهكذا جعل (داروين) نسبنا متصلاً بالحيوان وعشيرتنا منحدرة من الضفادع والفئران ، وجدنا هو (الشمبانزي)لأنه أقرب القردة شبهاً بالإنسان..هذه هي خلاصة نظرية (داروين) التي تسمى (نظرية النشوء والتطوّر) وهي تناقض صريح القرآن ، وتعارض جميع ما جاءت به الكتب السماوية من أنّ آدم عليه السلام هو أبو البشر ، ومنه تناسل جميع الخلق ، وأنه هو الأب الأكبر . ولعلّ هذه النظرية الخرقاء تنطبق على (داروين) نفسه . وأتباعه المقتنعين بفكرته المؤمنين بنظريته ، المتحمسين لها ، فهم — وحدهم — القردة ، أما بقية البشر فمن آدم انحدروا ، وإليه ينتسبون .. وهل هناك انسان عاقل يرضى أن يكون من فصيلة (الغوريلا) و (الشمبانزي) وسائر أنواع القردة ، ويتبرأ من نسبه إلى آدم عليه السلام ؟! اللهم إلا أن يكون (داروني) أحمق سفيه الرأي والعقل ، فاقد الإدارك والشعور ثم كيف يكون الأصل البشري منحدراً من القردة والله تبارك وتعالى قد كرّم هذا النوع البشري فقال وهو أصدق القائلين :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ والبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ . ويقول جلّ ثناؤه ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ فهل من تكريم الله لبني آدم أن يجعلهم من صنف القردة ؟ وهل من تفضيله إيّاهم أن يلحق نسبهم بالقردة أو يجعلهم من فصيلة الشمبانزي والغوريلا؟ وإذا قلنا لأتباع داروين : يا بني القردة والخنازير ، فهل سيرضون عنا أم سيغضبون ؟؟

(ربّ إنّ الهـدى هـداك وآياتك حق تهدي بها من تشاء)

وإذا كانت نظرية (التطوّر) صحيحة ، فلماذا لم يتطور سائر القردة ويتمدنوا ونحن نعيش في عصر التطور والتمدن ؟!

خطأ نظرية داروين من الناحية العلمية :

لقد نسف الدكتور (حليم عطية) مذهب (داروين) وأبطل نظرية (النشوء والتطور) في كتابه الرائع الذي ألّفه تحت عنوان (تصدّع مذهب داروين ، والإثبات العلمي لعقيدة الخلق) ونحن ننقل بعض فقرات منه ، تذكرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

قال في كتابه المذكور : (كيف يمكن لمخلوق ضعيف الجسم ، وضعيف العقل أن يعيش وحوله الأسد والفيل . والدب والنمر ، وغيرها من الحيوانات المفترسة ؟ ولو حدث شيء من التطور والارتقاء — حسب ما يدّعي داروين — للزم أن تتطوّر القردة الموجودة في زماننا ، وترقّى كما ترقّى أسلافها من قبل ، وكما تمدّنوا فأصبحوا بشراً بعد أن كانوا قردة ؟ وعلى زعم داروين هل يمكن أن يصير البرغوث (فيلاً) وأن تنقلب النملة (نعجة) ويصبح الهر (أسداً) بمرّ القرون وكرّ الدهور ؟!

الغرض الحقيقي من نظرية داروين :

بقي أن نعرف أن هذه النظرية « الخرقاء » عميقة الجذور ، فهي تهدف إلى غرض معيّن هو (انكار وجود الخالق جلّ وعلا) . فإن (داروين) اليهودي الخبيث يعتقد بألاّ خالق لهذا الوجود ، ولا صانع لهذا العالم ، وأن (الطبيعة) هي التي أوجدت هذا العالم ، وخلقت هذا الإنسان ، فهو إذاً دهري ملحد ، متنكر للأديان السماوية ، ولليهودية التي ينتمي إليها ، كافر بكل القيم الروحية التي جاءت بها الشرائع السماوية .. ولا عجب أن يأتينا بمثل هذا الهراء والافتراء ، فتلك هي طبيعة اليهود في القديم والحديث ، فكل دعوة للإلحاد أو للإفساد نجد وراءها يداً يهودية خبيثة ، كما أن (كارل ماركس) مؤسس

المبدأ الشيوعي يهودي الأصل ، وكذلك (فرويد) الإباحي الفاجر يهودي العرق والدم .. وكل هؤلاء الخبثاء هم من تلامذة « إبليس » ومن أعوان « الدجال » يتعاونون لهدم الشرائع والأديان ، ويعملون ليل نهار لبذر بذور الإباحية والإلحاد وصدق الله حيث قال ﴿ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين﴾ .

انخداع بعض المثقفين بهذه النظرية :

ولعل بعض المثقفين ، ممن لم يتمكنوا من العلم ، ولم يحصلوا منه إلا على قشور لا تسمن ولا تغني من جوع ، يعتقدون بصحة هذه النظرية العجفاء ، وينخدعون ببريقها الفلسفي ويعتبرونها نظرية مسلّمة لا تحتاج إلى نقاش أوجدال لأنها نظرية مشهورة !!

ونحن نسارع القول إلى هؤلاء بأن هذه النظرية هي مجرد (افتراضيات) و (أوهام) وانها لم تصل إلى الدرجة العلمية المقطوع بصحتها ، وشهرة هذه النظرية لا تجعلها نظرية صحيحة مقبولة في منطق العلم والعقل ، و « إبليس » اللعين له شهرة عظيمة ، فهل معنى هذا أنه على سداد وصواب . ونقول لهؤلاء « المفتونين » بالآراء الغربية : إن كثيرين من علماء الغرب أنفسهم قد استسخفوا هذه النظرية ، وأبطلوها بالحجج الدامغة ، والبراهين القاطعة ، ومن أظهر ما أُلّف للرد على هذه النظرية السفسطائية كتاب « العلم يدعو للإيمان » لمؤلفه الكبير (كريس موريسون) رئيس المجمع العلمي في امريكا . وكتاب « الله يتجلّى في عصر العلم » المترجم إلى اللغة العربية . وهو بأقلام مجموعة من كبار علماء الطبيعة من الأساتذة المختصين ، وكلا الكتابين يهدف إلى اثبات وجود المدبّر الصانع الحكيم ، ويردّ على القائلين بنظرية التطور أو القائلين بأنّ «الطبيعة» هي التي أوجدت هذا الكون ، وهذه الحياة . كما ظهر كتاب جديد تحت عنوان (الإسلام ونظرية داروين) لمؤلفه الاستاذ الفاضل والكاتب البارع السيد (محمد أحمد باشميل) يستحسن الرجوع إليه في هذا الموضوع فإنه قد جمع فأوعى ، وأتى بأراء كثيرة لكبار العلماء الغربيين في نقض هذه النظرية الفاسدة .

ونقول من جهة أخرى : إننا نحن المسلمين نعتقد بأنّ كل ما خالف القرآن الكريم المقطوع بصحته وصدقه ، فإنه باطل مردود على قائله ، لا يمكن أن يقبله مسلم مهما كان حال قائله ومهما بلغ من الرقي والعلم ، فكيف بهذه النظرية الخرقاء التي لا تستند على دليل أو برهان ؟!

رأي وجيه للأستاذ النجار :

ويستحسن أن ننقل هنا رأياً وجيهاً للأستاذ عبد الوهاب النجّار في كتابه (قصص الأنبياء) فقد نقل فيه عن بعض علماء الألمان رأياً على نقيض رأي (داروين) تماماً خلاصته : أن القرد إنسان متقهقر ، وليس الإنسان قرداً مترقياً ثم قال : وعلى الجملة فما دام الأمر نظرية مطروحة على مشرحة البحث والتنقيب فإنها لا تكون حجة لأحد أبداً .

ثم قال : (هبوا أن الطبيعة قد غضبت على هذه الأرض فهزتها هزاً عنيفاً بغير شفقة وزلزلتها زلزالاً شديداً ، فدكّت فيها كل بناء شامخ ، وانهار فيها كل صرح باذخ ، وألحقت القصور بالأكواخ ، وأزالت معالم الدنيا ودورها ومصانعها وقصورها ، وعادت الأرض كما كانت قبل أن يسكنها هذا الجيل من بني الإنسان ، فهل يتصور أن الغوريلا ، والشمبانزي وسائر الفصيلة القردية تهبّ لعمران الأرض كما عمرها الإنسان ، ويكون فيها المصلحون الدينيون والمخترعون والمبتدعون ، ويقوم فيها أمثال « سقراط » و « أفلاطون » ويقوم بينهم العلماء فيرسمون الكرة الأرضية ، ويخترعون الآلات الهندسية ، ويأتون بالعجائب فيوجدون الراديو والتلفزيون ، والطائرات والغواصات . إنني كلما فكرت في ذلك جزمت بأن ذلك محال ، وقطعت بأن (القرد) سيبقى قرداً على مدى الدهر ، وأن القردة لا تلد إلا قردة [1] .

(١) قصص القرآن للنجار .

المراحل التي مرّ بها خلق آدم :

أولاً : (المرحلة الترابية) : لقد كان أساس تكوين آدم عليه السلام ، ومصدر نشأته إنما هو التراب ، فحين تعلّقت إرادة الله جل جلاله في خلق آدم أمر الملائكة أن يجمعوا تراباً من أنحاء الأرض ، ومن ألوان التربة العديدة ، فجمعوا فكان هذا التراب هو الأساس في تكوين آدم عليه السلام ، ومما يدل عليه قوله تعالى ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ وجاء في الحديث الصحيح : (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأبيض والأحمر ، والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن وبين ذلك) .

ثانياً : (المرحلة الطينية) : أخذ هذا التراب ثم جبل بالماء فأصبح طيناً لازباً (أي متماسكاً) يلتصق بعضه ببعض ، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب﴾ . ثم بقي آدم مدة طويلة من الزمن في الصورة الطينية تقدّر بـ ٤٠ أربعين عاماً حتى جفّ ويبس فأصبح له صوت يشبه الفخّار إذا نقر باليد وهو المراد من لفظ (الصلصال) كما قال تعالى : ﴿ خلقَ الإنسان من صلصال كالفخّار ، وخلق الجانّ من مارج من نار﴾ .

ثالثاً : (المرحلة التكوينية) : ثم توجهت إرادة العلي الكبير لجعل هذا الطين بشراً سوياً ، وإنساناً سميعاً بصيراً ، فنفخ فيه من روحه ، فإذا هو إنسان كريم وخلق عظيم في أحسن صورة وأكمل تقويم ، وهذه المرحلة هي آخر المراحل في خلق آدم عليه السلام ، وهي التي تسمى المرحلة التكوينية ، وقد وردت بعض الآثار تدل على أن آدم بقي في المرحلة التكوينية أي قبل نفخ الروح مدة طويلة تقدر بأربعين ٤٠ سنة ولعل الآية الكريمة في سورة الدهر تشير إلى هذه المدة التي بقي فيها آدم وهي قوله تعالى ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾. والمراد بالإنسان هنا إنما هو « آدم » عليه السلام .

ذرية آدم : أما ذرية آدم وبقية البشر فقد كان خلقهم عن طريق التناسل

والتزاوج ، وقد مروا بأدوار في الخلق تختلف عن الأدوار التي مرّ بها آدم ، وهي : النطفة ، العلقة ، المضغة ثم مرحلة نفخ الروح ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة﴾

سجود الملائكة لآدم عليه السلام :

بعد أن نفخ الله تبارك وتعالى الروح في آدم ، أمر الملائكة بالسجود له ، وكان ذلك السجود سجود (تحية وتكريم) لا سجود (عبادة) لأن الله سبحانه وتعالى لا يأمر أحداً بالتوجه بالعبادة إلى سواه ، ويرى بعض المفسّرين أن السجود إنما كان في حقيقته لله عز وجل ولم يكن لآدم ، وإنما كان آدم (كالقبلة) بالنسبة للمصلي ، فالمصلي يتوجه إلى القبلة وصلاته وسجوده لله رب العالمين ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لآدم حيث جعله الله (قبلة) للملائكة الأطهار .

ولقد كان ذلك الأمر الإلهي احتفالاً بتمام (تكوين آدم) وفي هذا إظهار لعلو شأنه ، كما أن فيه تكريماً لهذا النوع البشري حيث أسجد الملائكة لأبيهم آدم عليه السلام وقد خصّ الله آدم بأربعة مزايا ، هي آية الفضل وعنوان الشرف الرفيع وهي :

أولاً : خلقه الله بيده .

ثانياً : نفخ فيه من روحه .

ثالثاً : أمر الملائكة بالسجود له .

رابعاً : علّمه أسماء كل الأشياء .

قال تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ . وجاء في الحديث الشريف ما يؤيد هذه المزايا والأوصاف الجليلة في قصة (موسى مع آدم) حين قال له : (يا آدم أنت أبو البشر ، الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلّمك أسماء كل شيء ، ما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنّة ..) الحديث . ولما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم سجدوا جميعاً امتثالاً لأمر الله

إلا (إبليس) فقد امتنع عن السجود واستكبر وكان من الكافرين ، وادّعى أنه أفضل من آدم وأشرف منه فكيف يسجد الفاضل للمفضول ؟ وقال قولته الخبيثة﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾.

هل إبليس من الملائكة :

ظاهر النصوص الكريمة يشير إلى أن « إبليس » كان من الملائكة بدليل الاستثناء في قوله تعالى (فسجدوا إلا إبليس) وإلى هذا الرأي ذهب بعض العلماء وقالوا : إنه لو لم يكن (إبليس) من الملائكة لما كلف بالسجود لآدم ، وحجتهم في ذلك « الاستثناء » المذكور في الآية الكريمة . وذهب المحققون من العلماء إلى أن « إبليس » لم يكن من الملائكة ، واستدلوا ببضعة أدلة نوجزها فيمايلي:

أولاً : لو كان (إبليس) من الملائكة لما عصى أمر الله ، لأن الملائكة لا يعصون أمر الله كما ورد في القرآن : ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ .

ثانياً : الملائكة من نور ، وإبليس من نار ، وهو يقول عن نفسه بصريح عبارة القرآن : ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾فلو كان من الملائكة لقال خلقتني من نور وخلقته من طين . وفي الحديث الصحيح (خُلِق الملائكة من نور ، وخلقت الجانّ من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم) .

ثالثاً : ورد نص صريح في سورة الكهف يدل على أن « إبليس » كان من الجنّ وأنه امتنع عن السجود لآدم لفسقه وضلاله ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ..﴾ الآية .

وتأويل بعض المفسّرين أن لفظ (الجنّ) هنا يراد به طائفة من الملائكة يسمون الجن تأويل بعيد ، والذي تطمئن إليه النفس ، ويرتاح له الوجدان ، أن إبليس اللعين لم يكن من الملائكة وإنما كان من الجن والشياطين، وذلك لأن

الملائكة لا تتناكح ولا تتناسل ، والله تعالى قد أخبر عن إبليس بأنّ له ذرية فقال ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾ ولو كان من الملائكة لما كان له ذرية ونسل ، وقد قال (الحسن البصري) رحمه الله :

« لم يكن إبليس من الملائكة طرف عين ، وإنما هو من الجن » . وقد ذكر (ابن كثير) في كتابه (البداية والنهاية) عن بعض العلماء أنه قال : (كان إبليس من الجن فلما أفسدوا في الأرض بعث الله إليهم جنداً من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار ، وكان إبليس ممن أُسر فأخذته الملائكة إلى السماء فكان هناك ، فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس منه فطرده الله من رحمته) . والله تعالى أعلم .

خلق حواء :

بعد أن خلق الله تعالى آدم أسكنه الجنة فكان يمشي فيها وحيداً فريداً ليس معه زوج ولا أنيس ، فنام نومة ثم استيقظ فإذا عند رأسه امرأة خلقها الله له لتسكن إليها نفسه تسمّى (حواء) وسميت بهذا الاسم لأنها خلقت من حيّ ، ويروى عن ابن عباس أنها خلقت من أحد أضلاع آدم وهو نائم دون أن يحس بألم واستدل بقوله تعالى ﴿ خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ..﴾ الآية والله تعالى أعلم هل كان خلقها استقلالاً أم بواسطة آدم . وتدل ظواهر الآيات الكريمة على أن الجنة التي أسكن فيها (آدم وحواء) عليهما السلام هي جنة الخلد التي في السماء ، وهذا رأي الجمهور من علماء أهل السنة ، وذهب المعتزلة والقدرية إلى أن الجنة ليست جنة الخلد وإنما هي جنّة في الأرض وهي (أرض عدن) وشبهتهم أنها لو كانت جنة الخلد لما وصل إليها إبليس ، ولما وقعت فيها معصية آدم لأنها جنة القدس .

أدلة الجمهور على أن الجنة هي جنة الخلد :

استدل الجمهور على أن الجنة التي كان فيها آدم وحواء عليهما السلام هي

جنة الخلد ببضعة أدلة أهمها :

ا ــ أن الله سبحانه قد عرّف الجنة فقال ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ وأل التعريف للمعهود في الذهن وهي جنة الخلد .

ب ــ أمره تعالى بهبوط آدم يدل على أنها في السماء لأن الهبوط يدل على العلو والارتفاع ﴿ وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو .. ﴾

حـ ــ وصف الله تعالى الجنة بأوصاف تدل على أنها جنة الخلد ﴿ إنّ لك ألاّ تجوعَ فيها ولا تَعرى وأنك لا تظمأ ولا تضحى﴾ .

د ــ ما ورد في حديث الشفاعة أن الناس يأتون آدم فيقولون : (يا أبانا استفنح لنا الجنة فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم..) الحديث.

وباختصار فقد حكى (القرطبي) في تفسيره أن أهل السنة مجمعون على أنّ جنة الخلد هي التي أهبط منها آدم عليه السلام .

تغرير إبليس بآدم عليه السلام :

وبعد أن سكن آدم وحواء الجنة أباح الله تبارك وتعالى لهما جميع أشجارها وثمارها إلا شجرة واحدة نهاهما عنها ابتلاءً منه جلّ وعلا ، ولم يذكر القرآن الكريم هذه الشجرة ما هي أو ما اسمها؟ فلا حاجة إلى الخوض فيها بغير بيّنة ولا برهان قال (ابن كثير) : (وقد أبهم الله ذكر الشجرة وتعيينها ، ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا) « انظر البداية والنهاية » .

وقد حذّر الله تعالى آدم وحواء من كيد إبليس اللعين ، ولكنهما نسيا ذلك سيّما بعد أن أقسم لهما إبليس الأيْمان المغلّظة بأنه ناصح لهما ، وأنهما إذا أكلا من هذه الشجرة فسيخلّدان في الجنة وقال ﴿ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملَكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾ فلما أكلا منها بدت لهما سوآتهما (عوراتهما) ثمّ أُهبطا إلى الأرض بسبب المخالفة وقد قال بعض المفسّرين : إن آدم أكل من الشجرة متأولاً ، اعتقاداً منه أن الله تعالى نهاه عن شجرة بعينها فأكل من جنسها غير تلك الشجرة ،

والصحيح أنه أكل من الشجرة ناسياً الوعيد الإلهي ويدل عليه قوله تعالى﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً ﴾« انظر القرطبي » .

قصة قابيل وهابيل ابني آدم :

ذكر المؤرخون وأهل العلم أن آدم عليه السلام رزق من حواء أولاداً كثيرين وأنها وضعت له عشرين بطناً في كل بطن (ذكر وانثى) فكان آدم يزوج كل ذكر من بطن بالأنثى من البطن الأخرى ، ولا يزوج الذكر بالأنثى من بطن واحدة فأراد (هابيل) أن يتزوج بأخت (قابيل) وكانت أخت قابيل أحسن فأراد (قابيل) ان يستأثر بها على أخيه ، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إيّاها فأبى وقال : أنا أحق بأختي ، فأمرهما أن يقرّبا قرباناً فمن تقبّل قربانه أخذ تلك الأخت ، فقرّب (هابيل) جذعة سمينة — وكان صاحب غنم — فقدّم أجود ما عنده ، وقدّم (قابيل) حزمة من زرع رديء — وكان صاحب زرع — فقدّم أسوأ ما عنده ، فنزلت نار فأكلت قربان (هابيل) وتركت قربان(قابيل) فغضب عند ذلك قابيل وقال : لأقتلنك حتى لا تنكح أختي ، فقال له (هابيل) إنما يتقبل الله من المتقين .. وكانت نهاية القصة أن أقدم قابيل على قتل أخيه هابيل فقتله فأصبح من الخاسرين قال تعالى﴿واتل عليهم نبأ ابنَيْ آدم بالحق إذ قرّبا قرباناً فَتُقُبِّلَ من أحدهما ولم يُتقبل من الآخر ،قال : لأقتلنك ؟ قال : إنما يتَقَبَّلُ الله من المتقين.لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين .. ﴾الخ . وجاء في الحديث الشريف (لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سنّ القتل) .

الحكمة من استخلاف آدم في الأرض :

ولاستخلاف آدم في الأرض حكمة جليلة أشارت إليها الآيات الكريمة في قصة خلق آدم عليه السلام .. هذه الحكمة ترمز إلى علم الله الواسع ، وإرادته الأزلية الحكيمة ، في عمارة الأرض بذرية آدم وبنيه ، فلو لم يخلق الله تعالى

هذه المخلوقات لما عمرت الأرض ، ولما كانت هناك شعوب وأمم ، وخلائق وأجيال ، وهذا ما غاب عن علم الملائكة الأطهار ، ولم يُدركوا حكمته الدقيقة حتى جلا الله تعالى لهم الأمر وأطلعهم على الأسرار في استخلاف هذا المخلوق الجديد ، ذي الشأن العجيب ، قال تعالى :

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ .

يقول الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء :

« ولا يخفى أن استخلاف آدم في الأرض ، يشتمل على معنى سامٍ من الحكمة الإلهية ، التي خفيت عن الملائكة .. فإن الله تعالى لو استخلف الملائكة في الأرض ، لما عرفت أسرار هذا الكون ، وما أودع فيه من الخواص والعلوم الغزيرة ، فإن الملائكة ليسوا بحاجة إلى شيء مما في الأرض ، إذ هم على وصف يخالف وصف الإنسان ، فما كانت السفن لتصنع ، ولا الأرض لتزرع ، ولا تعرف خواص الأشياء والمركبات الكيماوية ، ولا الفوائد الطبيعية ولاالفلكية ولا المستحدثات الطبّية ، ولا الطبائع النفسية ، ولا شيء من هذه العلوم الكثيرة التي تفني السنون ولا يدرك الإنسان لعلمٍ منها نهاية .. فسبحانه وتعالى من عزيز حكيم (١) .

هل آدم من الأنبياء ؟ :

من المقطوع به أنّ « آدم » عليه السلام من الأنبياء ، وهو رأي جمهور العلماء لم يخالف فيه أحد ، وإنما الخلاف هل هو رسول أم لا ؟ ولمن أرسل ؟

أما الأدلة على نبوته فقد وردت في الكتاب والسنة .. ولكنها في القرآن الكريم لم تكن صريحةً ، فلم يذكر لفظ النبوة بإزاء آدم كما ذكر ذلك بإزاء غيره من الأنبياء الكرام كإبراهيم ، وإسماعيل ، وموسى ، وعيسى ، وغيرهم

(١) انظر كتاب قصص الأنبياء ص ٦ .

من الأنبياء ، ولكن ذكر أنه خاطبه بلا واسطة ، وشرع له في ذلك الخطاب ، فأمره ونهاه ، وأحلّ له وحرّم عليه بدون أن يرسل إليه رسولاً ، وهذا هو معنى النبوة كما أسلفنا .

وأمّا رسالته فالأمر فيها مختلف فيه ، فيرى بعض العلماء أنه رسول وأنه أرسل إلى ذريته ، ويرى الآخرون أنه لم يكن رسولاً وإنما كان نبياً ، ويستدل هؤلاء بحديث الشفاعة الوارد في صحيح مسلم أن الناس يذهبون إلى نوح ويقولون له : أنت أول رسل الله إلى الأرض ، فلو كان آدم رسولاً لما ساغ هذا القول ، والقائلون برسالة آدم يؤولون ذلك بأنه أول رسول بعد الطوفان ، والله أعلم بحقيقة الأمر ، والرأي الأرجح أنه من الرسل . أما الأدلة على نبوته فهي :

أولاً ـ قوله تعالى :

﴿ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ وظاهر من الآية أن المراد الاصطفاء بالنبوة والرسالة .

ثانياً ـ قوله تعالى : ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً ، فإمّا يأتينّكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ . ففي هذه الآية وعد من الله تعالى بالهدى ، وإشعار بالرسالة .

ثالثاً ـ قوله تعالى : ﴿ ثمّ اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ .

والظاهر أن اجتباء الله له وتوبة الله عليه ، إنما هو اصطفاء الله إياه بالنبوة والرسالة . وقد ورد في السنة النبوية ما يدل على نبوته صراحة وذلك في حديثين :

الأول : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر) . « رواه الترمذي » .

الثاني : عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله أي الأنبياء كان أول ؟ قال : آدم ، قلت يا رسول الله ونبيّ كان ؟ قال : نعم نبي مكلّم ، قلت يا رسول الله : كم المرسلون ؟ قال : ثلاثمائة وبضعة

عشر جماً غفيراً) « رواه أحمد » .

لهذه الأدلة نرى علماء المسلمين متفقين على نبوته لم يخالف في ذلك أحد والله تعالى أعلم .

شبهة حول نبوّة آدم :

وقد يقال : إذا كان آدم من الأنبياء فكيف عصى أمر الله ، والأنبياء معصومون عن المعصية ؟ والجواب أنّ هذا البحث قد تقدّم معنا مفصلاً في باب (عصمة الأنبياء) ونحن نوجزه الآن في كلمات :

أولاً : إن ذلك حصل نسياناً منه ، لا قصداً وعمداً بدليل قوله تعالى : ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً ﴾وهذا ما اختاره القرطبي .

ثانياً : إن آدم عليه السلام قد تأول في أكله من الشجرة ، لأنه ظنّ أن المراد من قوله تعالى : ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ عين تلك الشجرة فأكل من شجرة أخرى من جنسها فوقع في المخالفة .

ثالثاً : أن أكله من الشجرة كان قبل النبوة المستلزمة للعصمة من المعصية ، فلم يكن نبياً حين أكل منها بدليل قوله تعالى﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾

ما الفرق بين الملائكة والجن ؟

يعرف علماء التوحيد الملائكة بما يلي :

الملائكة : أجسام نورانية لطيفة ، قادرة على التمثل والتشكل بأية صورة أرادوا ، لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ، وأنهم مجبولون على العبادة والطاعة ﴿لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ وأنهم لا يتناسلون ولا يتناكحون ولهم قدرة خارقة ، ولا تحكم عليهم الصورة .

وأما الجن : فهم أجسام نارية سفلية ، مخلوقون من مارج من نار (أي من أخلاط نار صافية) وأنهم قادرون على التشكل بأية صورة أرادوا ، وأنهم

يتناسلون ولهم ذرية . وفيهم الذكر والأنثى ، وهم مكلفون كالبشر ، وفيهم المؤمن والكافر ، وأنّ الصورة تحكم عليهم .

ومن هذا التعريف يتضح لنا بجلاء أن بين خلق الملائكة وبين خلق الجنّ تفاوتاً واضحاً ، وتبايناً ظاهراً في أصل الجبلّة والخلقة .

فالملائكة مخلوقون من نور ، والجنّ مخلوقون من نار ، يدل لذلك قول النبي ﷺ (خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارجٍ من نار ، وخلق آدم ممّا وصف لكم) « رواه مسلم » وقوله تعالى :﴿ والجانَّ خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ .

والملائكة ليس لهم نسل ولا ذرية ، بخلاف الجن فإنهم يتناسلون ويتناكحون ولهم ذرية كما قال تعالى عن إبليس :﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلاً ﴾. فالملائكة يخلقهم الله تعالى خلقاً جديداً مبتدءاً لأنه ليس فيهم ذكر أو انثى حتى يحصل التناسل ، أمّا الجن ففيهم الذكر والأنثى ويقع بينهم التناكح والتناسل كما هو الحال بين البشر .

والملائكة قادرون على (التمثل) بأمثال الأشياء ، و (التشكل) بالأشكال الجسمانية المحسوسة ، فقد ثبت ذلك في النصوص العديدة من الكتاب والسنّة ، قال تعالى عن جبريل عليه السلام﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويّاً ﴾.

وقال تعالى عن ضيوف ابراهيم من الملائكة الأبرار :

﴿هل أتاك حديثُ ضيفِ إبراهيمَ المُكرمينَ . إذْ دخلوا عليهِ فقالوا سلاماً ، قالَ سلامٌ قومٌ منكرون ﴾فقد دخلوا عليه في صورة رجال ، وحين قدّم لهم الطعام امتنعوا عن الأكل ، فأوجس منهم خيفة فأخبروه أنهم ليسوا بشراً ، إنما هم ملائكة أرسلهم الله لإهلاك المكذبين من قوم لوط .

وحين قدم الملائكة على نبي الله (لوط) عليه السلام جاءوه على صورة شبابٍ مردٍ حسان ، ممّا جعل السفهاء يطمعون بفعل الفاحشة بهم ، حيث جاءوا يتسابقون إلى لوط عليه السلام كما قال تعالى﴿ وجاءه قومُه يُهرَعون إليهِ ،

ومن قبلُ كانوا يعمَلونَ السيئاتِ ، قالَ : يا قومِ هؤلاءِ بناتي هُنّ أطهرُ لَكمْ ، فاتقوا اللهَ ولا تُخزونَ في ضيفي أليسَ منكمْ رجلٌ رشيدٌ ؟ ﴾ فالملائكة إذاً قادرون على التصور والتشكل بأي صورة شاءوا ، وقد ثبت في الصحيحين عن عمر رضي الله عنه أنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثوب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، فسأل رسول الله ﷺ عن الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ، وعن الساعة فأجابه الرسول عنها بالتفصيل ، وأخيراً سأل الرسول أصحابه : أتدرون من السائل ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

والجن أيضاً قادرون على التمثل والتشكل بأي صورة شاءوا ، فقد اجتمعوا برسول الله ﷺ في صورة نفر من الرجال ، وسمعوا القرآن ، ثم رجعوا إلى قومهم منذرين ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن .. ﴾ الآية .

فهم يشبهون الملائكة من هذه الناحية ، وهي قدرة (التمثل والتشكل) بأي صورة شاءوا .. ولكنهم يختلفون عن الملائكة في أنهم تحكم عليهم الصورة بينما الملائكة لا تحكم عليهم الصورة ، بمعنى أن الجنيّ لو تصور وتشكّل في صورة إنسان أو طير ، وصوّب انسان سهماً نحوه فإن الجنيّ يموت كما لو قتله انسان بسيف أو رمح ، فيجري عليه حكم الصورة ، بخلاف الملك فإنه لو تصوّر بصورة ما فإن هذه الصوة لا تحكم عليه ، فلا يقتل الملك إذا ما سدّد انسان سهماً نحوه أو جني عليه بجناية . فلا يناله شيء من الأذى فيما لو تشكل بصورة إنسان أو غيره . ثمّ إن الملائكة يختلفون عن الجن في أنهم لا يأكلون ولا يشربون ، وليس فيهم نزوع إلى الشر ، وليس عندهم استعداد للمعصية ، بل خلقوا على الاستقامة ، وجبلوا على العبادة والطاعة كما قال تعالى ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ . وأما الجن ففيهم المؤمن والكافر ، والبرّ والفاجر ، فهم كالبشر في هذه الناحية كما قال تعالى عن إبليس ﴿ كان من الجنّ ففسق عن أمر ربه ﴾

وقال تعالى مخبراً عنهم في سورة الجن﴿ وأنا منّا المسلمون ، ومنّا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحرّوا رشداً . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ وهم مكلفون كسائر البشر بالتكاليف الشرعية قال تعالى :

﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون﴾ . ولهم رسل وأنبياء يبلغونهم أوامر الله ونواهيه كما قال تعالى ﴿يا معشرَ الإنسِ والجنّ ألمْ يأتِكُمْ رسلٌ منكمْ يقصّونَ عليكم آياتي وينذرونَكُمْ لقاءَ يومكم هذا ..﴾ الآية . فقوله تعالى (منكم) يدل على أنّ هناك رسلاً من الإنس ، ورسلاً من الجنّ ، وأمّا رسالة محمد ﷺ فهي لجميع الخلق انسهم وجنّهم كما قال تعالى :

﴿ تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ .

والجن مخلوقون قبل الإنس يدل لذلك قول الله تعالى :

﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم﴾ الحمأ : الطين الأسود المتغير . والمسنون : المصوّر . والسموم : الريح الحارة القاتلة. والجن يرون البشر بينما البشر لا يرونهم يدل لذلك قوله تعالى :

﴿ إنه يراكم هو وقَبيلهُ من حيثُ لا تَرونَهمْ ، إنّا جعلنا الشياطينَ أولياءَ للذين لا يؤمنون﴾ . ثمّ إن (الملائكة) يختلفون عن الجنّ في أنّ لهم قدرة عجيبة خارقة ، فهم يستطيعون أن يقتلعوا الجبال ، ويغوصوا البحار ، ويقلبوا الأرض بأهلها ، كما فعل الملائكة بقوم لوط (فجعلنا عاليها سافلها) وكما اقتلع جبريل عليه السلام جبل الطور ورفعه فوق بني اسرائيل كما قال تعالى ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ..﴾ الآية .

وللملائكة أجنحة ، فمنهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة أو أربعة أو أكثر كما قال تعالى :﴿ جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء ، إنّ الله على كل شيء قدير ﴾ .

وفي الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ رأى جبريل في صورته الحقيقية له ستمئة جناح قد سدّ الأفق .

الفرق بين الشياطين والجن :

والشياطين فرقة من الجن ، وهم المردة العصاة ، ورئيسهم إبليس اللعين عليه لعنة الله ، فكل متمرد من الجن يسمّى (شيطاناً) .. كما أنّ كل عاصٍ من الإنس يسمى (فاسقاً) وكل جاحد يسمّى (كافراً) فكل شيطان جني ، وليس كل جني شيطاناً ، قال تعالى (ويتبع كل شيطان مريد) والله الموفق .

العبرة من قصة آدم عليه السلام :

ونستخلص من قصة آدم أب البشر بعض العظات والعِبر وأهمها ما يلي :

أولاً : أن الله سبحانه وتعالى قد كرّم هذا النوع البشري حين خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة ، وجعله خليفة في الأرض وهذا تكريم لآدم وذريته .

ثانياً : أن الله تعالى قادر على كل شيء فقد يجعل من الأمر الحقير أمراً هاماً وعظيماً فقد خلق آدم من تراب ثم جعله بشراً سوياً ، وأفاض عليه من أسرار قدرته وبدائع حكمته ما جعله أهلاً للاستخلاف في الأرض ، كما علّمه أسماء كل الأشياء مما عجزت عنه الملائكة الأطهار .

ثالثاً : إنّ على الإنسان أن يحذر مكائد الشيطان فقد كان السبب في خروج أبينا آدم من الجنة وعداوته قديمة لنا منذ ظهور آدم ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً﴾ فلا ينبغي أن ننخدع بوساوس إبليس اللعين فهو حرب علينا إلى يوم الدين .

رابعاً : إن الإنسان مجبول على الخطأ معرّض للنسيان ، لأنه خلق من ضعف وما وقعت مخالفة آدم لأمر الله إلا بسبب ذلك الضعف البشري حيث استجاب لنداء اللعين إبليس ونسي أمر الله .

خامساً : على الإنسان ألا يقنط من رحمة الله ، ولا ييأس من عفوه فيما إذا وقع في خطيئة وحصلت منه سقطة أو ألمّ بذنب فقد علمنا الله كيف نتوب إليه ، وكيف نتخلص من الذنوب والآثام (فتلقّى آدمُ من ربّه كلماتٍ فتابَ

عليهِ إنّهُ هوَ التوّابُ الرّحيم﴾ .

وفاة آدم عليه السلام :

وفاة آدم عليه السلام : وقد عاش آدم على ما ورد في بعض الآثار ١٠٠٠ ألف عام ثم مات بعد ذلك ودفن على المشهور في الهند عند الجبل الذي أهبط فيه ، وقيل بجبل (أبي قبيس) بمكة المكرمة ، ولما حضرته الوفاة جاءته ملائكة من السماء بكفن وحنوط من الجنة وبعد أن غسلوه وكفنوه حفروا له وألحدوه، وصلوا عليه ثم أدخلوه قبره فوضعوه فيه ثم حثوا عليه التراب وقالوا : يا بني آدم هذه سنتكم .. رحم الله أبانا آدم وأسكنه فسيح جنته وجمعنا معه في دار الخلد آمين . والحمد لله رب العالمين .

الفَصْلُ السَّادِسُ

«اولو العزم من الرسل»

١ ـــ نوح عليه السلام .
٢ ـــ ابراهيم الخليل عليه السلام .
٣ ـــ موسى عليه السلام .
٤ ـــ عيسى بن مريم عليه السلام .
٥ ـــ محمد خاتم النبيين عليه السلام .

﴿ولقد أرْسلنا نوحاً إلى قومِهِ فلَبِثَ فيهمْ ألفَ سنةٍ إلاّ خمسينَ عاماً فأخذَهُمُ الطوفانُ وهمُ ظالمونَ﴾.

نسبه : هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ أي « ادريس ».فإدريس جده الأكبر . وينتهي نسبه إلى « شيث » عليه السلام ابن آدم أبي البشر ، وبينه وبين آدم ما يزيد على ألف عام ، ورواية التوراة تذكر أن بينهما (١٠٥٦) عاماً.

رواية البخاري : روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام) .

قال ابن كثير في (البداية والنهاية) ما نصه : فإن كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس فبينهما ألف سنة لا محالة ، لكن لا ينفي ان يكون أكثر باعتباره ما قيّد به ابن عباس من الإسلام . إذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام ، لكن حديث (أبي امامة) يدل على الحصر في عشرة قرون وزادنا ابن عباس أنهم كانوا كلهم على الإسلام، وحديث أبي أُمامة رواه (ابن حبان) في صحيحه وهو : ان رجلا قا ل يا رسول الله : أنبي كان آدم ؟ قال : نعم مكلّم ، قال : فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال : عشرة قرون . قال (ابن كثير) : وحديث ابن عباس يرد على من زعم من أهل التواريخ وغير هم من أهل الكتاب ان قابيل وبنيه عبدوا النار .

ذكر نوح في القرآن

ذُكرَ « نوح » عليه السلام في ثلاثة وأربعين موضعاً من القرآن الكريم .. وذكرت قصته مفصلة في القرآن في كثير من السور الكريمة ، منها : الأعراف وهود ، والمؤمنون ، والشعراء ، والقمر ، وذكرت له سورة خاصة تسمى (سورة نوح) وكلها تشير إلى بعثته ورسالته وطريق دعوته ، وإلى ما لاقاه من قومه من جحود وعصيان ، وإلى صبره الطويل على الايذاء ، وإلى العذاب الذي حلّ بالمكذبين وهو « الغرق » وإلى نجاة من آمن به على ما يأتي بيانه عند تفصيلي قصته عليه الصلاة والسلام .

نوح أول رسول إلى الأرض

يذكر المؤرخون أن نوحاً عليه السلام هو أول رسول بعثه الله سبحانه إلى أهل الأرض ، وقد أمره ربه ان ينذر قومه ويحذّرهم عذاب الله ، فكان نوح أوّل نذير وأوّل رسول كما قال سبحانه ﴿إنا أرسلْنا نوحاً إلى قومِهِ أنْ أنذِرْ قومَكَ منْ قَبلِ أنْ يأتِيَهمْ عذابٌ أليمٌ﴾ ، ويستدلّون على ذلك بالحديث المروي في الصحيحين وهو حديث الشفاعة ، وفيه أن النبي ﷺ قال :

(يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فينظرهم الناظر ،ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس ، فيبلغ الناسَ من الغمّ والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس ألا ترون ما أنتم عليه ، ألا تنظرون من يشفع لكم ؟ فيقول بعضهم لبعض : أبوكم آدم ، فيأتونه فيقولون يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فيقول آدم عليه السلام : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبلَه مثلَه ولن يغضبَ بعدَه مثلَه وانه نهاني عن الشجرة فعصيت ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح **فيأتون نوحاً عليه السلام فيقولون : يا نوح أنت أوّل الرسل إلى أهل الأرض** وقد سمّاك الله عبداً شكوراً ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ ألا

تشفع لنا إلى ربك عزّ وجل فيقول : ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، نفسي ، نفسي ، ... الخ الحديث) . متفق عليه .

وهذا الذي ذكروا من ان نوحاً عليه السلام هو أول الرسل إلى أهل الأرض هو الصحيح الذي عليه الأكثرون ولكن ليس معنى ذلك انه لم يسبقه بعثة أحد من الأنبياء قبله ، فشيث وأدريس وآدم أنبياء وكلهم قد بُعثوا قبله ولكنهم لم يكونوا رسلا فهو بهذا الاعتبار أوّل رسول وليس أوّل نبي ، ومعلوم أن هناك فرقاً بين النبوة والرسالة ، فالرسول هو الذي أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه ، وأما النبي فهو الذي أوحى إليه بشرع ولكن لم يؤمر بتبليغه ، والله أعلم .

المدة التي عاشها نوح

عاش نوح عليه السلام طويلاً وعمّر كثيراً. وكان أطول الأنبياء عمراً وأكثرهم جهاداً فقد تحمّل من الأذى ما لم يتحمله أحد من الرسل ، فدعا قومه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً وأقام فيهم (٩٥٠) تسعمائة وخمسين عاماً يذكّرهم ويعظهم ، ويدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ولكنه لم يلْقَ من قومه إلا كل تكذيب واضطهاد ، وصدود واعراض ، فقد كانت قلوبهم أشدّ من الحجارة ، وعقولهم أصلب من الحديد . ومع طول المدة التي أقامها بينهم لم يؤمن برسالته إلا قليل كما قال تعالى :﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾. وقد ذكر بعض المفسرين أن عدد الذين آمنوا معه كانوا عشرة وهم الذين ركبوا معه في السفينة ، وذكر آخرون أنهم كانوا أربعين ، والرواية الصحيحة التي وردت عن ابن عباس أنهم كانوا (٨٠) ثمانين نفساً معهم نساؤهم ، وهذا أكثر أقوال المفسرين للذين آمنوا معه وهم الذين نجوا من الغرق ، ومنه يظهر مدى المشقة التي نالها نوح عليه السلام في هذا الكفاح المرير ، والأهوال التي نالها في هذه الفترة الطويلة التي عاشها من عمره ، وهي سلسلة من حياة قاسية مليئة بالكفاح والنضال، والعذاب والبلاء لا يقدر على تحملها البشر إلا أولو الصبر من الأنبياء

ولهذا كان (نوح) عليه الصلاة والسلام من أولي العزم الذين ذكرهم الله في قوله لسيد الخلق ﷺ :﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ وأمره بالسير على نهجهم وهم خمسة (نوح ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد) صلوات الله عليهم أجمعين .

وقد ذكر بعض المؤرخين ان نوحاً عليه السلام لمابعثه الله إلى قومه كان عمره (٥٠) خمسين سنة ومكث في قومه تسعمائة وخمسين سنة ثم عاش بعد هلاك قومه (٣٥٠) ثلاثمائة وخمسين سنة فيكون عمره على ذلك ألفاً وثلثمائة وخمسين سنة (١٣٥٠) ، وهذا الرأي قد يكون منقولا عن التوراة كما هو عادة مبالغ فيه كبقية الأخبار التي تذكرها التوراة مما لا يمكن الأطمئنان التام إليه ، والذي نقطع به ما ذكره القرآن الكريم ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴾فهذا قطعي الدلالة ثابت ثبوت اليقين ولسنا بحاجة إلى غيره من الأخبار .

قوم نوح يعبدون الأصنام

تشير الآيات الكريمة في قصة نوح عليه السلام أنه بُعث إلى قوم قد أشركوا بالله وعبدوا الأوثان والأصنام واتخذوا آلهة من دون الله ، اعتقدوا أنها تضر وتنفع وتبصر وتسمع وأنها تستطيع ان تجلب لهم الخير وتدفع عنهم السوء وتغني عنهم من دون الله . وهم أول قوم عبدوا الأصنام وأشركوا بالله ولهذا بعث الله سبحانه إليهم نوحاً عليه السلام بالانذار والتخويف كما قال تعالى :﴿ انا أَرْسلنا نوحاً إلى قومِهِ أنْ أنذرْ قومَكَ منْ قبلِ أنْ يأتِيَهُمْ عذابٌ أليمٌ . قالَ يا قومِ إني لكمْ نذيرٌ مبينٌ . أنِ اعبُدو اللهَ واتّقوهُ وأطيعونِ ...﴾الآية . وقد كان الناس قبل قوم نوح على دين الفطرة يعبدون الله لا يشركون به شيئاً ولا يعرفون أوثاناً أو أصناماً وكانوا مؤمنين مقرين بوحدانية الله فلهذا لم يبعث لهم رسولا ينذرهم ويحذّرهم ، وأول رسول بعث بالانذار والتخويف هو نوح عليه السلام أرسل إلى قوم يدعون (بني راسب) كانوا قد رسخوا في الضلال وازدادوا في العناد ، وعتوا عتوّاً كبيرا ، فجاءهم بالدلائل الواضحات ،

والبراهين الساطعات ، فما لقي منهم إلا كل صدود واعراض ، وتسفيهوتضليل وسخرية واستهزاء ، اقرأ ان شئت هذه الآيات الكريمة من سورة نوح :

﴿قالَ ربّ إني دَعوتُ قومي ليلاً ونهاراً فلمْ يزدهُم دعائي إلاّ فراراً . وإنّي كلّما دعوتُهمْ لِتغفرَ لهمْ جَعلوا أصابعهَمْ في آذانِهم ، واستَغْشَوْا ثيابَهمْ وأصَرّوا واستَكبروا استِكْباراً ثمّ إنّي دَعَوْتهم جِهاراً ثمّ إنّي أعْلنتُ لهمْ وأسْررتُ لهمْ إسراراً ...﴾ الآيات . ومما يدل على ان الناس كانوا مؤمنين قبل قوم نوح لا يعرفون الوثنية والاشراك قوله تعالى في بيان أسباب بعثة الرسل : ﴿كانَ الناسُ أمةً واحدةً فبعثَ اللهُ النبيّينَ مبشّرينَ ومنذرينَ وأنزلَ معهُمُ الكتابَ بالحقّ ليحكُمَ بينَ النّاسِ فيما اختلَفوا فيه ...﴾ الآية .

روي عن ابن عباس في هذه الآية الكريمة أنه قال : كان بين نوح وآدم عليهما السلام عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين قال وكذلك هي في قراءة عبد الله ﴿كانَ الناسُ أمّة واحدة فاختلفوا﴾ . وروي عن قتادة قال : كانوا على الهدى جميعاً فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين فكان أول نبي بعث نوحاً عليه السلام .

كيف انتشرت الوثنية وسبب عبادة الأصنام

قلنا فيما سبق ان قوم نوح هم أول من عبد الأصنام وان الناس قبلهم كانوا على التوحيد والإيمان لا يعرفون وثنية ولا يعبدون أصناماً ، والدليل على ان قوم نوح كانوا يعبدون الأوثان هو ما ذكره الله جل ثناؤه في كتابه العزيز مخبراً عن نوح :

﴿قالَ نوحٌ ربّ إنّهمْ عَصَوْني واتّبعوا مَنْ لمْ يَزِدْهُ مالُه وولدُه إلاّ خساراً . ومكروا مكْراً كُبّاراً . وقالوا : لا تذرنّ آلهتَكُمْ ولا تذرُنّ وَدّاً ولا سُواعاً ولا يَغوثَ ويعوقَ ونسْرا ، وقد أضلّوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالا﴾. سورة نوح .

وهذه الأصنام كانت أسماء لأناس صالحين ، أو أسماء لملائكة مقربين

أراد قوم نوح ان يتذكروا أعمالهم الصالحة فاتخذوا لهم تماثيل زعما منهم أنهم بذلك لا ينسون ذكراهم ويتأسون بهم في صالح الأعمال ومع مضي الأزمان عبدت هذه الأوثان .

روي في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال لأم سلمة وأم حبيبة لما رأتا الكنيسة التي بأرض الحبشة وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها جميلة قال (اولئك كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ثم صوّروا فيه تلك الصورة ، اولئك شرار الخلق عند الله عزّ وجل) .

وروي البخاري عن ابن عباس عند تفسير قول الله تعالى ﴿وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ وداً ولا سُواعاً ..﴾ قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلمّا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم ان انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها انصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تُعْبَد حتى إذا هلك أولئك وتنسّخ أي (تقادم) العلم عبدت . قال (ابن عباس) وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد .

أقول : ومن أجل ذلك جاءت الشريعة الإسلامية الغراء تحظر التصوير باليد لكل ذي روح وتحرّم اتخاذ التماثيل أياً كان الغرض منها . فقد روى البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال : (ان أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون يقال لهم : أحيوا ما خلقتم) . وورد أيضاً فيه : (ان الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة ولا تماثيل ولا جُنُب) . وجاء أيضاً قوله ﷺ : (من صوّر صورة عذّبه الله بها يوم القيامة حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ) « رواه البخاري » .

وكل ذلك سداً للذرائع وصيانة للعقيدة حتى لا يقع الناس في الوثنية كما وقع قوم نوح ثم انتقل الشر والفساد إلى غيرهم .

صبر نوح على تكذيب قومه له

لقد كان جهاد نوح عليه السلام وصبره على ايذاء قومه بما لا طاقة لأحد

على تحمله ولا قدرة له عليه . فقد كان جهاده جهاد الأبطال ، وصبره صبر الجبال ، أوذي ، وعذّب ، واضطهد وهو لم يكفّ عن تبليغ دعوة الله لمدة تقارب ألف عام ، ولم يضعف عن ابداء النصح والتذكير ابتغاء مُرضاة الله . وقد استعمل المشركون معه صنوف الاستهزاء والبلاء ليصدوه عن دعوته فلم يجدوا منه إلا كل صبر وثبات . أتهموه بأنواع الاتهامات ، وافتروا عليه أنواع الافتراءات فما زاده ذلك إلا ايماناً وتسليماً ، وصبراً وجهاداً ، فكان من الأنبياء المقربين ومن أولي العزم الصابرين .

أنواع الاتهامات لنوح عليه السلام :

١ — اتهم عليه السلام بالسفه والضلال . قال تعالى : ﴿قَالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

٢ — واتهم أيضاً بالجنون وفي ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرْ﴾ . وأخبر القرآن عن لسانهم : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ الآية .

٣ — واتهم بكثرة الجدل وبالافتراء على الله وفي ذلك يقول القرآن الكريم حكاية عنهم : ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِين ﴾ .

٤ — وهدّد عليه السلام بالرجم قال تعالى : ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ المرجُومِينَ ﴾ .

٥ — وقابلوه بالسخرية والتهكّم قال تعالى : ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُون ﴾ .

وهكذا تفننوا في ايذائه واتّهامه ليفلّوا من عزمه ، وهذه الافتراءات والأتهامات سلاح يستعمله الفجرة في كل وقت وحين في وجه كل نبي كريم أو داعية مصلح ، وهو ليس خاصاً بقوم نوح فقد قال المشركون لسيد الخلق

محمد ﷺ : ﴿يا أيّها الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إنّكَ لمجْنُون﴾ وقالوا أيضاً : ﴿إنْ تَتّبِعُونَ إلا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ وقالوا كذلك : ﴿إنّ هذا لساحِرٌ كذّابٌ﴾ وهكذا يستعمل الأشرار والفجار هذا السلاح في وجه كل نبي وداعية . فينبغي ان يتنبّه الدعاة والمصلحون إلى هذا النوع من الحرب الباردة .

دعوة نوح عليه السلام لقومه

حياة نوح عليه السلام حياة شاقة مريرة ، ومحنته مع قومه محنة شديدة أليمة فقد أقام بينهم قروناً ودهوراً فلم ير إلا آذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، وعقولا متحجرة . لقد كانت نفوسهم أيبس من الصخر وأفئدتهم أقسى من الحديد ، لم ينفعهم نصح أو تذكير ، ولم يزجرهم وعيد أو تحذير ، وكلما ازداد لهم نصحاً ازدادوا له عناداً ، وكلما ذكّرهم بالله زادوا ضلالا وفساداً ، وظلوا في طريق الضلال سائرين ، لا يلتفتون إلى دعوة نوح ، ولا يبالون بتحذيره وانذاره ، وقد أقام بينهم تسعمائة وخمسين عاماً داعياً ، مذكّراً ، ناصحاً ، وسلك جميع الطرق الحكيمة لانقاذهم من الضلال ، وابعادهم عن عبادة الأصنام والأوثان فلم يفلح معهم أبداً ، وكانت دعوته لهم ليلا ونهاراً ، وسراً وجهاراً، ومع كل ذلك لم تلن قلوبهم ، بل قابلوا الاحسان بالإساءة ، واللطف بالشدة ، ومالوا عليه بالضرب والأذى ،وهو لا يفتأ يقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

روى المفسرون ان نوحاً عليه السلام كان يأتي قومه فيدعوهم إلى الله فيجتمعون عليه ويضربونه الضرب المبرّح ويخنقونه حتى يغشى عليه ثم يلفونه في حصير ويرمون به في الطريق ويقولون انه سيموت بعد هذا اليوم ، فيعيد الله سبحانه إليه قوته فيرجع إليهم ويدعوهم إلى الله فيفعلون به مثل ذلك وهكذا بقي يؤذى ويعذّب وهو مع ذلك صابر لا يدعو على قومه بالعذاب وإنما كان يؤمل فيهم أو في أبنائهم الخير والصلاح ، ويقول لعل الله يخرج من أصلابهم من يستجيب لدعوتي ويؤمن بالله ولكن مع هذه المدة الطويلة لم يؤمن معه إلا

القليل منهم وكان كلما انقرض جيل جاء مَنْ بَعدَه أخبث وألعن فقاله كانو يوصون أبناءهم بعدم الإيمان به وكان الوالد يقول لولده إذا بلغ وعقل : يا بني احذر هذا لا يغرنّك عن دينك وآلهتك . ولهذا دعى عليهم نوح بعد أن يئس من إيمانهم فقال :﴿ «رَبِّ لا تَذَرْ على الأرْضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيّاراً . إنّكَ إنْ تذرْهُمْ يُضِلّوا عِبادَكَ ولا يَلِدُوا إلاّ فاجِراً كَفّاراً ﴾ فكان بعد ذلك الطوفان .

روي عن ابن مسعود أنه قال : (كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه حتى أدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون) .

نوح يصنع الفُلْك

لما يئس نوح عليه السلام من إيمان قومه بعد هذه الفترة الطويلة من الزمان ، وأوحى الله سبحانه إليه بأنه لن يؤمن من قومه بعد هؤلاء المؤمنين أحد كما قال تعالى : ﴿ وأوْحى إلى نوحٍ أنّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بما كانُوا يَصْنَعُون ﴾ ، عند ذلك التجأ إلى الله بالدعاء على قومه بالهلاك والدمار فاستجاب الله دعاءه وأعلمه بأنه سيهلكهم بالطوفان فلا يُبْقي منهم أحداً ، وأوحى إليه أن يصنع الفلك (السفينة) ليركب فيها هو وجماعته المؤمنون ، ولم يكن لنوح ولا لغيره معرفة بصنع الفلك ولذلك أوحى الله إليه صنعها وعلّمه كيف ينبغي ان تكون كما قال تعالى : ﴿ واصْنَعِ الفُلْكَ بأعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي في الذينَ ظَلَمُوا إنّهُمْ مُغْرَقُون ﴾.وإنما أمره بعدم مراجعته في شأنهم لأن عذاب الله إذا جاء فلا يرد عن القوم المجرمين ولعلّه قد تدركه رقة عند معاينة العذاب النازل بهم فإنه ليس الخبر كالعيان .

وأخذ نوح عليه السلام يصنع السفينة تحت أمر الله ووحيه ، وجعل قومه يمرّون عليه فيهزأون عليه ويسخرون ويقولون له : يا نوح قد كنت بالأمس نبياً واليوم قد صرت نجاراً ، ويجتمعون عليه وهم يضحكون وهو جادّ عليه السلام في عمله فكان يجيبهم بقوله : ﴿إن تَسْخَرُوا مِنّا فإنّا نَسخرُ مِنْكُمْ

كمَا تَسْخَرُون فسوفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يأتيه عذابٌ يُخْزِيه وَيَحل ُ عَلَيْهِ عذابٌ مُقيم ﴾.ولما انتهى من صنعها أمره الله سبحانه ان يحمل معه أهله وجماعته المؤمنين وان يحمل فيها من الحيوانات من كل صنف زوجين (ذكر وأنثى)اثنين ، ومن سائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها ، ثم جعل له علامة وهو (فوران التنور)، والمراد به على رأي جمهور المفسرين وجه الأرض أي ان تنبع الأرض من سائر أرجائها فذلك وقت ركوب السفينة مع المؤمنين بعد ذلك سيكون الطوفان والغرق لجميع سكان الأرض ولا ينجو من الغرق إلا ركاب السفينة ، فلما ظهرت العلامة ركبوا في السفينة وأرسل الله من السماء مطراً لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده كان كأفواه القرَب ، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها كما قال تعالى في سورة القمر : ﴿ فدعا رَبّه أنّي مَغْلوبٌ فانتصر ، ففتحنا أبوابَ السماء بماء ٍ مُنْهَمِر وفَجّرْنَا الأرضَ عُيوناً فالْتقَى الماءُ على أمْرٍ قَدْ قُدِر ، وحَملْناه على ذات ِ ألواحٍ ودُسُر . تجري بأعيننا جزاءً لمنْ كانَ كُفِر﴾ وارتفع الماء على أعلى جبل بالأرض خمسة عشر ذراعاً ، وعمّ جميع الأرض طولها وعرضها ، سهلها وحَزْنها ، جبالها وقفارها ، ولم يبق على وجه الأرض ممّن كان بها من الأحياء عين تَطْرِف ، فقد غمرهم الماء ، وجرفهم الطوفان ، ولم ينج إلا ركاب السفينة ، ولهذا يسمى نوح عليه السلام (أبا البشر) الثاني لأن جميع أهل الأرض بعد الطوفان هم من نسل أهل السفينة الذين كانوا مع نوح ، حتى ابن نوح الذي لم يؤمن بالله ولم يركب مع أبيه في السفينة كان من الهالكين ، اقرأ هذا النص الكريم : ﴿وقالَ اركَبُوا فيها بِسْم الله ِ مَجريها ومُرْساها إنّ ربي لغفورٌ رحيمٌ . وهيَ تَجْري بهمْ في مَوْجٍ كالجبالِ ونَادى نُوحٌ ابنَهُ وكانَ في مَعْزِلٍ يا بُنَيّ اركبْ مَعَنا ولا تَكُنْ معَ الكافرين قالَ سآوي إلى جبلٍ يَعْصِمُني منَ الماءِ ، قالَ لا عاصِمَ اليومَ منْ أمرِ الله ِ إلا مَنْ رَحِمَ وحَالَ بَينهُما الموجُ فكانَ مِنَ المغرَقِينَ ، وقيلَ يا أرضُ ابْلعي ماءَكِ ويا سماءُ أقْلعي وَغِيضَ الماءُ وقُضِيَ الأمرُ واستَوَتْ على الجُوديّ وقيلَ بُعْداً للقوم ِ الظالمين﴾ .

أولاد نوح عليه السلام :

كان لنوح عليه السلام أربعة أولاد هم (سام ، وحام ، ويافث ، وكنعان) أما كنعان فقد هلك مع الهالكين لأنه كان من الكافرين وأبى ان يركب مع أبيه في السفينة وقال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء فلم ينج من الغرق مع أنه صعد إلى أعلى جبل هناك ولم يكتب الله له السعادة حتى يستجيب لنداء والده حين ناداه بقوله : يا بني اركب معنا بل ظن أنه سينجو بصعوده الجبل فباء بالخيبة والفشل ، وحين دعا نوح ربه أن ينجي ولده هذا وقال :﴿ رَبِّ انَّ ابني مِنْ أهْلي وإنَّ وَعْدَكَ الحقُ وأنتَ أحكمُ الحاكمين﴾ عاتبه الله سبحانه بقوله : ﴿قالَ يا نُوح إنّه ليسَ مِنْ أهلكَ انهُ عملٌ غَيْرُ صالحٍ فلا تسألْنِ ما ليس لَكَ بِهِ عِلْمٌ اني أعِظُكَ أنْ تكونَ مِنَ الجاهلين﴾ . وأما أولاده الثلاثة فنجوا وجاء من نسلهم أهل الأرض ، فكل الخلائق ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة لأن الله تعالى قال :﴿ وجَعَلْنَا ذُرّيّتَهُ هُمُ الباقين﴾ ، فسام هو أبو العرب ، وحام هو أبو الحبش ، ويافث هو أبو الروم ، وقد ورد في ذلك بعض الأحاديث النبوية الشريفة منها ما رواه أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: (سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم) ، وروى البزار في مسنده ان النبي ﷺ قال : (ولد لنوح سام وحام ويافث ، فولد لسام العرب وفارس والروم والخير فيهم وولد ليافث يأجوج ومأجوج) الخ .

(انتهاء الطوفان بعد هلاك الكافرين)

وبعد ان غرق أهل الأرض ولم يبق على وجهها من الكافرين أحد أمر الله السماء أن تكف عن المطر ، وأمر الأرض ان تبتلع المياه التي غمرتها وان تعود الحياة كما كانت على ظهر الأرض ، وكانت السفينة قد وصلت إلى جبل يسمى (الجودي) وهو جبل عظيم إلى جانب دجلة (عند الموصل) في العراق وإلى ذلك تشير الآية الكريمة :﴿ وقيلَ يا أرضُ ابْلَعي ماءَكِ ويا سَماءُ أقْلِعي

وغِيضَ الماءُ ، وقُضِيَ الأمْرُ ، واستوتْ على الجوديِّ وقِيلَ بُعْداً للقومِ الظالمين) .

هبوط أهل السفينة بعد نجاتهم إلى الأرض :

وحين استقرت السفينة بجبل « الجودي » أمر الله نوحاً ومن معه ان ينزلوا منها بسلام وأمان وبركات من العزيز الرحمن ﴿قيلَ يا نوحُ اهبطْ بسلامٍ منّا وبركات عليكَ وعلى أممٍ ممنْ معكَ﴾. وكان نزولهم من السفينة (يوم عاشوراء) من المحرّم بعد أن بقوا فيها (١٥٠) يوماً فصام نوح ذلك اليوم شكراً لله وأمر من معه من المؤمنين أن يصوموه ، وقد توارث بنو اسرائيل صيام ذلك اليوم ، وجاء الإسلام فأقر صيامه . روي ان النبي ﷺ لما قدم المدينة المنورة رأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال : « ما هذا ؟ قالوا : يوم صالح ، هذا يوم نجّى الله تعالى فيه بني اسرائيل من عدوهم فصامه موسى ، فقال ﷺ أنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه » . رواه الشيخان . واخرج الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال : (صيام يوم عاشوراء اني احتسب على الله ان يكفّر السنة التي قبله) .

المدة التي أقاموها في السفينة : ذكرنا فيما سبق ان مدة بقائهم في السفينة كانت مائة وخمسين يوماً وهذه الرواية منقولة عن ابن عباس رضي الله عنهما فإنه قال كما ذكره (ابن كثير) في البداية والنهاية (كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم ، وأنهم مكثوا في السفينة مائة وخمسين يوماً ، وان الله وجّه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً ثم وجهها إلى الجوديّ فاستقرت عليه).

وقد توفي نوح عليه السلام بعد ان مكث في قومه تسعمائة وخمسين سنة قبل الطوفان وعاش بعده مدة الله أعلم بها . وعلى رأي ابن عباس يكون مقدار حياته (١٧٨٠) سنة وهي أطول حياة عاشها إنسان وقد دفن بقرب المسجد الحرام بمكة المكرمة على الراجح من الأقوال رحمه الله رحمة واسعة ومن خصائصه أنه أول نبي من أنبياء الشريعة ، وأطول الأنبياء عمراً ، وشيخ المرسلين ، وأنه أول نذير عن الشرك ، وأول داع إلى الله ، وقد سمّاه الله عبداً شكوراً ، وجعله بعد محمد في الميثاق .

٢ - ابراهيم عليه السلام

حياته عليه السلام :

﴿ واذكُرْ في الكتابِ إبراهيمَ ، إنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِياً ﴾ .

ابراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء وهو الجد الأكبر لرسول الله ﷺ إذ أنه من ولد اسماعيل، واسماعيلُ هو ابن ابراهيم ، فيكون ابراهيم هو الجد الأعلى لرسول الله ﷺ ، وقد خصَّ الله تبارك وتعالى ابراهيم عليه السلام بخصائص ومزايا فريدة ، فجعله أباً للأنبياء ، وإماماً للأتقياء ، وقدوة للمرسلين ، واختاره من بين الرسل والأنبياء بالخُلّة والاصطفاء ، فهو (خليل الرحمن) ومنه تناسل الأنبياء وتتابعوا عقب الأجيال ، فجميع أنبياء بني اسرائيل من نسله لأنهم من أولاد (يعقوب بن اسحق) وإسحق هو ابن إبراهيم ، فمن ابراهيم تتفرّع شجرةُ النبوة ، حتى خاتم الرسل صلوات الله عليه من نسله لأنه من ولد اسماعيل قال تعالى : ﴿ وَوَهبْنَا لهُ إسْحقَ ويعقوبَ ، وجَعلْنَا في ذُرِّيته النبوةَ والكتابَ ، وآتيناهُ أجْرهُ في الدنْيا وإنَّهُ في الآخِرَةِ لمِنَ الصَّالحين ﴾ .

وقد ابتلى الخليل عليه السلام بأنواع من الابتلاء ، وامتحن بضروب من الامتحان فصبر ، وكان في إيمانه مثل الجبال الرواسخ ، لم يتزعزع ولم يضطرب ولم يدخل إليه وهنٌ أو ضعف ، وكان أشدّ هذه المحن عليه حين أُمِر بذبح ولده (اسماعيل) ، ولكنه كان مثالاً للعبودية والطاعة ، والإذعان لأوامر الله ، ولهذا جعله الله قدوة للأنبياء ، بل جعله أمةً بمفرده قال تعالى ﴿ إنَّ إبراهيمَ كانَ أمةً قانتاً لله حَنيفاً ، ولَمْ يَكُ منَ المشرِكين ﴾.

ولا عجب أن نرى الثناء العظيم من الله تعالى عليه فهو أب الأنبياء ، وإمام الأتقياء ، ورمز الإيمان ، ابتُليَ فصبر ، وانتصر فشكر ، فكان عبداً وفياً ولذلك اختاره الله خليلاً ﴿ واتخَذَ اللهُ ابراهيمَ خليلاً ﴾ .

نسب إبراهيم عليه السلام :

هو إبراهيم بن تارح ، بن ناحور ، بن ساروغ ... وينهي نسبه إلى (سام ابن نوح) وبينه وبين نوح عليه السلام مدة تزيد على ألف عام ، وهذا النسب هو الذي ذكره المؤرخون نقلاً عن التوراة وأنّ اسم أبيه هو (تارح) . وأما القرآن الكريم فقد ذكر أن اسم أبيه هو (آزر) وهذا هو الصحيح الذي يُعوّلُ عليه . وأما ما ذكره المؤرخون بناءً على ما في التوراة ، فإنّ من المقطوع به عند المسلمين أن التوراة والانجيل قد دخل إليهما تحريف كبير فلم يعد مجال للوثوق بما فيهما من النصوص ، ومن العجب أن بعض المفسرين ساروا في ركاب المؤرخين فادعوا ان اسم أب ابراهيم هو تارح وزعموا أن آزر هو عمّه ، ولعل الذي دفعهم إلى هذا تنزيه ساحة ابراهيم عليه السلام أن يكون – وهو أب الأنبياء – من والد مشرك واستعظموا الأمر ، مع أنّ الأمر ليس فيه ما يخلّ بمقام إبراهم أو ينقص من قدره ، فإنّ الهداية بيد الله ، يُضِلّ من يشاء ويهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين ، فزوجة (فرعون) مؤمنة ، وولد (نوح) كافر ، ولم ينقص ذلك من قدر أحدٍ من الأنبياء شيئاً .

وقد أخبرنا المعصوم ﷺ أن والد ابراهيم هو (آزر) وذلك في الحديث الذي رواه البخاري عن النبي ﷺ أنه قال : (يَلْقى إبراهيم أباه « آزر » يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترةٌ وغَبَرة (أي سواد وغبار) فيقول له ابراهيم ألم أقل لك لا تعصني ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك .. فيقول ابراهيم يا ربّ إنك وعدتني ألاّ تُخزني يوم يبعثون ، وأيّ خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله : إني حرّمت الجنة على الكافرين ، ثم يقول لإبراهيم : انظر ما تحت رجليك ، فينظر فإذا هو بذبح متلطّخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار[1] .. فهذا الحديث نصّ على أن اسمه آزر وهو الحق الذي لا محيد عنه .

قال (ابن كثير) رحمه الله ما نصه :

﴿وإذْ قالَ إبراهيمُ لأبيه آزرَ أتتخذُ أصْناماً آلهة؟..﴾ الآية.وهذا يدل على

(١) انظر صحيح البخاري .

أن اسم أبي ابراهيم (آزر) وجمهور أهل النسب منهم ابن عباس على أن اسم أبيه (تارح) وأهل الكتاب يقولون (تارخ) بالخاء المعجمة فقيل إنه لُقّبَ بصنم كان يعبده اسمه آزر ، وقال (ابن جرير) : والصواب أن اسمه آزر كما ذكر القرآن ، ولعلّ له اسمان علمان أو أحدهما لَقَبٌ ، والآخر علمٌ ، وهذا الذي قاله محتمل والله أعلم[١] .

كنية إبراهيم عليه السلام :

كنية ابراهيم عليه السلام : روى (ابن عساكر) عن عكرمة أنه قال : كان ابراهيم عليه السلام يكنى (أبا الضيفان) أقول : ولعل هذه التكنية إنما جاءته من كثرة ضيوفه فقد كان إبراهيم عليه السلام كريماً مضيافاً ، لا ينزل به أحد إلاأحسن ضيافته وأكرم نُزُله ، وكان سخيّ النفس يذبح لضيوفه الشاء والنعم ، وقد ذكر ابن جرير عن السّدي أنه قال: (كانَ إبراهيم كثيرَ الطعامُ يطعم الناس ويضيفهم ..) الخ . وقد ذكر القرآن الكريم قصته مع ضيوفه (الملائكة) حين جاءوا لإهلاك قوم (لوط) فمرّوا على إبراهيم في طريقهم ليبشّروه بغلام ، فلما رآهم ظنهم من البشر فأسرع إلى أهله فذبح لهم عجلاً ثم شواه وقدّمه لهم فلم يأكلوا ، فوقع في نفسه الريبة منهم ، وأخذ ينظر إليهم بغرابةٍ وحذرٍ ، حتى أخبروه أنهم من الملائكة ، قال تعالى ﴿هَلْ أتاكَ حديثُ ضيفِ ابراهيمَ المُكرمينَ . إذْ دخلُوا عليهِ فقالوا سلاماً قالَ سلامٌ قومٌ منْكرونَ . فراغَ إلى أهلهِ فجاءَ بعجلٍ سمينٍ . فقرّبهُ إليهمْ قال ألا تأكلونَ فأوجسَ منهم خيفةً قالوا : لا تخفْ وبشّروهُ بغلامٍ عليمٍ﴾ فهذه الآيات الكريمة صورة ناطقة عن كرم (ابراهيم) الخليل حين كان يذبح لضيوفه الإبل والبقر مع أنه لا يعرفهم ولكنها أخلاق العظماء وصفات الكرماء ، ولقد اقتبس العرب هذه الخصلة الحميدة من (اسماعيل) بن ابراهيم الذي عرف بالجود والكرم ، (ومن يشابه أبه فما ظلم) .

---

(١) انظر البداية والنهاية الجزء الأول ص ١٤٢ .

ولادة إبراهيم عليه السلام :

يذكر بعض المؤرخين أنّ ابراهيم عليه السلام ولد بغوطة دمشق في قريه يقال لها (برزة) في جبل (قاسيون) والصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ أنه ولد (ببابل) وهي أرض الكلدانيين في العراق . قال (ابن كثير) بعد أن ذكر الرواية الأولى : والصحيح أنه ولد بـ (بابل) وإنما نسب إليه هذاالمقام (يعني ولادته بغوطة دمشق) لأنه صلّى فيه إذ جاء معيناً لابن أخيه (لوط) عليه السلام[1] ...

ولد ابراهيم عليه السلام بعد أن بلغ والده من العمر ٧٥ سنة ، وكان هو الولد الأكبر لآزر ، وقد جاء من بعده أخواه (ناحور) و (هاران) وولد (لهاران) (لوط) عليه السلام فهو ابن أخ ابراهيم ، وأهل الكتاب يقولون ان ابراهيم هو الولد الأوسط ، وإنّ (هاران) مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها وهي أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل ، والصحيح الأول .

وقد تزوج ابراهيم عليه السلام حين شبّ وكبر بامرأة تدعى (سارة) وكانت سارة عاقراً لا تلد ، وهاجر ابراهيم عليه السلام مع والده وزوجته فخرجوا من أرض الكلدانيين (أرض العراق) إلى أرض الكنعانيين وهي (بلاد المقدس) فأقاموا (بحَرّان) وهي بلدة قريبة من الشام ، وكان أهلها يعبدون الكواكب السبعة وكان أهل الشام وأهل الجزيرة — كما يروي ابن كثير — على هذه العقيدة الضالة يستقبلون القطب الشمالي ، ويعبدون الكواكب السبعة ، ولهذا كان على كلّ باب من أبواب دمشق السبعة القديمة (هيكل) لكوكب فيها ، وكانوا يعملون لها أعياداً وقرابين ، وهكذا كان أهل (حَرّان) يعبدون الكواكب والأصنام ، وكل من كان على وجه الأرض — في ذلك الزمان — كانوا كفاراً سوى ابراهيم عليه السلام وامرأته (سارة) وابن أخيه (لوط) عليهم السلام ،

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير .

وكان الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به تلك الشرور، وأبطل ذلك الضلال، حيث بعثه الله بالحجة الدامغة والبرهان القاطع، وآتاه رشده منذ الصغر، فكان قويّ العزيمة، ثاقب النظر، يجادل قومه ويناظرهم فيقيم عليهم الحجّة ويدمغهم بالبرهان الذي أيده الله تعالى به فلا يستطيعون له رداً.

دعوة ابراهيم لأبيه آزر :

قصّ علينا القرآن الكريم دعوة (ابراهيم) عليه السلام لأبيه، فقد كان أبوه مشركاً ممن يعبد الأصنام، وأحق الناس بإخلاص النصيحة له إنما هو أبوه، ولهذا لم يألُ الخليل جهداً في تذكير أبيه ونصحه، وتحذيره من عذاب الله، وقد كان ابراهيم في دعوته لأبيه مثالاً للولد البار الذي لا يريد إلا الخير بأقرب الناس إليه، فلم يقسُ عليه في الكلام، ولم يعنّفه أو يزعجه، بل إنه خاطبه بكل أدب ووقار وجادله بألطف عبارة وأحسن إشارة، فبيّن له في محاورته ومجادلته بطلان ما هو عليه من عبادة أوثان وأصنام، لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، ولا تغني عن صاحبها شيئاً، وذكّره بأنّ هذه الأصنام إذا لم تستطع أن تدفع الضيّر عن نفسها ولا أن تجلب الخير والنفع إليها فكيف تستطيع أن تدفعه عن غيرها، أو كيف تستطيع أن تحقّق لعابدها ما يرجوه منها مع أنها تفقد القدرة والقوة على عمل شيء من الأشياء؟ وهكذا مضى ابراهيم عليه السلام في دعوته لأبيه بالحكمة والموعظة الحسنة في أدب ووقار، ولكنّ أباه لم يستجب لهذا النصح، ولم يعتبر بمنطق الحجة والبرهان بل أصرّ على الضلال والعناد، وهدّد ولده بالقتل والضرب فيما إذا عاد إلى ذكر آلهته المزعومة بالسوء أو الشرّ إقرأ قوله تعالى في سورة مريم : ﴿واذكرْ في الكتابِ ابراهيمَ إنّهُ كانَ صدّيقاً نبياً. إذْ قالَ لأبيه : يا أبتِ لمَ تعبدُ ما لا يسمعُ ولا يبصرُ ولا يُغْني عنكَ شيئاً؟ يا أبتِ إني قدْ جاءَنيْ منَ العلمِ مَا لمْ يأتِكَ فاتّبعْني أهدكَ صِرَاطاً سَوياً. يا أبتِ لاتعبدِ الشيطانَ، إنّ الشيطانَ كانَ للرحمن عَصياً. يا أبتِ إني أخافُ أن يَمسّكَ عذابٌ منَ الرحمنِ فتكونَ للشيطانِ وَلياً.

قالَ أراغبٌ أنتَ عنْ آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً. قالَ سلامٌ عليكَ سأستغفرُ لكَ ربي ، إنه كانَ بي حفياً﴾ .

وقد استغفر ابراهيم عليه السلام لأبيه ، كما وعده فطلب له من ربه المغفرة والرضوان ، ﴿واغفرْ لأبي إنهُ كانَ منَ الضّالين﴾ وكان هذا الاستغفار طمعاً من إبراهيم في إيمان أبيه ، ولكنّه حين ظهر له إصرار أبيه على الشرك والوثنية ، وعداوته المتأصلة لدين الله ، عند ذلك تبرّأ ابراهيم من أبيه وقطع صلته به ، ﴿وما كانَ استغفارُ ابراهيمَ لأبيه إلا عنْ موعدة وعدَها إياهُ ، فلمّا تبيّنَ لهُ أنّهُ عدوٌ لله تبرأ منهُ إنّ إبراهيمَ لأوّاهٌ حليمٌ﴾ .

وفي هذا درس بليغ لأهل العقيدة والإيمان، ليقتدوا بالرسل الكرام، ويسيروا على نهجهم الكامل وسيرتهم العطرة ، فإبراهيم يتبرأ من أبيه ونوح يتبرأ من ابنه ، وهذا هو كمال الإيمان ، فليس هناك صلة أقدس أو اعظم من أخوّة الدين لأن رابطة الدين فوق رابطة النسب ، وهذه هي المُثُل الكاملة في دعوة أنبياء الله ، استمع إلى قوله تعالى ﴿قدْ كانتْ لكُمْ أُسْوةٌ حسنَةٌ في ابراهيمَ والذين معهُ إذْ قالُوا لقومهِمْ إنّا بُرآءُ منكمْ وممّا تعبدونَ منْ دونِ اللهِ ، كفرنا بكمْ وبدا بيننَا وبينكمُ العداوةُ والبغضاءُ أبداً حتى تؤمنُوا باللهِ وحدَهُ﴾ .

أفليس في هذا برهاناً واضحاً على صدق إيمان الخليل عليه السلام ؟ أوليس في تبرئه من أبيه ومجاهرته بالعداء ، ما يثبت انقطاع الصلة بين الوالد وولده حينما تنعدم روابط الإيمان ؟؟؟ ولكن لا عجب فإنه ابراهيم الخليل أبو الأنبياء الذي ضرب أروع الأمثلة في صدق العقيدة وصدق الإيمان ولذلك استحق أن يكون خليل الرحمن .

نشأته بين قومه :

نشأ (ابراهيم) عليه السلام وسط بيئة فاسدة يحكمها ملك طاغية ، مستبد برأيه اسمه (النمرود بن كنعان) قبض على زمام الملك في (بابل) وكان أهلها ينعمون برغد العيش ، وظلال الأمن ، غير أنهم كانوا يتخبطون في ظلام دامس

من الشرك والوثنية ، ينحتون الأصنام بأيديهم ثم يجعلونها أرباباً من دون الله .

ولما رأى (النمرود) نفسه حاكماً مطلقاً ، تحيط به قوة الملك والسلطان ، والقوم حوله يتخبطون في الجهالات ، أقام نفسه (إلهاً) ودعا الناس إلى عبادته ، لأن عبادتهم للأصنام وجهلهم بصفات الإله سوّغت له هذه الدعوى الباطلة . فالأصنام لا تسمع ولا تبصر ، ولا تملك لهم نفعاً ولا ضراً ، وهوينطق ، ويفكر ويدرك ويحس ويشعر ، ويفيض عليهم الخير ، ويدفع عنهم الشر ، فلم لا يكون إلهاً ؟ فهو أحق بالعبادة من هذه الأحجار التي عبدوها واتخذوها آلهة من دون الله .

نشأ ابراهيم عليه السلام في هذا المحيط ، وآتاه الله الرشد ، وهداه إلى الحق ، فعرف بصائب رأيه وثاقب فكره ، أنّ الله تعالى واحد أحد ، لم يلد ولم يولد ، وأنه مهيمن على الكون ، مسيطر على العالم ، وأدرك أن هذه الأصنام التي يعبدونها ، والتماثيل التي ينحتونها لا تغني عنهم من الله شيئاً ، لذلك عزم على تخليص قومه من هذا الشرك وإنقاذهم من تلك الجاهلية العمياء .

كان ابراهيم مفعم القلب بالإيمان بربه ، ممتلئاً بالثقة واليقين بوعد الله بالنصر له ، موقناً بما أوحى الله تعالى إليه من أمر الغيب ، وأمر الإيمان ، ولكنه أراد ان يزداد بصيرة وثقة ويقيناً بقدرة الله عز وجل ، فطلب من ربه أن يريه الآية البيّنة على البعث ، وأن يطلعه على النشور ، فسأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى بعد موتهم ، ويبعثهم بعد فناء أجسامهم ، فخاطبه ربه بقوله ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قالَ : بلى ولَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ .

لقد آمن إبراهيم وصدّق ، ولكن تاقت نفسه للعيان ، وامتدت عينه للمشاهدة ليرى عجائب قدرة الله ، ويبصر دقائق خلقه وتصويره ، وليطمئن قلبه ويزداد يقينه ، فأجاب الله سؤاله ، وأمره أن يأخذ أربعة من الطير ويضمّها إليه ، ليتعرف أجزاءها ، ويتأمل خلقها ، ثم يذبحها فيجعلها أجزاءً ، ويفرّقها أشلاء ، ويجعل على كل جبلٍ منها جزءاً ، مختلطاً بغيره من الأجزاء ، ثمّ يدعوهنّ إليه فيأتينه سعياً بإذن الله .. فلما فعل صار كل جزءٍ ينضمّ إلى مثله ، وعادت

الأشلاء كلٌّ في مكانه ، وسرعان ما سرت فيها الحياة ، وسعت إليه بقدرة الله وهو يرى آياته البينة في الخلق والإبداع ، سبحانه إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، إقرأ قوله تعالى :

﴿وإذ قال ابراهيمُ ربِّ أرِني كيفَ تحيي الموتى ! قالَ : أوَلَمْ تُؤمنْ ؟ قالَ بلى ، ولكنْ ليطْمئن قلبي ، قالَ : فخذْ أربعةً من الطَّيرِ فصُرهُنَّ إليك ثمّ اجعلْ على كلّ جبلٍ منهنّ جزْءً ، ثمّ ادعهُنّ يأتينكَ سعْياً ، واعلمْ أنّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ﴾ .

مناظرة إبراهيم لقومه:

كان إبراهيم عليه السلام دائباً في الدعوة إلى الله ، لايفتأ يذكر قومه وعشيرته بالرجوع إلى الله ، دعا أباه إلى الإيمان فأبى عليه ، ثم دعا قومه فتنكّروا لدعوته وسخروا من رسالته ، ولكنّه كان رحيماً رفيقاً ، وبرّاً تقياً ، فلم يشأ أن يتركهم في ضلالهم يعمهون ، بل عزم أن يمحو منهم تلك العقائد الباطلة ، ويردّهم إلى رشدهم ولو ناله منهم أذى كثير ، أو تعرضت حياته للخطر .

لقد كان ابراهيم ذكياً صائب الرأي ، وقد علم أن (الحجة) و (البرهان) اللفظي وإن وضحا وضوح الصبح لا ينبتان نباتاً حسناً في هذه الأرض الجرز ، ما لم يقارنهما الحسّ والبصر ، لذلك فقد أراد أن يشرك أبصار القوم مع بصائرهم وأن يقرن حواسهم مع أفئدتهم ، لعلهم يرجعون عن غيّهم ، ويدركون بأنفسهم تفاهة ما هم عليه من عبادة حجارة لا تنفع ولا تسمع ، ولا تغني عن صاحبها شيئاً .

كان لقومه يوم عيد كبير ، يخرجون فيه خارج المدينة ، يقضون الأيام في التسلية والترويح عن النفس ، فلما خرجوا لعيدهم طلبوا إليه أن يرافقهم ، فأبى أن يصحبهم ، وعزم على أن يهدم صرح آلهتهم ، فتظاهر بالسّقم — ولم يكن به علة ، ولكنه كان سقيم النفس من عبادتهم — ولمّا خلا له الجوّ مع أصنامهم ، صار يلطمها بيده ، ويركلها برجله ، ثمّ تناول فأساً وهوى عليها

يكسّرها ، حتى جعلها (جُذاذاً) قطعاً صغيرة محطّمة ، متناثرة هنا وهناك ، وترك صنماً كبيراً لم يكسره ليقيم الحجة به عليهم ، فعلّق في عنقة الفأس الذي كان قد حطّم به تلك الأصنام .

رجع قومه من عيدهم وسرعان ما هرعوا نحو المعبد – كعادتهم – ليقدّموا فروض الولاء والطاعة لأصنامهم ، ولكنهم ذُهلوا وبهتوا من هول ما رأوا .. لقد رأوا آلهتهم ركاماً وهشيماً ، متناثرة في أطراف المعبد ، يعلوها الذلّ والصغار فنادوا بصوت وتحدٍ ، اهتزت له جنبات الأرض ﴿منْ فعلَ هذا بآلهتنا إنّهُ لمنَ الظالمين﴾ .

وسكت الجميع هنيهة وهم في غمرة الذهول والخشوع ، أمام هذه الآلهة المحطّمة ، ثمّ انطلق صوت من بين أظهرهم يذكّرهم بتوعد إبراهيم لأصنامهم ﴿قَالُوا سَمِعْنا فتىً يذكرُهُم يُقالُ لَهُ إبراهيم﴾ فلا بدّ أن يكون هو إذاً المحطّم للأصنام . اعتزموا على أن يوقعوا به أشدّ العذاب، وأن يجعلوه عبرةً لمن يعتبر ، جزاء ما صنعت يداه ، فنادوا بأن يأتوا به على أعين الناس ، ليشهدوا عليه بمقالته ، ويروا ما يحل به من شديد العقاب .

ولا شكّ أن اجتماع القوم في صعيدٍ واحد ، كانت (أمنية) لسيدناابراهيم عليه السلام ، ليقيم لهم الحجة جميعاً علىً بطلان ما يعتقدون ، ويريهم البرهان على فساد ما هم عليه عاكفون . تقاطرت الوفود ، وتكاثرت الجموع ، كلّ يرغب في القصاص منه ، ويود رؤية عقابه وعذابه إرضاءً لنفوسهم المتعطشة إلى الثأر منه ، ثمّ جاءوا به وسط هذا الجمع الزاخر وابتدأوا محاكمته على رؤوس الأشهاد .

المحاكمة :

تقدّم إبراهيم للمحاكمة ، وهنا شخصت الأبصار لسماع الجواب والنقاش وعرضت عليه تلك الأسئلة : ﴿أأنْتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيمُ﴾ ؟

لقد كان ابراهيم حكيماً داهية ، سار بهم في الجدال إلى ناحية أخرى ،

ليبلغ مقصده ويبلّغ رسالته ، مهما كانت النتائج .. وجرهم بطريق الحكمة إلى جواب لم يقصدوه ، ليلزمهم الحجة لعلهم يرجعون إلى صوابهم فقال : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كبيرهُم هذا ، فاسألوهُم إن كانُوا يَنْطِقُونَ﴾ .

صفعهم بهذه الحجة الدامغة ، التي نبّهتهم من غفلتهم ، وأيقظتهم من غفوتهم ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون وقالوا ﴿إنّكُم أنْتُمُ الظالمون﴾ لقد تركتموها لا حافظ لها ولا رقيب عندها فحطّمها من لا يؤمن بها .. ثم أدركتهم الحيرة وعقدت ألسنتهم فأطرقوا مفكرين ، ثم توجّهوا بالكلام مع إبراهيم :

﴿لقدْ علمتَ ما هؤلاء يَنْطِقُون !!﴾لقد عرفت يا إبراهيم أنّ هذه الأصنام لا تردّ سؤالاً ، ولا تسمع كلاماً ، فكيف تأمرنا بسؤالها وهي حجارة صماء جامدة . فلما أقرّوا بعجز الآلهة ، وقصورها عن معرفة ما يجري حولها ، وجرّدوها من القدرة على دفع العدوان ، وصدّ كيد المعتدين.. حينئذ ظهرت حجة إبراهيم واضحة ، ورأى الفرصة سانحة لإلزامهم بالمنطق السويّ السليم ، فأخذ يبكّتهم على جهلهم ، ويوبّخهم على ثباتهم على باطلهم بعد وضوح الحق وسطوعه كالشمس في رابعة النهار :

﴿قالَ أفتعبدونَ مِنْ دونِ الله مالا ينفعكُم شيئاً ولا يَضُرُكُم ؟ أُف لكُم ولما تعبدونَ منْ دونِ الله أفَلا تعقلون ؟!﴾ .

فلما غلبوا على أمرهم ، وخافوا افتضاح حالهم ، ولم تبق لهم حجة أو شبهة يكابرون بها ، عمدوا إلى القوة يسترون بها هزيمتهم ، ويخفون باطلهم فقالوا: ﴿حرّقُوه وانصروا آلهتكُم إنْ كُنتُم فاعِلين﴾ .

ابراهيم يلقى في النار :

أرادوا أن يحرّقوه عقاباً له ، ولكن كيف يحرّقونه ؟ لا بدّ أن يصلوه ناراً حامية تعادل لظى الحقد المتأجّج في صدورهم من جراء انتهاك حرمة آلهتهم المزعومة ، وتحطيمها دون مبالاة .

شرعوا يجمعون الحطب من هنا وهناك ، وجعلوا ذلك قرباناً لآلهتهم ، وبراً بمعبوداتهم حتى إن المرأة كانت إذا مرضت نذرت إن عوفيت لتجمعنّ حطباً لحرق إبراهيم . مكثوا مدة يجمعون الحطب حتى تراكمت أعواده ، وضاق المكان بما جمعوا ، فأشعلوا النار فيها فاضطرمت وتأجّجت ، وعلا لهبها وسطع ضوءها ثمّ قيّدوه ورموا به فيها ، ولكنّه كان في رعاية الله وكلاه ، فلم تحرق منه النار إلا الوثاق ، وجاءه النداء الرباني ﴿قُلْنا يا نارُ كُوني بَرْداً وسَلاماً على إبراهيم﴾ .

وهكذا ظهرت آية الله الكبرى في حفظ عبده ورسوله (ابراهيم) الخليل عليه صلوات الله وردّ الله كيدهم في نحورهم « وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين » .

إقرأ هذه الآية الكريمة في سورة الأنبياء :

﴿ولَقَدْ آتَيْنَا إبراهيمَ رُشْدَهُ منْ قبلُ وكُنَّا به عَالمين . إذْ قال لأبيهِ وقومِهِ ما هذه التماثيلُ الّتي أنتُمْ لها عاكِفون ؟ قالُوا : وَجَدْنا آباءَنا لها عابِدين . قالَ : لَقَدْ كُنْتُمْ أنتُمْ وآباؤكُمْ في ضلالٍ مُبين ، قالوا : أجِئْتَنَا بالحقّ أمْ أنْتَ مِنَ اللاعبين؟ قالَ بَلْ رَبُّكُمْ ربُّ السّموات والأرض الذي فطرهُنّ وأنا على ذلكُمْ منَ الشاهِدين . وتَاللهِ لأكيدنّ أصْنامَكُمْ بعد أن تُولوا مُدْبرين . فجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إلاّ كَبيراً لهُمْ لعلَهُمْ إليْهِ يَرْجِعُون . قالوا : منْ فَعلَ هذا بآلهتنَا إنّهُ لمنَ الظالمين . قالُوا : سَمِعْنَا فتىً يَذْكُرُهُمْ يقالُ لَهُ إبراهيم . قالُوا فأتُوا بِهِ على أعْيُنِ الناسِ لَعلّهُمْ يَشْهَدُون . قالُوا أأنْتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قالَ : بَلْ فَعَلَهُ كبيرهُمْ هذا فاسألوهُمْ إنْ كانوا يَنْطِقُون . فرجَعُوا إلى أنفسِهِم فقالوا إنكُم أنتمُ الظالمونَ . ثُمّ نُكِسُوا على رؤوسِهِم لقد عَلِمتَ ما هؤلاء يَنْطِقُون . قالَ أفتعبُدونَ منْ دونِ اللهِ ما لا ينفعُكُم شيئاً ولا يضُرّكُمْ أُفٍّ لكُم ولما تعبدُون من دونِ الله أفلا تعقلون ؟ قالوا حَرّقُوه وانصُرُوا آلهتَكُم إنْ كُنتم فاعلين . قُلْنَا يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. وأرادوا به كَيْداً فجعلناهُمُ الأخْسَرين﴾ .

زواج ابراهيم عليه السلام :

لما شبّ ابراهيم وكبر تزوج بامرأة تسمى (سارة) وكانت سارة امرأة عقيماً لا تلد ، ولذلك تزوج معها (هاجر) أم اسماعيل عليه السلام ثم رزقه الله على الكبر ولداً من (سارة) يسمى (اسحق) وذلك بعد أن بشرتها الملائكة به فصكّت وجهها وقالت ﴿ يا ويْلَتى أألدُ وأنا عجوزٌ وهذا بعلي شيخاً إنّ هذا لشيءٌ عجيبٌ ؟؟﴾ فأجابتها الملائكة ﴿أتعجبين منْ أمْرِ اللهِ ؟ رحمةُ اللهِ وبركاتُهُ عليكُمْ أهلَ البيتِ ، إنه حميدٌ مجيدٌ﴾ .

وهكذا رزق الله ابراهيم الخليل ولداً من سارة على الكبر فكان ذلك آية على قدرة الله تبارك وتعالى واستجابة لدعوة الخليل عليه السلام ﴿الحمدُ للهِ الذي وَهَبَ لي على الكِبرِ اسماعيلَ واسحقَ إنّ ربي لَسميعُ الدعاء﴾. وقد هاجر ابراهيم مع والده وزوجته فخرجوا من أرض (الكلدانيين) إلى أرض (الكنعانيين) وهي بلاد بيت المقدس ، فأقاموا قريباً منها في منطقة تسمى (حرّان) وفيها توفي والد ابراهيم وعمره حين الوفاة ٢٥٠ عاماً . وكان أهل (حرّان) يعبدون الكواكب السبعة فكانوا من الصابئة وقد انتشرت بينهم الوثنية وعبادة الأفلاك .

قال (ابن كثير) في تاريخه :

والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال ، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها ، ويعملون لها أعياداً وقرابين وهكذا كان كلّ أهل حرّان يعبدون الكواكب والأصنام ، وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى ابراهيم الخليل وامرأته، وابن أخيه لوط عليهم السلام ، وكان الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به تلك الشرور وأبطل به ذلك الضلال ، فإن الله سبحانه وتعالى آتاه رشده في صغره ،، وابتعثه رسولاً ، واتخذه خليلاً في كبره قال تعالى ﴿ولقدْ آتيْنَا إبراهيمَ رشْدَهُ منْ قَبْلُ وكُنّا به عالمين[1]﴾ .

(١) البداية والنهاية لابن كثير .

مناظرة ابراهيم الخليل للنمرود :

عاش ابراهيم الخليل في زمنٍ عصيب ، كان الناس فيه على حياة الشرك وقمة الضلال ، وقد ظهر في زمانه ذلك الملك الجبّار المتمرد ، الذي ادّعى لنفسه الربوبية ، ونازع الله في عظمته وسلطانه ، فادّعى أنه الإله من دون الله ، وهذا الجبّار يسمى (النمرود بن كنعان) وكان أحد ملوك الدنيا الأربعة ، فإنه قد ملك الدنيا — فيما ذكروا — أربعة : مؤمنان ، وكافران .. أما المؤمنان فهما (ذو القرنين) الذي ذكره القرآن في سورة الكهف ، و (سليمان بن داود) عليهما السلام . وأمّا الكافران فهما (النمرود) و (بختنصر) وأمّا غيرهم فلم يملك الدنيا وإنما ملك بلداً أو بلاداً منها مثل (فرعون) فقد كان يملك أرض مصر ..

وقد ذكر المؤرخون أن (النمرود) هذا قد استمرّ في ملكه ٤٠٠ سنة وكان قد طغى وبغى ، وتكبّر وتجبّر ، وادّعى لنفسه الربوبية فناظره الخليل عليه السلام ، فسفّه عقله وأبطل حجّته وألقمه الحجر ، وكانت أول مناظرة معه أنه حينما دخل عليه الخليل سأله (النمرود) : من ربّك يا إبراهيم ؟ وهل لك ربّ غيري ؟ فأجابه الخليل بكلام العقل والإيمان قال : ﴿رَبِّي الذي يُحيي ويُميتُ﴾ أي إنه الإله العظيم القادر ، الذي يحيي الإنسان من العدم ثم يميته ثم يبعثه فهو على كل شيء قدير ، فالإحياء والإماتة مظهر من مظاهر قدرة الله ، ولكنّ النمرود السفيه الأحمق ضحك منه ساخراً وعارضه بقوله : ﴿أنا أحيي وأميت﴾ أي أنني استطيع أن أفعل ما يفعله إلهك ، قال له وكيف ؟ قال انتظر فدعى حاجبه فقال له اذهب فائتني برجلين من السجن قد استوجبا القتل (أي حكم عليهما بالإعدام) فذهب الحاجب فأتى له برجلين فوقفا بين يديه فأمر الجلاّد أن يضرب عنق أحدهما فضربه فمات ، فقال النمرود هذا أمتّه وأمر بإطلاق سراح الثاني فأطلق فقال : وهذا أحييته .. وهكذا بمنتهى السخف والحماقة أراد أن يظهر قدرته على (الإحياء والإماته) اللتان هما من خصائص قدرة الله ومن صفاته الأزلية ، بهذه الطريقة السخيفة الهزلية ، أعدم انساناً فأماته ، وعفى

عن آخر فأحياه ، وذلك هو منتهى الجهل والغباء .. فلما رأى الخليل عليه السلام حقارته وقلة عقله ، وغباء تفكيره انتقل معه إلى أمر لا يمكنه اللجاج فيه والجدل لأنه أمر قاطع ، يقصم ظهر المكابر ، ويلجم كل معاند فقال له الخليل ﴿ إن الله يأتي بالشمس من المشرق ، فأتِ بها من المغرب﴾ وهنا الحجة الدامغة التي لا تنفع معها المجادلة والمكابرة ، لأنها أمر بيّن : إن كنت حقاً إلهاً تستطيع أن تفعل كل شيء فغيّر نظام الكون ، وغيّر نظام الحياة ، أطلع الشمس من المغرب وهنا انقطع الجدل وبهت الذي كفر .. قال تعالى: ﴿ألمْ ترَ إلى الذي حاجَّ إبراهيمَ في ربهِ أنْ آتاهُ اللهُ الملكَ ، إذ قالَ إبراهيمُ ربي الذي يُحيي ويميتُ قالَ : أنا أحيي وأميتُ ، قالَ إبراهيمُ : فإنّ اللهَ يأتي بالشمسِ منَ المشرقِ فأتِ بها منَ المغربِ ، فبُهتَ الذي كَفَرَ ، واللهُ لا يهدي القومَ الظالمين﴾ وهكذا جلجل صوت الحق وخفت صوت الباطل (فالحق أبلج والباطل لجلج).

وقد ذكر (السدّي) أن هذه المناظرة كانت بين ابراهيم والنمرود يوم خروجه من النار ولم يكن اجتمع به يومئذ ، فكانت بينهما هذه المناظرة .

رحلة ابراهيم إلى مصر :

عمّ القحط وشمل الجدب بلاد الشام وفلسطين كلها ، فرحل إبراهيم عليه السلام إلى مصر ، تصحبه زوجه (سارة) وكانت سارة ذات جمال باهر ، فوشي بها أحد بطانة السوء إلى الملك وكان رجلاً جباراً ، وهو أحد ملوك العرب العماليق واسمه (سنان بن علوان) وكان من عادة هذا الطاغية الجبّار أنه لا يسمع برجلٍ عنده امرأة جميلة إلاّ وأخذها منه اغتصاباً ، فلمّا نزل إبراهيم أرض مصر أراد هذا الفاجر أن يعتدي على (سارة) زوج ابراهيم ويستأثر بها لنفسه ، فدعاه وسأله عمّا يربطها به من قرابة ، فقال له إبراهيم هي (أختي) وقصد بذلك أخوّة الدين ﴿إنّما المؤمنون إخوة﴾ فأمر به فأُخرج ، فأتى (سارة) فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنّك امرأتي يغلبني عليك ، فإن سألك فأخبريه أنّك أختي — فإنّك أختي في الإسلام — ليس على وجه الأرض مؤمن غيري

وغيرك ، فأرسل إليها الملك الجبار فأتي بها فلمّا دخلت عليه فتن بجمالها فسألها عن إبراهيم فأخبرته أنها أخته ، ولكنّ الفاجر أراد بها السوء فمدّ يده إليها يريد أن يجذبها نحوه فيبست يده فلم يعد يستطيع حراكها ، واضطرب حتى كاد يصعق من شدة الهول والفزع ، فقال لها : ادعي الله لي ولا أضرّك ، فدعت الله فأطلق ، فلما عاد إلى حالته الأولى حدثته نفسه الغدر بها مرة ثانية ، فأُخِذَ مثل الأولى أو أشدّ ، فطلب منها أن تدعو الله له على أن يطلق سراحها ولا يمسها بسوء ، فدعت الله فعاد كما كان ، فدعا بعض حجبته فقال : إنك لم تأتني بإنسان إنّما أتيتني بشيطان ، فأمر بها أن تطلق ، وأخدمها جارية من جواريه تسمّى (هاجر) وكان ابراهيم من وقت ذهابها إلى الملك قام يصلي لله عزّ وجل ويسأله أن يدفع عن أهله السوء ، فلما أقبلت أومأ إليها ابراهيم بيده يسألها فقالت : ردّ الله كيد الكافر في نحره وأخدمني هاجر[1] ، قال أبو هريرة فتلك أمكم يا بني ماء السماء ، فعصمها الله وصانها اكراماً لخليله عليه السلام .

ولادة إسماعيل عليه السلام :

هاجر سيدنا إبراهيم من مصر إلى فلسطين ومعه زوجه (سارة) وأمتها (هاجر) وكانت سارة عقيماً لا تلد ، وكان يحزنها أن ترى زوجها وحيداً ليس له ولد ، وقد أصبحت هي على حال لا يرجى أن تأتي بعده بوليد ، لأنها قد جاوزت سنّ السبعين ، وبلغت من الكبر عتياً ، فأشارت على زوجها أن يدخل بأمتها بعد أن وهبتها له ، لعلّ الله يرزقه منها غلاماً زكياً تشرق به حياتهما ويكون عوناً لأبيه على تحمّل مشاق الحياة ، فاستجاب إبراهيم لرأيها وخضع لإشارتها فلما تزوج (هاجر) أنجبت له غلاماً زكياً هو سيدنا (اسماعيل) عليه السلام الذي كان من نسله خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وهناك انتعشت نفس ابراهيم بعد أن رزقه الله هذا الغلام على كبر من السن حيث كان قد بلغ من العمر ٨٦ سنة .. ولعلّ (سارة) قدشاركت

(١) القصة رواها البخاري ومسلم وهي في كتب الصحاح .

إبراهيم في سروره ، ولكنّ الغيرة لم تلبث أن دبّت إلى قلبها ، بل عصفت بها أعاصير كثيرة من الحزن والألم ، فحرمت الهدوء والهجوع ، وأصبحت لا تطيق النظر إلى الغلام ولا تحتمل رؤية هاجر ، فلم تجد دواءً لقلبها العليل إلاّ أن تطلب من إبراهيم أن يقصيها هي وولدها عن دارها ، وأن يبعدها عن عينها ـ وذلك لحكمة يريدها الله ـ وكان الله قد أوحى إليه أن يطيع أمرها ، ويستجيب إلى رجائها .. فأخذهما إبراهيم وسار بهما يقطع الصحاري والقفار ، حتى بلغ جبال مكة الجرداء ، فوضعهما في ذلك المكان القفر ، الذي ليس به ساكن ولا سمير ، ولم يكن بمكة في ذلك الوقت أحد ، ولم يكن بها دار أو بنيان ، تركهما في ذلك المكان المقفر عند دوحة قرب زمزم ، وترك لهما جراباً (أي كيساً) فيه تمر ، وسقاءً فيه ماء ، ثمّ أراد العودة إلى بلاد فلسطين ، فلحقته أم اسماعيل وهي تقول : يا إبراهيم أين تتركنا في هذا المكان الذي ليس فيه سمير ولا أنيس ؟ فجعل لا يلتفت إليها مخافة أن تصدّه عن تنفيذ أمر الله ، وجعلت تكرّر القول وهو لا يلتفت فقالت له عند ذلك : « آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذا لن يضيّعنا الله » .

الله أكبر .. إنه الإيمان الذي يصنع الأعاجيب ، ويأتي بالغرائب التي تكاد لا تصدّق ، فكيف تطمئن نفس إبراهيم إلى أن يترك وليده الرضيع مع أمه في مكانٍ موحش قفر ، ليس به ساكن ولا سمير ولا أنيس ! !

وكيف رضيت (هاجر) أن تبقى وحيدة فريدة في بقعة جرداء ، ليس فيها طعام ولا ماء ، وتتعرّض للجوع القاتل ، والعطش المميت ، والذئاب الموحشة الضارية ؟! إنه الإيمان الذي عمر قلب إبراهيم وزوجه هاجر ، حتى ضحيّا براحتهما في سبيل تنفيذ أمر الله . ولمّا ابتعد إبراهيم عن زوجه وولده قليلاً التفت جهة البيت ووقف يدعو بهذه الدعوات : « ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من النّاس تهوي إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

نبع زمزم وبناء البيت العتيق :

بقيت هاجر ترضع ولدها اسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى نفذ ما في السقاء ، فعطشت وعطش ابنها وجعل ولدها يبكي يتلوّى من شدة العطش فانطلقت تفتش له عن ماء فوجدت (الصفا) أقرب جبلٍ يليها فصعدت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً فهبطت من الصفا حتى بلغت الوادي ، وسعت سعيَ المجهود حتى وصلت إلى جبل (المروة) فصعدت عليه ونظرت فلم تجد أحداً ، فأخذت تذهب وتجيء بين (الصفا والمروة) سبع مرات ، وبينما هي على المروة سمعت صوتاً فقالت : أغثنا إنْ كان عندك غواث ، فرأت ملكاً – وهو جبريل – يضرب بعقبه – وقيل بجناحه – الأرض حتى ظهر الماء فنبعت زمزم ، فجعلت أم اسماعيل تحوّط الماء وتغرف منه بسقائها وهو يفور بعدما تغرف ، ثمّ قال لها ذلك الملك : لا تخافي الضيعة (الضياع) فإنّ لله ههنا بيتاً – وأشار إلى أكمة مرتفعة من الأرض – يبنيها هذا الغلام وأبوه .. ثم غاب الملك عنها ، وبدأت الطير ترد إلى الماء وتحوم حوله ومرت قبيلة (جرهم) فرأوا الطير فاستدلوا على وجود الماء فوصلوا إلى (زمزم) واستأذنوا من أم اسماعيل أن يضربوا خيامهم قريباً منها فأذنت لهم واستأنست بوجودهم ، ثم تكاثرت البيوت ، وشبّ اسماعيل وتزوج من القبيلة وتعلّم العربية منهم وأصبحت مكة مأهولة بالسكان منذ ذلك الحين بعد أن كانت قفراً موحشاً . وتوفيت (هاجر) وإبراهيم عليه السلام لا يزال بعيداً عنها في أرض فلسطين ، ثمّ بعد مرور سنين عديدة حنّ قلب ابراهيم إلى رؤية زوجه وولده فأخذ يقطع الصحارى والقفار حتى وصل إلى مكة فلم يجد زوجه ، ووجد ولده يبري نبلاً ، فلما رآه عرفه ابراهيم فعانقه وصنع به كما يصنع الوالد بولده ثم قال يا اسماعيل : إن الله أمرني بأمر قال فاصنع ما أمرك به ربك .. قال : وتعينني ، قال : وأعينك ، قال : فإنّ الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً وأشار إلى التلّ المرتفع قرب زمزم ، فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل (اسماعيل) يأتي بالحجارة و (ابراهيم) يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر (المقام)

فوضعه له فقام عليه وهو يبني واسماعيل يناوله وهما يقولان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أنْتَ السميعُ العليمُ﴾ حتّى انتهيا من بناء الكعبة المشرفة[١] ومنذ ذلك الحين عمرت مكة المكرمة .

قصة الذبيح إسماعيل .

رأى ابراهيم عليه السلام في منامه رؤيا – ورؤيا الأنبياء حق[٢] – رأى أنّ الله تعالى يأمره بذبح ولده البِكْر (اسماعيل) عليه السلام الذي لم يكن له ولد غيره ، وقد رُزِقَهُ على كِبَرٍ وشيخوخة ، فما كان من إبراهيم عليه السلام بعد أن استيقظ من النوم إلاّ أن سارع لتنفيذ أمر الله ، دون تلكؤْ أو تردّد ، ولكنه أراد أن يختبر ولده ، ويرى مقدار استجابته وطاعته لله فقال له : ﴿يا بُنَيّ إنّي أرَى في المنامِ أنّي أذْبحكَ فانْظُرْ ماذا تَرَى ؟﴾.

عرض عليه ذلك الأمر ليكون أطيب لقلبه ، وأهون عليه من الأخذ بالقوة فبادر الغلام الحليم ، سرّ والده الخليل إلى الطاعة ، وأسرع إلى الإجابة فقال ﴿يا أبَتِ افعلْ ما تُؤْمَرْ ستجدنيُ إنْ شاءَ اللهُ منَ الصابرين﴾ .

بِرّ عظيم ، وتوفيق من الله كبير ، وإيمان يزعزع الجبال – من الوالد وولده – تظهر فيها «العبودية » لله على أكمل صورها ، من الأب وابنه ، الأب يؤمر فيسارع إلى تنفيذ أمر الله ، والولد يستشار فيلبي طائعاً مستسلماً لحكم الله كأن الأمر جرعة من ماء . أراد الولد أن يخفّف عن أبيه لوعة الثُكل ، ويرشده إلى أقرب السُبل ، ليصل إلى قصده فقال : يا أبتِ اجعل لي وثاقاً ، واحكم رباطي حتّى لا اضطرب ، واشحذ شفرتك ، وأسرع إمرارها على حلقي ، ليكون أهون عليّ ، فإنّ الموت شديد ، ووقعه أليم .. فقال له إبراهيم : (نعم العون أنت يا بنيّ على تنفيذ أمر الله) ثمّ ضمّه إلى صدره ، وأخذ يقبّله ويودّعه الوداع الأخير .

---

(١) انظر صحيح البخاري .
(٢) في الحديث عن ابن عباس مرفوعاً « رؤيا الانبياء وحي » .

ثم أسلم ابراهيم ابنه فصرعه على شقه ، وأوثقه بكتافه ، ووضع السكّين على حلقه ، وأمرّها فوق عنقه ، ولكنها لم تقطع فقد انقلبت في يده وكأنها قطعة من الخشب ، فقال له إسماعيل : يا أبتِ كبّني على وجهي ، فإنك إذا نظرت إليّ أدركتك رحمة بي تحول بينك وبين أمر الله .. ففعل ثم وضع السكّين على قفاه فلم تمض الشفرة لأنّ الله تعالى قد سلبها خاصيّة القطع ، عند ذلك جاء النداء الإلهي ﴿وناديناه أنْ يا ابراهيمُ قدْ صدّقْتَ الرؤيا ، إنّا كذلكَ نجزي المحسنين إنّ هذا لهوَ البلاءُ المبينُ . وفديناه بذبحٍ عظيمٍ﴾ .

من هو الذبيح ؟

تقدّم معنا أن الولد الذي أمر بذبحه ابراهيم هو (اسماعيل) الذي هو من نسل (هاجر) وهذا هو الرأي الصحيح المعتمد الذي عليه أكثر العلماء ، ذلك لأن هذه القصة وقعت في مكه ، و (إسماعيل) هو الذي كان مقيماً بمكة ، واسحق لا يُعْلم أنه قدم مكة في حال صغره .. ويعتقد أهل الكتاب ان الذبيح (اسحق) لا اسماعيل وهو مردودٌ باطل لمخالفته لظاهر النصوص القرآنية .

يقول ابن كثير رحمه‌الله : والظاهر من القرآن بل كأنه نص صريح على أنّ الذبيح هو (اسماعيل) لأن الله تعالى ذكر قصته الذبيح ثم قال (وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين) فالبشارة كانت بعد تلك الحادثة التي ظهر فيها إيمان ابراهيم وطاعته لله فأكرمه الله بولدٍ آخر وبشّره بإسحق ، ومن ادّعى أنه (اسحق) فقد اعتمد على روايات اسرائيلية ، وكتابهم فيه تحريف ، فإن عندهم في التوراة أن الله أمر ابراهيم أنّ يذبح أبنه بكره وإسماعيل هو البكر ، وإنما حملهم على هذا حسدُ العرب ، فإنّ إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ وإسحق والد (يعقوب) وهو اسرائيل الذين ينتسبون إليه فأرادوا أن يجرّوا هذا الشرف إليهم فحرّفوا كلام الله وزادوا فيه ، وهم قوم بُهْتٌ ، ولم يقرّوا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

ومن قال من السلف بأنّ الذبيح هو (إسحق) فإنما أخذوه من (كعب

الأحبار) أو صحف أهل الكتاب ، وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ، ولا يفهم هذا من القرآن ، بل المفهوم بل المنطوق، بل النص عند التأمل على أنه (إسماعيل) وما أحسن ما استدل به (القرظي) على أنه اسماعيل وليس إسحاق وذلك من قوله تعالى (فبشّرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) قال : فكيف تقع البشارة بإسحق وأنه سيولد له يعقوب ، ثم يؤمر بذبح اسحق وهو صغير قبل أن يولد له ، هذا لا يكون لأنه يناقض البشارة المتقدمة[1] .

« ويروى أنّ (عمر بن عبد العزيز) سأل يهودياً كان قد أسلم عن الذبيح الذي أمر إبراهيم بذبحه فقال هو (اسماعيل) ثم قال : والله يا أمير المؤمنين إنّ اليهود لتعلم بذلك ، ولكنّهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه ، والفضل الذي ذكره الله له فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحق لأن اسحق أبوهم[2] .

وقد اشتهر أنّ النبي ﷺ يدعى ابن الذبيحين والمراد بهما (اسماعيل ، وعبد الله) .

وفاة سيدنا إبراهيم :

وقد عاش سيدنا ابراهيم ١٧٥ مائة وخمساً وسبعين سنة على أصح الروايات ولما انتقل إلى جوار الله دفنه ولداه في مغارة (المكفيلة) التي دفنت فيه سارة من قبل وهو في البلدة التي تسمى (الخليل) الآن وكانت تسمى من قبل (قرية أربع) أمّا اسماعيل فقد عاش ١٣٧ سنة ودفن بمكة قريباً من الحِجْر الذي بجوار البيت العتيق قرب أمه هاجر صلوات الله عليهم أجمعين والحمد لله رب العالمين .

---

(١) انظر البداية والنهاية ص١٥٨ الجزء الأول .

(٢) نفس المرجع ص١٦٠ .

٣ - موسى بن عمران عليه السلام

﴿واذْكُرْ في الكتابِ مُوسى إنّهُ كانَ مُخْلَصاً وكانَ رسُولاً نَبيّاً﴾.

ذكرت قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كثير من سور القرآن الكريم بوجوه عديدة وأساليب متنوعة ، كما ذكرت قصة (بني اسرائيل) مع موسى موضّحَة ، مفصّلة ، مبيّنة على أجمل بيان ، وأوضح تفصيل ، وخاصةً في سورتَيْ (الأعراف والقَصَص) .

وقصةُ (موسى) عليه السلام مع (فرعون) ليست قصة فرد مع مَلِك وليست قصة نبيّ كريم مع جبّارٍ عظيم ، إنما هي قصة تتكرّر في كل زمان ومكان ، وتبرز في كل وقتٍ وحين ، وهي تصوّر حقيقة واقعية أليمة .. تصوّر الصراع بين الحق والباطل ، وتصوّر المعركة الضارية بين جند الرحمن ، وجند الشيطان .. تلك المعركة التي قامت بين أولياء الله وأعداء الله ، منذ فجر هذا الوجود ، ومنذ أن ظهر على مسرح الحياة الدعاة والمصلحون ، والأنبياء والمرسلون .!

لقد وقف « الطغيان » بجانب الكثْرة الكثيرة من دعاة الباطل ، ومن جند « إبليس » يتحدى الإيمان ، ويتحدى التوحيد ، ويتحدى الرسالات السماوية.. ووقف « الحق » بجانب القلة القليلة ، من الصفوة الأخيار ، من الأنبياء والمرسلين والدعاة والمصلحين . واحتدمت المعركة بين الإيمان والكفر ، وبين الحق والطغيان وكانت النتيجة ان انتصر الإيمان على الكفر وعلا الحق على الباطل ، بعد صراع عنيف ، وعِراك شديد وكان النصر بجانب المؤمن وصدق الله حيث يقول : ﴿إنّا لننصُرُ رُسُلَنَا والذينَ آمنُوا في الحياةِ الدُنيا ويومَ يَقومُ الأشهادُ﴾ ..

وهذه هي سنّة الله في الحياة ولن تجد لسنّة الله تبديلا . لقد وقف الشرّ مجسّماً في صورة خصم عنيد ، لا يلين ، ولا يسالم .. بل يريد أن يقضي على دعوة ربانية تهدف إلى الخير ، وتدعو إلى المحبة ، والاخوة ، والإنسانية ، وتسعى لتحقيق العدل والسلام بين أهل الأرض قاطبة !.

وقف الشرّ مكشراً عن أنيابه ، عابساً ، مزمجراً ، يتميّز غيظاً ، يريد أن يبطش بتلك الصفوة الكريمة ، الطاهرة ، من أنبياء الله وأوليائه المقربين .. ويتمثل هذا بجلاء ووضوح فيما قصه علينا القرآن الكريم من إنذار وتهديد تعرّض له الرسل الكرام من جانب الطغاة والمجرمين استمع إلى قوله تعالى :

﴿وقال الذين كفروا لرُسلهم لنخرجنّكم مِنْ أرضنا أو لتعودُنّ في ملّتنا ! فأوحى إليهم ربّهُم لنُهْلِكَنّ الظالمين . ولنُسْكِنَنّكُم الأرضَ مِنْ بَعدِهم ذلكَ لمنْ خاف مقَامي وخاف وعيد . واستفتحوا وخابَ كلّ جبّار عنيد﴾ .

هذا هو منطق « الطغيان » في كل وقت وزمان ، لا يفهم حجة ولا برهاناً ولا يقيم وزناً لمنطق أو عقل ، إنما طريقه « البطش » و « الإرهاب » ، والتعذيب والتنكيل ﴿قال سنُقتّلُ أبناءَهم ونسْتحيي نساءَهم ، وإنّا فوقَهم قاهرون﴾.

هذا هو منطق « فرعون » في زمن موسى .. وهو منطق « الفراعنة » في كل زمان ومكان . أمّا منطق الرسل فهو منطق العقل ، ومنطق الحكمة ، يتجلى في قول موسى عليه السلام لقومه بعد أن ذاقوا أنواع الأذى ، وصنوف البلاء:

﴿قالَ مُوسى لقومِه استعينُوا باللهِ واصْبِرُوا إنّ الأرضَ للهِ يورِثُها مَنْ يشاءُ مِنْ عِبادِه و العاقبةُ للمتقين﴾ . ومن هنا يتبين لنا وحدة الاتجاه ، ووحدة الهدف في دعوة جميع الأنبياء والمرسلين ، كما يظهر لنا اتفاق دعاة الباطل وأهل الضلال على غاية واحدة ، وهدف واحد ، فهي إذاً صور تتكرر في كل وقت وحين للصراع بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، ونتيجتها أيضاً واحدة وهي انتصار أصحاب العقيدة وأهل الإيمان ، وانهزام فئة البغي والعدوان ، وتتمثل هذه النتيجة في قول الله تعالى ﴿ونُريدُ أنْ نَمنّ على الذينَ

استُضْعِفُوا في الأرضِ ونجعلَهُمْ أئمةً ونجعلَهُم الوارثينَ ونُمكّنَ لهمْ في الأرضِ ، ونريَ فرعون وهامـان وجنودهما ما كانوا يحذرون﴾ .

وهذه هي العبرة من قصة موسى مع فرعون ، بل ومن قصص جميع الأنبياء والمرسلين .

نسبه : هو (موسى بن عمران) بن يصهر بن قاهث ، وينتهي نسبه إلى يعقوب عليه السلام ابن اسحق بن ابراهيم عليهم من الله أفضل الصلاة والتسليم وأخوه هو « هارون » عليه السلام الذي بعثه الله عضداً ومعيناً لموسى حين أراد أن يبعثه إلى « فرعون » لتبليغه رسالة الله ، وكان ذلك بدعوةٍ دعا بها موسى ﴿واجعلْ لي وَزيراً مِنْ أهْلي هارونَ أخي﴾ .

ولادته : ولد موسى عليه السلام في عهد الطاغية الأكبر « فرعون » عدوّ الله ، الذي اشتهر بالطغيان والجبروت ، فنازع الله في ملكه ، وادّعى الربوبية، وأعلن التمرد والعصيان وزعم أنه هو الإله المعبود من دون الله ، واسم ذلك الطاغية (الوليد بن مصعب) ولقبه « فرعون » وفرعون لقب لكل من ملك أرض مصر من الجبابرة ، كما أن (كسرى) لقب لكل من ملك بلاد الفرس ، و (قيصر) لقب لكل من ملك بلاد الروم .

تولى (فرعون) الملك بعد هلاك أخيه (قابوس) الذي دعاه (يوسف) عليه السلام إلى الإسلام فأبى وكان جباراً عنيداً ، وقد قبض الله سبحانه يوسف في عهد (قابوس) وطال ملكه ، واشتد أمره ثم هلك ، فلما تولى الملك أخوه وهو (فرعون) بني اسرائيل كان هذا الجبار أعتى من أخيه (قابوس) وأكفرَ وأفجر ، وامتدت أيام ملكه وأقام بنو اسرائيل بعد وفاة (يوسف) عليه السلام وهم على بقايا من دين آبائهم وهو دين ابراهيم دين الحنيفية السمحة حتى تولى المُلكَ عليهم فرعونُ الذي ذاقوا من أذاه وشره ما لم يذوقوه من قبل ولا من بعد ، لأنه لم يكن أشقى ولا أطغى منه وإليك الآيات الكريمة في سورة القصص :

﴿نتلُوا عليكَ مِنْ نَبأ موسى وفرعونَ بالحقِ لقومٍ يؤمنون . إنّ فِرْعَونَ

علا في الأرض وجعلَ أهلَها شيعاً ، يستضعِفُ طائفةً منهُم يُذبّحُ أبناءَهم ، ويستحْيِي نساءَهم ، إنهُ كانَ منَ المفسدينَ ونُريدُ أن نَمُنَّ على الذينَ استُضْعِفُوا في الأرضِ ونجعلَهُمْ أئمةً ونجعلَهُم الوارثين ونُمكِنَ لهم في الأرض ، ونُرِيَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ . نبأ : خبر ، علا : طغى وتجبّر شيعاً : أحزاباً وفِرَقاً ، نمُنّ : أي نعظم عليهم المِنة والفضل ، يستحيي نساءهم أي يتركهن على قيد الحياة فلا يقتلهن وذلك للخدمة وللأعمال المهنية .

مدّةُ مُلْك فرعون :

عمّر فرعون مدة تزيد عن ٤٠٠ سنة في بني اسرائيل وهو يسومهم سوء العذاب فيسخرهم ويستخدمهم في أخسِّ الأعمال وأحقرها ، وقد صنّفهم أصنافاً ، فصنف يبنون ، وصنف يحرثون ، وصنف يتولون الأعمال القذرة ، ومن لم يكن أهلاً للعمل فعليه الجزية كما قال تعالى ﴿وإذْ نَجّيْنَاكُمْ من آلِ فرعونَ يسومونَكُمْ سوءَ العذاب ..﴾ الآية . فلما أراد الله سبحانه وتعالى أن يُفَرّجَ عن بني اسرائيل بعث إليهم (موسى) عليه السلام لينقذهم من شر هذا الطاغية الجبار ويخلصهم من ظلمه وطغيانه ، فكانت بعثة (موسى) عليه السلام رحمة لبني اسرائيل وانقاذاً لهم من ظلم ذلك الجبار العنيد .

الروْيا المنامية :

ذكر (الثعلبي) في كتابه قصص الأنبياء عن « السدّي » أن فرعون رأى في منامه رؤيا أفزعته فاهتّم لها واغتمّ .. رأى كأنّ ناراً قد أقبلت من بيت المقدس حتى وصلت إلى بلاد مصر ،وأحاطت بدورها وبيوتها فأحرقتها وأحرقت القبط وتركت بني اسرائيل دون أذى فدعا فرعون الكهنة ، والسحرة ، والمنجمين وسألهم عن هذه الرؤيا التي رآها في منامه فأوّلوها له وقالوا : سيولد في بني اسرائيل غلام يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه ويكون ذهاب ملكك على يديه أيضاً ، ويخرجك وقومك من بلدك ، ويبدّل دينك ، وقد أظلّك زمانه

الذي يولد فيه .. فأمر فرعون الطاغية أن يقتل كل غلام يولد في بني اسرائيل وجمع القابلات وقال لهن : لا يولد على أيديكنّ غلام من بني اسرائيل إلا قتلتهنه ووكلّ بهن وكلاء ، فكانت القابلة تنفّذ أمر فرعون فتقتل كل مولود ذكر من أطفال بني اسرائيل خوفاً من فرعون وبطشه ، وأما الإناث فكنّ لا يُقتلن بل يبقين على قيد الحياة من أجل الخدمة والتسخير ، وذلك معنى قوله تعالى ﴿يذَبّحون أبناءَكم ويستحيُون نساءَكم﴾ ، وأمر فرعون كذلك بقتل الغلمان الذين هم في وقته ، وبقتل مَنْ بعدهم ، وأخذ جنوده يعذّبون (الحبالى) من نساء بني اسرائيل حتى كانت المرأة تسقط حملها ، وأسرع الموت في الشيوخ الكبار من بني اسرائيل فدخل رؤساء القبط على فرعون وقالوا له : إنّ الموت قد وقع في مشيخة بني اسرائيل (أي الكبار منهم) وأنت تقتل صغارهم فيوشك أن يقع العمل علينا ، ولا يبقى أحد للخدمة غيرنا ، فأمر أن يقتل الغلمان سنة ، ويتركوا سنة حتى لا يهلك جميع أبناء بني اسرائيل .

متى ولد هارون ومتى ولد موسى ؟

بعد شدة العذاب على بني اسرائيل بتقتيل أبنائهم أمر فرعون — بإشارة رؤساء القبط — أن يُقتلَ الذكور عاماً ويتركوا عاماً ، فولد (هارون في السنة التي لا يذبح فيها أحد فترِك وولد (موسى) في السنة التي يذبحون فيها ، فأمّا هرون فقد ولدته أمه علانية آمنة مطمئنة ، وأما موسى فقد صادفت ولادته العام الذي يذبح فيه الأطفال ، فلما قرب وقت الوضع حزنت أمه واشتد غمّها فأوحى الله إليها — بواسطة الإلهام — ألا تخاف ولا تحزن لأن هذا المولود سيكون له شأن عظيم ، وسيحفظه الله تعالى من كيد فرعون ثم يجعله من المرسلين وقذف في قلبها السكينة ، وأمرها أن ترضعه حتى إذا خافت عليه تصنع له تابوتاً من خشب ثم تضعه فيه وتلقيه في البحر ، وألا تخاف عليه الهلاك لأنه في حفظ الله ورعايته وكفى بالله حافظاً ، وكفى به ناصراً .. اقرأ الآيات الكريمة في سورة « القصص » :

﴿وأوحيْنَا إلى أمّ ِ موسى أنْ أرضِعيه ، فإذا خِفت عليه فألْقيه في اليَمّ ِ ولا تخافي ولا تَحْزني ، إنّا رادّوه إليكِ وجاعلُوه مِنَ المرْسَلين . فالتَقطَه آلُ فِرعونَ ليكون لهم عدوّاً وحَزَناً ، إنّ فرعونَ وهامانَ وجنودَهُما كانوا خاطئين﴾ .

حفظ الله لموسى وتربيته في بيت فرعون :

وقد ولدته أمه خفيةً ، وجعلت ترضعه وهي واثقة من حفظ الله تعالى له، فلمّا خشيت عليه من السفّاحين من زبانية فرعون اتخذت صندوقاً وجعلت فيه قطناً ثمّ وضعت فيه وليدها ، وأقفلت الصندوق ، وألقته في النيل ، وأمرت أخته أن تتبّع أثره وقد فعلت ذلك كلّه بوحي من الله سبحانه (أي بإلهام منه وإرشاد) وهي على يقين من أن الله سبحانه سيحفظ لها هذا المولود ، ويرده إليها ، ولن يستطيع فرعون قتله حتى ولو أصبح بين يديه . فلما ألقته في النيل انطلق الماء به يرفعه الموج مرة ، ويخفضه أخرى حتى وصل إلى بيت فرعون وبينما كانت الجواري يغتسلن ويستقين أبصرن هذا (التابوت) فأخذنه وظنَنّ أن فيه مالاً ، فحملنه على حالته حتى وصلن به إلى سيدتّهن (آسية) زوجة فرعون فلما فتحته رأت فيه الغلام ، فألقى الله تعالى محبته في قلبها ، فلما جاء زوجها (فرعون) ورأى الغلام أراد قتله وطلب الذبّاحين ليذبحوه فالتمست منه أن يتركه لها لأنها لم تكن تلد وقالت كما قصّ القرآن الكريم ﴿وقالَتْ امرأةُ فرعونَ قُرَةَ عينٍ لي ولَكَ لا تَقْتُلُوهُ عسى أنْ ينفعَنا أو نتخِذَهُ وَلَداً﴾ الآية.

فقال لها فرعون قرة عين لكِ أمّا لي فلا حاجة لي فيه ، قال بعضهم : لو قال «قرة عين لي» لهداه الله به إلى الإسلام كما هدى (آسية) ولكن رفض ذلك فلم يسعد ولم يهتد بل بقي شقياً .

تحريم المراضع على موسى :

وعاش (موسى) في بيت فرعون عند (آسية) التي استوهبته من فرعون

فوهبه لها ، وقد ألقى الله محبته في قلبها ، كما أحبّه فرعون وعطف عليه ، وهذا تصديق لقول الله تعالى ﴿وأَلْقيتُ عليكَ مَحبّةً منّي ولِتُصْنَع على عيني﴾ وأخذت (آسية) تبحث له عن مرضع لتكون له ظِئْراً ترضعه وتربّيه ، فكان يمتنع عن قبول ثديها ، واشتد به الجوع واشتد به البكاء وهو لا يقبل ثدي أحد من المرضعات حتى خشيت عليه امرأة فرعون من الهلاك فأخذت بنفسها تفتش له عن مرضع . ورأت أختُ موسى ذلك وهي ترقبه من بُعْد فجاءت إلى آسية امرأة فرعون وعرضت عليها ان تأتي لها بأمرأة مرضعة ، أمينة ناصحة ، تتعهد هذا الرضيع مقابل أجرٍ لها فقالت لها امرأة فرعون ائتيني بها فإن أخذ ثديها أكرمتها بأنواع من الإكرام فانطلقت حتى جاءت إلى أمه فأخبرتها الخبرَ ، فأتت أمه فلما رأته كادت تقول هذا ابني لولا أن ثبّتها الله حتى لا يشعر آل فرعون بأن هذه هي أمه ، فلما وضعته في حجرها التقم ثديها وأخذ يرضعه بنهم ولَذّة حتى ارتوى وملأ جنبيه ، ففرحت (آسية) فرحاً عظيماً وطلبت منها ان تمكث في القصر عندها لترضع لها هذا الغلام ، ووعدتها بأن تعطيها أنواع الهدايا وتكرمها بأنواع الإكرام ، فأظهرت (أمّ موسى) العفّة وقالت لها إن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي وأتعهده بالعطف والرعاية كما أتعهد ولدي وأنا لا أستطيع أن أدع بيتي وأولادي من أجل هذا الغلام فرضيت (آسية) أن تدفعه لها على أن تأتي به في كل فترة لتراه ثم تعيده لها ، لأنه قد ملك بحبه قلبها ، وهكذا حقّق الله وعده فردّ موسى إلى أمه لترضعه وهي آمنة مطمئنة تحت كنف فرعون ورعايته . واقرأ الآيات الكريمة :

﴿وأصبحَ فؤادُ أمِّ موسى فارِغاً إنْ كادتْ لَتُبْدي به لولا أنْ رَبَطْنَا على قلبِها لتكونَ مِنَ المؤمنين . وقالتْ لأختِه قُصيّه فَبَصُرَتْ بهِ عن جُنُبٍ وهُمْ لا يشعرون . وحرّمْنَا عليهِ المراضِعَ منْ قبلُ فقالتْ : هلْ أدلكُم على أهْلِ بيتٍ يكفلُونَهُ لكُم وهُم لَهُ ناصحون ؟ فرَدَدْناهُ إلى أمهِ كَيْ تقرّ عينُها ولا تحزَنَ ، ولتعلَم أنّ وعدَ اللهِ حقٌ ولكنّ أكثرَهُم لا يؤمنون﴾ .

قتل موسى للقبطي وهربه إلى أرض مدين :

شبّ موسى في بيت فرعون ، وعاش فيه معززاً مكرماً ، وكان يعيش عيشة أبناء الملوك فيركب مراكب فرعون ، ويلبس ما يلبس فرعون ، وكان الناس يدعونه (موسى بن فرعون) فيحترمونه ويعظمونه من أجل أنه ابن الملك وترعرع موسى حتى إذا بلغ أشده دخل ذات يوم من الأيام المدينة ، وبينما هو يتجول في طرقها — وكان الوقت وقت ظهيرة والأسواق قد أغلقت والناس في بيوتهم قائلون — إذا هو برجلين يقتتلان ، أحدهما من بني اسرائيل والآخر قبطي من آل فرعون ، وهما يتضاربان ويتهاوشان ، وقد اعتدى القبطي على الإسرائيلي فلمّا مرّ موسى استغاثه الإسرائيلي ليخلّصه من شر ذلك القبطي فأقبل نحوه موسى يريد أن يمنعه عن الاعتداء ويدفع الأذى عن الإسرائيلي فوكزه (أي ضربه بجُمْع يده) فقضى عليه وخرّ القبطي على الأرض ميتاً لا حراك به ، ولم يرد موسى قتله إنما أراد إبعاده فكانت القاضية ، فحزن موسى على قتله ، وندم على ما حدث ، وتنحّى يستغفر الله ويطلب منه الرحمة والغفران ، ولم يكن أحد قد رآه حين قتل القبطي إلا الله تعالى والإسرائيلي ، فلما قتله أصبح في المدينة خائفاً يترقب الأخبار ، فأتى الأقباط فرعون وقالوا له إن بني اسرائيل قد قتلوا رجلاً منا ، فخذ لنا بحقّنا ، ولا تتساهل معهم فيجرءوا علينا فقال هل ائتوني بقاتله و بمن يشهد على قتله ، فبينما هم يطوفون يبحثون عن قاتله ويتلمّسون الأخبار إذ مرّ موسى عليه السلام فرأى ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونياً فاستغاثه الإسرائيلي على خصمه الفرعوني فجاء موسى مغضباً وهو يريد أن يبطش بالفرعوني ، ولكنّ الإسرائيلي ظنّ أنه يريده لأنه رأى في وجهه آثار الغضب وسمعه يقول : ﴿إنّكَ لَغوِيّ مُبينٌ﴾ فظنّ أنه يريده ليبطش به فقال له ﴿ياموسى أتريدُ أنْ تقتُلَني كما قتلتَ نفساً بالأمس ؟﴾ فسمع ذلك الفرعوني كلامه فتركه وذهب فوراً فأخبر جماعته بأن موسى هو الذي قتل القبطيّ بالأمس ، وخبّرهم بما سمع من الإسرائيلي فذهبوا إلى فرعون وأخبروه بالخبر فأمر جنده أن يبحثوا عن موسى ويأتوه به ليقتله حتى لا يتجرأ بنو اسرائيل على قتل أحد ، فذهبوا

يفتشون في طرقات المدينة عنه ، وجاء رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه وهو (حزقيل) فأخبر موسى بالخبر وأمره أن يخرج من أرض مصر لأن الجماعة يبحثون عنه يريدون قتله ، فتوجّه موسى إلى أرض (مدين) ودعا ربّه أن يهديه الطريق وينجيّه من شرّ فرعون ، ويأخذ العيون عنه حتى لا يبصره أحد من أعدائه اقرأ الآيات الكريمة في سورة القصص .

قال الله تعالى حكاية عن موسى :

﴿ودخلَ المدينةَ على حينِ غفلةٍ من أهلها ، فوجدَ فيها رجلَين يقتتلان هذا من شيعتِه وهذا مِن عدوّه ، فاستغاثَه الذي من شيعتِه على الذي من عدُوّه ، فوكَزَه موسى فقضى عليه ، قالَ هذا من عملِ الشيطانِ ، إنهُ عدوٌّ مضلٌّ مبينٌ . قالَ ربِّ إني ظلمتُ نفسي فاغفرْ لي ، فغفرَ له إنهُ هو الغفورُ الرحيمُ . قالَ ربِّ بما أنعمتَ عليّ فلنْ أكونَ ظهيراً للمجرمين . فأصبحَ في المدينةِ خائفاً يترقّب فإذا الذي استنصرَهُ بالأمسْ يستصرخُهُ قالَ له موسى إنكَ لغويّ مبين ، فلما أنْ أرادَ أنْ يبطشَ بالذي هو عدوٌّ لهما قالَ يا موسى أتريدُ أن تقتلَني كما قتلتَ نفساً بالأمس ؟ إن تريدُ إلا أنْ تكونَ جباراً في الأرضِ وما تريدُ أنْ تكونَ منَ المصلحينَ . وجاءَ رجلٌ منْ أقصى المدينةِ يسعى قالَ يا موسى إنّ الملأ يأتمرون بكَ ليقتلوكَ فاخرُجْ إني لكَ منَ الناصحين . فخرجَ منها خائفاً يترقبُ قالَ ربِّ نجني منَ القومِ الظالمينَ﴾ .

تزوج موسى بابنة شعيب ورعيه الغنم :

وخرج كليم الله من أرض مصر فاراً يريد النجاة ، وتوجه نحو أرض مدين ماشياً على قدميه يتلفت خشية أن يدركه أحد من آل فرعون ، ولم يكن معه زاد فكان يأكل ورق الشجر وبقي يمشي مسيرة ثمان ليالٍ حتى وصل إلى أرض مدين ، فجلس تحت ظل شجرةٍ وقد أنهكه الجوع والتعب قال (ابن عباس) : (خرج موسى من مصر إلى مدين وبينهما مسيرة ثمان ليالٍ ، لم يأكل إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فسقطت نعلا قدميه من الحفاء ، وجلس في الظل

وهو صفوة الله من خلقه وإنّ بطنه لاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل من داخل جوفه ، وإنّه لمحتاج إلى شِقّ تمرة) وبينما هو جالس للاستراحة أبصر ابنتين ترعيان الأغنام تريدان سقي أغنامهما من تلك البئر الكبيرة التي يسقى منها الرعاة ، ولكنهما كانتا تحبسان الغنم لئلا يختلط بغنم الآخرين فأشفق عليهما وسألهما عن سبب تعهدهما لرعاية الغنم بأنفسهما فأخبرتاه بأن أباهما شيخ كبير وليس عنده من الأولاد من يرعى له هذه الأغنام ولذلك فإنهما يتعهدان رعايتها وسقايتها فسقى لهما ثم جلس بجانب الظل يدعو ربه اقرأ الآيات الكريمة : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ .

وقد ذكر ابن كثير في تاريخه (البداية والنهاية) أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة ، فتجيء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما في فضل أغنام الناس ، فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده ثم استقى لهما وسقى غنمهما ثم ردّ الحجر ، وكان لا يرفعه إلا عشرة فرفعه موسى عليه السلام وحده وردّه وحده فلما رجعت الفتاتان إلى أبيهما أخبرتاه بخبر موسى وبقوته وطلبتا منه أن يكرمه على هذا الصنيع الجميل وأن يستأجره لرعاية الغنم فأرسل واحدة منهن لتدعوه إلى أبيها فجاءته وهي تمشي على استحياء فقالت له : ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، وانما صرّحت له بهذا لئلا يوهم كلامها الريبة ، وهذا من تمام حيائها وعفتها وصيانتها فلما جاءه وقصّ عليه قصته قال له (شعيب) لا تخف نجوت من القوم الظالمين ثم زوّجه بابنته على رعاية الغنم . قال (ابن كثير) . وقد اختلفوا في هذا الشيخ منْ هو ؟ فقيل إنه (شعيب) عليه السلام وهذا هو المشهور عند الكثيرين ونصّ عليه الحسن البصري وهو منقول عن مالك بن أنس وقد عاش شعيب عمراً طويلا بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته . وقيل : إنه ابن

أخي شعيب وقيل ابن عمه وليس هو شعيب النبي الذي أرسل إلى أهل مدين . والرأي الأول أرجح وهو الذي عليه الكثيرون من أهل التفسير .

ومكث موسى عليه السلام في أرض مدين بعد أن تزوّج بابنة شعيب وهو يرعى الغنم حتى أتم المدة وهي عشر سنين « وقد روي أن النبي ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أكملهما وأفضلهما) ومن هنا نعلم أن موسى عليه السلام اشتغل برعاية الغنم لمدة عشر سنوات وكانت الرعاية هي المهر الذي دفعه موسى لقاء تزوجه بابنة شعيب ، وإذا كان موسى بن عمران قد رعى الغنم فليس عيباً على أحد من الناس أن يشتغل بأمثال هذه الحِرَف ، وكيف وقد كان سيد الخلق محمد ﷺ يرعى الغنم فقد ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ما من نبي إلا ورعى الغنم قالوا حتى أنت يا رسول الله ! قال حتى أنا كنت أرعاها لقريش على قراريط » . والحكمة في رعاية الغنم من جهة الأنبياء والمرسلين هي ليتعودوا على السكينة والتواضع ، وليكون ذلك مقدمة لسياسة الأمة وقيادتها كما يقود الراعي غنمه ، ويتعهدها بما يصلح شأنها وهكذا الأنبياء الكرام انتقلوا من رعاية الغنم إلى قيادة الأمم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

رجوع موسى إلى مصر وتكليم الله سبحانه له عند جبل الطور :

بعد أن أمضى موسى عليه السلام السنوات العشرة في أرض مدين حنّ قلبه إلى وطنه فعزم على الرجوع إلى أرض مصر مع أهله وولده ، وبينما هو في الطريق في ليلةٍ مظلمة باردة تاه في الطريق فلم يهتد إلى السلوك في الدرب المألوف وجعل يوري زناده فلا يوري شيئاً ، واشتد الظلام والبرد وكانت امرأته حاملاً وقد قرب أوان وضعها فتحيّر وقام وقعد ، وأخذ يتأمل في الأفق لعله يرى شيئاً فيخرجه من هذه الحيْرة ، ثم أخذ يتسَمّع طويلاً هل يسمع حِساً أو حركة ، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور نوراً فحسبه ناراً ﴿فقال لأهلِهِ امكثُوا إني آنستُ ناراً لعلي آتيكُم منْها بقبَسٍ أو أجدُ على النارِ

هدى﴾ فلما وصل قريباً من جبل الطور رأى نوراً عظيماً ممتداً من عنان السماء إلى شجرة عظيمة هناك، فتحيّر موسى وارتعدت فرائصه فسمع خطاب الله عز وجل يأمره أن يخلع نعليه ثم يدخل ذلك الوادي المقدس حتى يقترب من جبل الطور فإن الله سبحانه وتعالى سيكلمه ويجعله رسولاً ثم يرسله إلى فرعون ليبلغه رسالة الله اقرأ الآيات الكريمة من سورة طه ﴿وهلْ أتاكَ حديثُ موسى . إذْ رَأى ناراً فقالَ لأهلِه امْكثُوا إنّي آنستُ ناراً لعلي آتيكُم منها بقبسٍ أو أجدُ على النار هُدًى فلما أتاها نُودِيَ يا مُوسى إني أنا ربُّكَ فاخلَعْ نَعْلَيكَ إنكَ بالوادِ المقدّسِ طُوًى . وأنا اخترتُكَ فاستمِعْ لما يُوحى . إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبُدْني وأقِمِ الصلاةَ لذكري ..﴾ .

وهكذا نبيء موسى وكلّمه ربه عند جبل الطور المسمى (طور سيناء) وأعطاه آية تدل على صدق نبوّته ألا وهي معجزة (العصا ، واليد) ثم أمره أن يذهب إلى فرعون ليدعوه إلى الله فطلب موسى من ربه أن يبعث معه أخاه (هرون) هارون ليكون معيناً له على تبليغ الرسالة كما قال تعالى ﴿قالَ ربِّ إني قتلتُ منهُمْ نَفْساً فأخافُ أن يقتلونِ . وأخي هرُونُ هو أفصَحُ مِني لساناً فأرسِلْهُ مَعي رِدْءاً يُصَدقُني إني أخافُ أن يكذّبون . قال سنشُدُّ عَضُدَكَ بأخيكَ ونجعلُ لَكُما سُلطاناً فلا يصلونَ إليكُما بآياتِنا أنتُما ومَنْ اتّبعَكُما الغالبونَ﴾ .

قال بعض المفسرين : لما قصد موسى إلى تلك النار وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج فوقف متعجباً فناداه ربه بالواد المقدس طوى فأمره أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً لتلك البقعة المباركة ثم أمره ثانياً أن يلقي ما في يمينه فألقاها فإذا هي حية تسعى ، ثم أمره أن يدخل يده في جيبه ثم يخرجها فإذا هي بيضاء لها نور كنور الشمس .

موسى يدخل مصر ويدعو فرعون إلى الإيمان بالله تعالى :

ورجع موسى بعد أن كلّمه ربّه فسار بأهله نحو مصر حتى وصلها ليلاً ، وأوحى الله سبحانه إلى أخيه (هرون) يبشّره بقدوم (موسى) ، ويخبره أنه

هارون

قد جعله وزيراً له ورسولاً معه إلى فرعون ، واجتمع موسى بهارون وانطلقا إلى فرعون ، فطلب موسى من البواب أن يأذن له بالدخول على الملك (فرعون) فقال له : وماذا أقول لفرعون فأجابه موسى بقوله قل له : جاءك رسول ربّ العالمين ، ففزع البواب من هذه الكلمة ودخل على سيّده وأخبره بما قاله وما سمع وقال له : إن بالباب إنساناً مجنوناً يزعم أنه رسول رب العالمين ، فقال فرعون : أدخلوه فدخل موسى ومعه هرون إلى فرعون ودعاه إلى الله وبلّغه رسالة ربه فاستهزأ به فرعون وقال : هل هناك إله غيري ؟ ثم تحقق فعلم أنّه موسى الذي تربى في بيته ثم كان من أمره ما كان فقال له فرعون كما قص القرآن الكريم ﴿ألم نُرَبِّكَ فينا وليداً . ولبثتَ فينا من عُمرِك سنينَ . وفعلتَ فعْلَتَكَ التي فعلتَ وأنتَ منَ الكافرين ؟ قال : فعلتُها إذاً وأنا منَ الضالين ففررتُ منكُم لمّا خِفتُكم فوهبَ لي ربي حُكْماً وجعلني منَ المرسلين ، وتلكَ نعمة تمُنّها عليَّ أن عبّدْتَ بني اسرائيل . قال فرعونُ وما ربُ العالمين؟ قالَ ربُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما إن كنتم تعقلونَ﴾ .

موسى والسحرة عند فرعون :

ومضى موسى يشرح له رسالة ربه ، وأخذ فرعون يتهدده ويتوعده بالسجن والتعذيب والتشريد فقال له موسى أولو جئتك بشيء بين ؟ فقال وماذا عندك ؟ فألقى العصا فإذا هي ثعبان مبين ، وأدخل يده إلى صدره ثم أخرجها فإذا بها كأنها قطعة من نور الشمس مضيء ففزع فرعون لهذا ودعا جماعته واستشارهم فأشاروا عليه أن يجمع السحرة ليبطلوا ما جاء به موسى لأنهم ظنوا أنه من قبيل السحر ، فاجتمع السحرة عند فرعون فطلب منهم فرعون أن يجمعوا قواهم ويوحّدوا هدفهم ليبطلوا — بعزيمتهم — سحر موسى وأغراهم بالمال والمنصب وأن يجعلهم من خاصته فيما إذا تمكنوا على موسى وغلبوه ثم كانت النتيجة بعد تداول بين السحرة أن طلبوا من موسى أن يلقي ما معه أو يبدأوا هم بالالقاء اعتزازاً منهم بالنفس واعتقاداً بالغلبة ﴿قالوا يا موسى إما أن تُلْقي وإما أنْ نكونَ نحنُ

الملقينَ قالَ ألقُوا فلما ألقَوْا سحَرَوا أعينَ الناسِ واسترهبُوهُم وجاؤوا بسحر عظيمٍ . وأوحينا إلى موسى أنْ ألْقِ عصاكَ فإذا هي تلقَفُ ما يأفِكُون . فوقَعَ الحقُ وبَطَلَ ما كانوا يعملون . فغُلبوا هنالكَ وانقلبوا صاغِرين .. ﴾.

ألقى السحرة حبالهم وعصيّهم، وقالوا مغترين ﴿بعزّةِ فرعونَ إنا لنحن الغالبون﴾ ونظر موسى وإذا بهذه الحبال والعصيّ كأنها حيّات وثعابين ، فهاله أمرها ، وأوجس في نفسه خيفةً منها ، ولكنّ الله ثبّته أمام ذلك الجمع الزاخر ، وأوحى إليه أن لا تخف فإنك أنت المنصور ، وأمره أن يلقي العصا فإذا هي تبتلع كل ما قذف به السحرة من زور وبهتان ﴿فأوجسَ في نفسِهِ خيفةً موسى قُلنا لا تَخَفْ إنّكَ أنتَ الأعلى . وألْقِ ما في يمينكَ تلقفْ ما صنعوا ، إنما صنعُوا كيدُ ساحر . ولا يُفلحُ الساحرُ حيثُ أتى﴾ .

يذكر المؤرخون : أن موسى عليه السلام لما ألقى العصا ، انقلبت إلى حية عظيمة لها عنق طويل ، وشكل مفزع هائل ، حتى إن الناس هربوا فزعاً منها ، وقد أقبلت هذه الحيّة على الحبال والعصيّ فجعلت تلقفها في أسرع ما يكون ، والناس في فزعٍ واضطراب ، وفي دهشة واستغراب ، وكان أول من أذعن للحق وأعلن إيمانه إنما هم « السحرة » الذين أتى بهم فرعون لينصروه ، ويتغلبوا على خصمه موسى عليه السلام .

آمن السحرة وسجدوا لله عزّ وجل ، وأقرّوا بالوحدانية له ، لأنهم أيقنوا أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة ، ولا زور ولا بهتان ، وإنما هي آية من آيات الله الباهرة ، أظهرها على يد رسوله (موسى) لتكون برهاناً على صدقه ، وعرفوا أن ذلك ليس بطاقة إنسان ولا قدرته ، وإنما هي القوة الإلهية التي تصنع العجائب فخرّوا لله ساجدين وقالوا : ﴿آمنا بربِّ العالمينَ . ربِّ موسى وهرونَ﴾

علم فرعون إنه لم يُعْجِز موسى ، ولكنّ موسى أعجزه ، فأراد أن يستر هزيمته ، ويستعيد هيبته ، فقال للسحرة — وكان صاحب مكر وخداع : ﴿إنّهُ لكبيرُكُم الذي علّمكُمُ السحرَ فلسوفَ تعلمونَ . لأقطّعَنّ أيديَكُم وأرجلكُم من خلافٍ ولأصلبنّكُم أجمعينَ﴾ .

توعّد السحرة بالقتل والصلب ، وتقطيع الأيدي والأرجل ، واتهمهم بالتآمر مع موسى ، مع أنه يعلم علم اليقين ، أنّ موسى لم يعرفهم ولم يجتمع معهم من قبل ، لأنه كان مقيماً في أهل مدين ، فكيف يكون كبيرهم الذي علّمهم السحر ؟! ثمّ إن موسى لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم ، وإنما استدعاهم فرعون من أنحاء البلاد ليبطلوا دعوى موسى عليه السلام ، ولكنه المقهور المغلوب يلتمس لنفسه العذر وإن كان لا يغني أمام الحق شيئاً .

أمّا السحرة فقد ثبتوا على الإيمان ، ولم يبالوا بوعيد فرعون وتهديده ، بل صرخوا في وجهه صرخة الإيمان والبطولة ، متحدّين لفرعون وبطشه وجبروته ﴿قالوا لَنْ نؤثِرَكَ على ما جاءَنا من البيناتِ والذي فطرَنا فاقْضِ ما أنتَ قاضٍ إنّما تقضي هذه الحياةَ الدنيا. إنّا آمنا بربِنَا ليغفرَ لنا خطايانا وما أكرهتَنا عليهِ من السحرِ ، واللهُ خيرٌ وأبقى﴾ .

قال سعيد بن جبير : « لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تهيأ لهم وتزخرف لقدومهم ، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده ، بل صدعوا بالحق في وجهه[1] » . ولقد نفذّ فرعون ما هدّدهم به فصلبهم وقطّع أيديهم وأرجلهم ، وقتلهم شر قتلة ومع ذلك لم يثنهم ذلك عن الإيمان بالله ، فماتوا شهداء أبراراً رضوان الله عليهم أجمعين ، قال ابن عباس : « كانوا من أول النهار سحرة ، فصاروا من آخره شهداء بررة » .

تمادي فرعون في ضلاله :

رأى فرعون الآيات الباهرة ، والبراهين القاطعة ، التي تدل على صدق موسى عليه السلام ، ولكنه تمادى في كفره ، وأصرّ على عناده ، معرضاً عن الآيات البينات التي جاء بها موسى كليم الله ، وأغراه قومه بموسى ومن آمن معه ، لائمين له منكرين عليه ترك موسى وقومه يفسدون في الأرض ، فسكّن

(١) انظر البداية والنهاية ص٢٥٦ ج١ .

فرعون روع القوم ، واعداً إيّاهم بأن يقتل قوم موسى ، ويستحيي نساءهم معتزاً بما له عليهم من القهر والغلبة والسلطان ، ثمّ أتبع القول بالعمل ، فضجّ بنو اسرائيل بالشكوى مما حاق بهم من الحيف والظلم ، فأوصاهم موسى بالصبر وبشّرهم بالنصر ، ووعدهم حسن العاقبة . إقرأ هذه الآيات الكريمة :

﴿وقالَ الملأُ منْ قَومِ فرعونَ أتَذَرُ موسى وقومَهُ ليفسِدُوا في الأرض ويَذَرَكَ وآلهتَكَ . قالَ سنقتّلُ أبناءَهُمْ ونستحْيِي نساءَهُمْ وإنّا فوقَهُم قاهِرونَ . قالَ موسى لقومهِ استعينُوا باللهِ واصبرُوا ، إنّ الأرضَ للهِ يورثُها منْ يشاءُ منْ عبادِهِ والعاقبةُ للمتّقينَ . قالُوا أوذِينَا منْ قبلِ أنْ تأتينَا ومِنْ بعدِ ما جئتَنَا ، قالَ عَسَى ربّكُمْ أنْ يُهلِكَ عدوّكُمْ ويستخلفَكُمْ في الأرضِ فينظرَ كيفَ تعملونَ﴾ .

ابتلاء آل فرعون بتسع آيات :

لمّا أخذت فرعون العزّة بالإثم ، وعتا عن أمر الله تعالى ، وتمادى في تكذيب موسى ، وإيذاء بني اسرائيل ، أمر الله تعالى موسى أن يعلن فرعون وقومه بأنه سيوقع عليهم العذاب الشديد ، جزاء تكذيبهم وامتناعهم عن اطلاق بني اسرائيل ، فكانوا كلّما وقع عليهم العذاب جاءوا إلى موسى يطلبون منه أن يسأل ربه أن يرفع عنهم العذاب ، ووعدوه بالإيمان وعدم إيذاء أتباعه المؤمنين ، فإذا كشف الله عنهم ما نزل بهم ، عادوا إلى طغيانهم ، وغدروا بعهدهم ، وتمردوا على الله .. وقد أرسل الله عليهم أنواعاً من العذاب ، وصنوفاً من البلاء ، وكانت هذه بمثابة (إنذار) لهم من الله تعالى ليعودوا إلى رشدهم ، ويثوبوا إلى صوابهم .

وأظهر هذه الابتلاءات الآيات التسع التي أرسلها الله على قوم فرعون وهي :

١ ــ (القحط والجدب) وهو الذي عبر عنه القرآن بـ (السنين) وهو أعوام الجدب التي أصابتهم حيث لا يستغل فيها زرع ، ولا ينتفع بضرع .

٢ – (النقص من الثمرات) وهي قلة الثمار من الأشجار بسبب الجوائح والعاهات .

٣ – (الطوفان) وهو كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار ، وهو مروي عن ابن عباس ، وقيل المراد فيضان نهر النيل عليهم .

٤ – (الجراد) وقد أرسله الله على آل فرعون بشكل غير معهود فكان يغطّي الخضراء ويحجب ضياء الشمس لكثرته ، وكان لا يترك لهم زرعاً ولا ثماراً .

٥ – (القُمّل) وهو السّوس الذي يفسد الحبوب وقيل هو القمل المعروف وقيل هو (البعوض) الذي أقضّ مضاجعهم ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش.

٦ – (الضفادع) وهي معروفة وقد كثرت عندهم حتى نغّصت عليهم عيشهم حيث كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم ، وتقفز على فراشهم وملابسهم.

٧ – (الدم) وهو من الآيات الواضحة ، فقد استحال الماء لهم دماً فلا يستقون من بئر ولا نهر إلا انقلب إلى دم في الحال ، ولم ينل بني اسرائيل شيء من ذلك بالكليّة .

٨ – (العصا) وقد تقدّم أنها كانت من معجزات موسى ﷺ حيث تنقلب إلى حيّة تسعى .

٩ – (اليد) إذ كان يضع يده في جيبه ثم يخرجها بيضاء من غير سوء آية أخرى .

قال الله تعالى : ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ..﴾ .

وقال تعالى : ﴿ولقدْ أخذْنا آلَ فرعونَ بالسنين ونقصٍ مِنَ الثمرات لعلّهم يذكرونَ ، فإذا جاءتهمُ الحسنةُ قالوا لنا هذه ، وإن تُصبْهُمْ سيئةٌ يَطيّروا بموسى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عندَ الله ولكنّ أكثرَهُم لا يعلمونَ وقالوا مهما تأتنا بهِ مِنْ آيهٍ لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهمُ الطوفانَ ، والجرادَ والقُمّلَ ،والضفادعَ ، والدمَ ، آياتٍ مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ .

والمقصود أن الله أرسل على آل فرعون أنواعاً من العذاب الدنيوي العاجل، فأرسل عليهم الطوفان ثم الجراد ثم القمّل ثم الضفادع ثم الدم آيات مفصلات ، فكانوا كلّما شاهدوا آية أظهروا الأسف والندم ، وجاءوا إلى موسى يطلبون منه أن يدعو ربه ليكشف عنهم الرجز والعذاب ، فإذا رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شرّ مما كانوا عليه ، حتّى كانت الآية الكبرى التي لم ينج منها أحد من فرعون وجنوده ، ألا وهي الغرق في البحر ﴿انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين﴾ .

هلاك فرعون وجنوده :

تمادى فرعون في كفره وعناده ، ومخالفته لنبي الله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام ، ولم تنفعه النّذر ، فأوحى الله إلى موسى أن يخرج بني اسرائيل من أرض مصر ليلاً ويذهب بهم إلى أرض فلسطين ، فتجهّز موسى ومن معه وكانوا يزيدون على ٦٠٠ ألف مقاتل غير الذرّية فخرج بهم في الليل وساروا في طريق البحر الأحمر – على خليج السويس – وأخذوا يجدّون السير ، واستيقظ فرعون فلم يجد موسى ولا بني اسرائيل حيث خلت منهم بلاد مصر ، فجهز جيشاً عرمرماً حتى قيل كان في خيوله مائة ألف فرس ، وكانت عدة جنوده تزيد على مليون وستمائة ألف[1] جندي ، فلحقهم بالجنود وأدركهم في اليوم الثاني مع طلوع الشمس ، وتراءى الجمعان فشعر بنو اسرائيل بالخطر وأيقنوا بالهلاك ، فالبحر أمامهم والعدوّ خلفهم ، ولم يبق بينهم وبين الموت إلاّ ساعات أو لحظات ، حين ذاك ضجّوا بالعويل والصياح وقالوا يا موسى إنّا لمدركون ، فسكّن موسى روعهم ، وأزال خوفهم فأخرج عصاه وضرب به البحر فانفلق بقدرة الله ، فكان كل فرق كالطود العظيم ، فسار موسى ومن معه عل سطح البحر – بعد أن أصبح يابساً – مسرعين مستبشرين بعد أن رأوا هذه الآية العظمى ، التي تحتار لها عقول الناظرين ، فلما جاوزوه وخرج آخرهم

(١) ذكر هذه الرواية ابن كثير في البداية والنهاية .

منه كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون ووصوله إلى البحر ، فأراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان حتى لا يسلكه فرعون وجنوده ، فأوحى الله إليه أن يترك البحر على حاله لأنه يريد اغراقهم فيه ﴿واتركِ البحرَ رهْواً إنهم جندٌ مغرقون﴾ . رهواً : أي ساكناً على هيئته التي هو عليها . فلما وصل (فرعون) رأى هذه الآية الباهرة ، ففزع وخاف أن يسلكه ، ولكنّه أظهر لجنوده التجلّد والشجاعة ثم خاطبهم بقوله (انظروا كيف انحسر البحر لي ، لأدرك عبيدي الآبقين من يدي ، الخارجين عن طاعتي وعبادتي ، لأردّهم إلى مملكتي مقهورين مدحورين » وأخذ يشجّع الجند لاقتحام البحر أمامه من أجل أن يفوز بالنجاة هو .. ولكن هيهات فقد فات الأوان واقتربت ساعة الأجل ، وجاء ملك من السماء فقاد فرس فرعون جهة البحر ، فلمّا رأته الجنود قد سلك البحر ، اقتحموا وراءه مسرعين ، فلمّا أصبحوا جميعهم فيه أوحى الله إلى موسى أن اضرب البحر بعصاك فضربه فارتطم عليهم ، وعادت أمواجه هائجة كما كان ، فلم ينج منهم إنسان .. إقرأ قوله تعالى في سورة الشعراء :

﴿فأتبعوهم مشرِقين . فلمّا تَراءى الجمعان قالَ أصحابُ موسى إنّا لمُدْركونَ . قالَ كلاّ إنّ معي ربّي سيهدين. فأوحينا إلى موسى أن اضرِبْ بعصاكَ البحرَ فانفلقَ فكانَ كلُ فِرْقٍ كالطودِ العظيمِ . وأزلفْنا ثمّ الآخرينَ وأنجينا موسى ومنْ معه أجمعينَ . ثمَّ أغرقنا الآخرين﴾ .

وغرق الجيش جميعاً، وأمّا فرعون فلمّا أصبح بين الأمواج على وشك الدّمار والغرق ، أعلن إيمانه واستسلامه ﴿حتى إذا أدركَهُ الغرقُ قالَ: آمنتُ أنهُ لا إلهَ إلاّ الذي آمنتْ بهِ بنوا إسرائيلَ وأنا منَ المسلمينَ. آلآن وقد عصيتَ قبلُ وكنتَ منَ المفسدينَ ؟﴾ فلم ينفعه إيمان ولا توبة بل هلك مع الهالكين إلى غمرات الجحيم .

بنو إسرائيل في أرض التيه :

لما أهلك الله فرعون وجنوده ، ونجّى بني اسرائيل من العذاب المهين ،

أمره أن يتوجه بهم إلى (بيت المقدس) فخرجوا حتى إذا كانوا في الطريق عطشوا عطشاً شديداً ، فشكوا إلى موسى متذمّرين واستسقوه فأمره الله أن يضرب الحجر بعصاه ، فلمّا ضربه انبجست (تفجّرت) منه اثنتا عشرة عيناً ، لكل سبط من الأسباط عين تجري بالماء يشرب منها ، وأرسل الله لهم (المنّ والسلوى) رزقاً منه جلّ وعلا ، يحصلون عليه دون جهد أو تعب ، ثم أمر موسى أن يدخل بهم الأرض المقدّسة ، التي كان قد وعدهم الله بها على لسان نبيّه وكليمه موسى عليه السلام ، فلما اقتربوا منها وجدوا فيها قوماً من الجبارين وهم من (الكنعانيين) ومن بقايا (الحيثانيين) فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول ومقاتلتهم وإجلاءهم عن بيت المقدس ولكنهم أبوا ونكلوا عن الجهاد ، وجبنوا عن مقابلة عدوّهم ، وقالوا قولتهم الفاجرة لنبيهم الكريم ﴿اذهبْ أنتَ وربكَ فقاتلا إنّا ههنا قاعدونَ﴾ .

يذكر المؤرخون أن موسى عليه السلام كان قبل أن يطلب إلى بني اسرائيل دخول تلك الأرض قد أرسل من قبَلِه أناساً يأتونه بالأخبار ، ويقول المفسرون إنهم كانوا اثني عشر رجلاً فرأوا من ضخامة أجسام أولئك القوم ما هالهم وأفزعهم ، فلمّا عادوا أخبروا بني اسرائيل بما رأوا فضعفت نفوسهم وخارت قواهم ، ولم يعد لديهم طاقة للقتال أو الجهاد ، وكان بنو اسرائيل قد ألفوا الذلّ والهوان منذ أن كانوا في أرض الفراعنة ، وتحت سلطان الأقباط لذلك امتنعوا عن تنفيذ أمر الله وجبنوا عن جهاد الأعداء فألقاهم الله في التيه ، وضيّعهم في الصحراء (٤٠) أربعين سنة يسيرون ويحلون ، ويرتحلون ويذهبون ثم يرجعون إلى مكانهم الذي خرجوا منه كما قال تعالى ﴿قالَ فإنها محرّمةٌ عليهم أربعينَ سنة يتيهونَ في الأرضِ فلا تأسَ على القوم الفاسقينَ﴾ وكان ذلك عقوبة من الله تعالى لهم ، حتى انقرض ذلك الجيل الذي عاش على الذل وألف الهوان وجاء من بعدهم من الأبناء الذين عاشوا في الصحراء على الحرية والعزة فدخلوا مع (يوشع ابن نون) الأرض المقدسة .

العبرة من تاريخ بني اسرائيل :

وقد أكثر القرآن الكريم الحديث عن (بني اسرائيل) ، وأفاض في ذكر

حوادثهم ووقائعهم ، ليأخذ الإنسان العبرة من حياة هذه الأمة الطاغية الباغية ، التي تقابل النعمة بالجحود ، والإحسان بالعصيان ، فقد أغدق الله عليهم نعمه ، ونجّاهم من كيد عدوهم ، وأهلك فرعون وجنوده ، فما كان منهم بعد هذا الجميل والإحسان إلا أن عبدوا العجل ، وتنكّروا لدعوة نبيْهم موسى عليه السلام ، وقتلوا الأنبياء وسفكوا دماء الأبرياء ، وفعلوا ما تقشعرّ له الأبدان ، وكانت نهايتهم أن مسخهم الله قردة وخنازير ، وغضب الله عليهم ولعنهم ، وضرب عليهم الذلة والمسكنة ﴿ذلكَ بأنهُمْ كانوا يَكْفرُونَ بآياتِ اللهِ ، ويقْتُلُونَ الأنبياءَ بغيرِ حقٍ ذلكَ بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ ﴿وما ظلمهُمُ اللهُ ولكنْ كانوا أنفسَهم يظلمونَ﴾ .

ولو أردنا أن نستقصي جرائم بني اسرائيل (اليهود) لضاق بنا المقام ، وأحوجنا إلى مجلدات ضخمة فإنّ حياتهم سلسلة من الجرائم لا في حق البشرية فحسب بل في حق الأنبياء والرسل ، وفي حق الذات العليّة ذات الله تبارك وتعالى حيث اتهموا الله عزّ وجل بأنواع من الاتهامات الشنيعة ، فقد اتهموه بالبخل والشح ، ورموه بالعجز والظلم ﴿وقالتِ اليهودُ يدُ اللهِ مغلولةٌ غُلّتْ أيديهم ولُعِنوا بما قالوا بَلْ يداهُ مبسوطتانِ يُنفقُ كيفَ يشاءُ ..﴾ .

وهناك حوادث ووقائع تاريخية أخرى في حياة بني اسرائيل ، ضربنا صفحاً عنها خشية الإطالة والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

وفاة موسى عليه السلام :

توفي كليم الله موسى عليه السلام بعد أخيه (هارون) عليه السلام في أرض التيه ، ولم يدخل الأرض المقدّسة ببني اسرائيل ، وإنما دخلها بهم (يوشع بن نون) كما أسلفنا وقد كان عمر موسى حين وفاته (١٢٠) سنة وقد روى البخاري في قصة وفاته حديث ملك الموت الذي جاءه ليقبض روحه فصكّه موسى ففقأ عينه .. وفيه يقول الرسول ﷺ : لو كنتُ ثمّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر قدر رمية بحجر ، صلى الله عليه وتغمده الله برحمته آمين .

٤ ـ المسيح عيسى بن مريم عليه السلام

﴿مَا المسيحُ بنُ مريمَ إلاّ رسولٌ قدْ خلَتْ منْ قبلِهِ الرّسلُ وأمّهُ صدّيقةٌ ..﴾ .

نسبه عليه السلام :

هو السيد المسيح عيسى بن مريم صلوات الله عليه ، وهو آخر أنبياء بني اسرائيل ، اسمه (عيسى) ولقبه (المسيح) ويكنى (ابن مريم) نسبةً إلى أمه مريم بنت عمران ، لأنه ولد من غير أب ، وهو بالعبرية (يشوع) ومعناه المخلّص ، وفي الأنجيل يدعى (يسوع) بالسين المهملة بدل الشين المعجمة .

وهو عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول العذراء ، الطاهرة العفيفة التي أحصنت فرجها ﴿وصدّقت بكلماتِ ربها وكُتبِه ، وكانتْ منَ القانتين﴾ . وهو آخر الأنبياء في بني اسرائيل ، كما أن محمداً هو آخر الرسل جميعاً لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

نسبه في الإنجيل :

إذا ذكر نسب السيد المسيح (عيسى بن مريم) فإنّ النصارى يذكرون نسب (يوسف النّجار) بناءً على أنه كان عندهم يدعى (يسوع بن يوسف النجّار) وذلك لأنها كانت مخطوبة ليوسف قبل أن تحمل بالمسيح ، ولمّا حملت

أمر في منامه أن يمسكها ولا يشهّر بها لأنها بريئة من الدنس كما ينص على ذلك انجيل متى صفحة (١–٢٠) . وقد كان (يوسف النجار) من شباب اليهود الصالحين ، عاش عيش الطهر والعفّة ثمّ خطب مريم ولكنه لم يتمّ بينهما التقاء أو زواج ، وقد كانت العادة الجارية عندهم أن يطلب الشاب الفتاة من أهلها، ثم يتعاشران بدون اتصال زوجي ، ويقيمان على ذلك مدةً من الزمن من أجل أن تعرف أخلاقه ويعرف أخلاقها ، حتى إذا رضي كل منهما أخلاق صاحبه تزوجها وعاشرها معاشرة الأزواج ، وإذا لم يرض أحدهما أخلاق الآخر فسخت الخطبة دون أن يكون قد وقع اتصال بين الزوجين .

وينص إنجيل (برنابا) على أن مريم قد اتخذت يوسف النجار عشيراً لها ، من حين أن أحسّت بالحمل على الطريقة التي ذكرناها أي بدون اتصال زوجي.

ولم يذكر نسب السيد المسيح إلا في الإنجيلين (انجيل متى) و (انجيل لوقا) فقد انفردا بذكر النسب من بين سائر الأناجيل ، ومن الغريب أن نجد اختلافاً كبيراً في نسب السيد المسيح بين هذين الإنجيلين ، وتناقضاً واضحاً لا يمكن معه التوفيق ، ممّا يجعلنا نجزم بأنّ أهل الكتاب ، يكتبون بلا تحقق ، ويؤمنون بلا تثبت ، ويصدّقون بكل ما يلقى عليهم من رؤساء الدين ، وأنّ ما في التوراة والإنجيل قد دخل إليه – قطعاً – التحريف والتبديل كما نصّ على ذلك القرآن الكريم .

وبنظرة واحدةٍ يظهر التناقض والتعارض بين أعظم الأناجيل وأكثرها شهرة وانتشاراً عند النصارى ألا وهو إنجيل (متىّ) وإنجيل (لوقا) .

نسبه في إنجيل لوقا :

هو يسوع بن يوسف النجار ، بن هالي ، بن لاوي ، بن ملكى ... إلى أن ينتهي النسب إلى يهوذا بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليه السلام .

نسبه في إنجيل متىّ :

أما نسبه في انجيل متى فهو : يسوع بن يوسف النجار ، بن يعقوب ، بن

متان ، بن اليعازر ... إلى أن ينتهي إلى يهوذا بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليه السلام . وإذا تابعنا النسب من أوله إلى آخره نجد اختلافاً كبيراً بين الإنجيلين

فإنجيل لوقا يقول إنّ يوسف بن (هالي) .

وانجيل متّى يقول : إنّ يوسف بن (يعقوب) .

وانجيل لوقا يقول : إنه من أولاد (ناثان) بن داود .

وإنجيل متّى يقول : إنه من أولاد (سليمان) بن داود .

وإنجيل لوقا يقول : إنّ آباء المسيح غير سلاطين وغير مشهورين .

وإنجيل متّى يقول : إنّ آباء المسيح سلاطين مشهورون .

وبينما إنجيل لوقا يذهب إلى أن بين (داود) والمسيح واحد وأربعين جيلاً نجد انجيل متّى يقول : إن بين (داود) والمسيح ستة عشر جيلاً .

ولا أدري كيف يمكن الجمع أو التوفيق بين هذه المتناقضات في كتاب مقدس ، يؤمن به مئات الملايين من النصارى ، اللهم إلاّ أن يكون ذلك من تحريف رؤساء الدين الذين أكد القرآن تحريفهم للكتب المقدسة .

من هي مريم ؟ :

هي مريم بنت عمران ، الصدّيقة البتول ، العذراء الطاهرة ، التي تربت في حجر الفضيلة ، وعاشت عيشة الطهر والنزاهة ، والتي أثنى الله تعالى عليها في كتابه العزيز في مواطن عديدة ، قال تعالى : ﴿ومريمَ ابنةَ عمرانَ التي أحصنتْ فرجَها ، فنفخنا فيهِ مِنْ رُوحنا ، وصدّقتْ بكلماتِ ربها وكتبِهِ وكانتْ مِنَ القانتين﴾ .

كان والدها (عمران) رجلاً عظيماً ، وعالماً جليلاً ، من علماء بني إسرائيل ، وكانت زوجته (أم مريم) لا تحبل – كما ذكر ابن اسحق – فنذرت إن حملت لتجعلنّ ولدها محرراً لله تعالى (أي خالصاً حبيساً) لخدمة بيت المقدس فاستجاب الله دعاءها فحملت بمريم عليها السلام ، فلما وضعت تبيّنت أن الجنين انفصل منها أنثى . وكانت ترجو أن يكون ذكراً ، ليخدم في بيت الله، فتوجهت

بالدعاء إلى الله كالمعتذرة أو كالآسفة ﴿ربّ إني وضعتُها أنثى – واللهُ أعلمُ بما وضعتْ – وليس الذكرُ كالانثى ، وإني سميتُها مريمَ ، وإني أعيذها بكَ وذريتَها من الشيطانِ الرجيمِ﴾ ولكنّ الله تعالى تقبّل تلك المولودة بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً ، وحفظها وولدها من شر الشيطان الرجيم .

كفالة زكريا لمريم :

توفي (عمران) وابنته (مريم) طفلة صغيرة ، تحتاج إلى من يكفلها ، ويقوم بشأنها ، فخرجت بها أمها إلى المسجد ، فسلّمتها إلى العُبّاد المقيمين فيه ، وكانت ابنة إمامهم ورئيسهم فتنازعوا واختلفوا فيمن يقوم بكفالتها ، وكان (زكريا) عليه السلام نبي ذلك العصر ، هو الذي يريد كفالتها لأنه زوج أختها – وقيل زوج خالتها – ولكنه قطعاً للنزاع وافق على الاقتراع معهم ، فخرجت القرعة له ، فكان الكافل لمريم هو (زكريا) والد يحيى عليهما السلام .

بقيت مريم في كفالة زكريا عليه السلام ، وقد اتخذ لها مكاناً شريفاً من المسجد لا يدخله سواها ، فكانت تعبد الله فيه ، وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت وخدمته ، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها ، حتى صار يضرب بها المثل في بني اسرائيل في التقى والصلاح ، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة . وفي أثناء رعاية (زكريا) عليه السلام لها كان يجد أمراً عجباً .. كان يجد عندها طعاماً وفاكهة لا توجد في السوق ، وليس لها وجود في ذلك الأوان ، كان يجد فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف ، فيسألها في دهشة واستغراب (أنّى لَكِ هَذَا ؟) استمع إلى قوله تعالى : ﴿وكَفَّلَهَا زكريّا ، كُلّمَا دخلَ عليهَا المحرابَ وجدَ عندهَا رزقاً قالَ يا مريمُ أنّى لكِ هَذا ؟ قالتْ هوَ من عند اللهِ ، إنّ اللهَ يرزقُ من يشاءُ بغيرِ حسابٍ﴾ .

نشأة مريم البتول :

نشأت مريم عليها السلام نشأة طهر وعفاف ، وبعدٍ عن الآثام والمحرمات

فعاشت في جوار بيت المقدس ، مكلوءة بعناية الله ، محروسة بحراسته ورعايته، وكانت الملائكة تأتي إلى مريم فتخبرها بمقامها السامي الرفيع عند الله ، وتبشرها باصطفاء الله لها من بين سائر النساء ، وتطهيرها من الأرجاس والأدناس ، وتبشرها كذلك بمولود كريم ، يكون له شأن عظيم ، يكلّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين ، وتحثها على الاجتهاد في العبادة ، والقنوت لله .

وهكذا نشأت مريم على الطهارة والعبادة ، والبعد عن الدنس ، ورذائل الأمور ، اقرأ قوله تعالى : ﴿إذْ قالتْ الملائكةُ يا مريمُ إنّ اللهَ اصطفاكِ وطهّرَكِ واصطفاكِ على نساءِ العالمينَ . يا مريمُ اقْنُتي لربكِ واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ .

وقوله تعالى :

﴿إذْ قالتِ الملائكةُ يا مريمُ إنّ اللهَ يبشّركَ بكلمةٍ منهُ اسمهُ المسيحُ عيسى بنُ مريمَ ، وجيهاً في الدنْيا والآخرةِ ومنَ المقرّبينَ . ويكلّمُ النّاسَ في المهدِ وكهلاً ومنَ الصّالحينَ﴾ .

البشارة بالسيد المسيح :

لما بلغت مريم عليها السلام مبلغ النساء ، وأصبحت في سن الثالثة عشر من العمر ، خرجت ذات يوم من الأيام من محرابها ، وسارت جهة شرقي بيت المقدس ، ترويحاً عن النفس ، وطلباً للراحة ، فبينما هي تسير ، وقد ابتعدت عن أهلها وقومها ، إذ فاجأها شاب وضيء الوجه ، حسن الصورة ، مستوي الخلق ، ففزعت واضطربت وخافت على نفسها منه ، وارتابت في أمره لأنه ظهر لها فجأة ، فظنت به الظنون ، وجعلت تبتعد عنه وهي تخشى أن يهمّ بها بسوء ، في مكان ليس فيه منقذ أو نصير ، ثم قالت له ﴿إني أعوذُ بالرحمنِ منكَ إنْ كنتَ تقيّاً﴾ ظنت مريم أنه بشر عادي من الرجال ، عرض لها في هذا المكان .. ولم يكن في خاطرها أنه ملاك كريم ، أرسله الله إليها ليهب لها غلاماً زكياً ، يكون له شأن عجيب ، ويعطيه الله النبوة والحكمة ، وإذا بالملاك

هو (جبريل الأمين) عليه السلام تمثّل لها في صورة إنسان ، فأزال الملك فزعها واضطرابها ، وأخبرها بالحقيقة حتى تطمئن على نفسها ، ثم نفخ في جيب قميصها (ثوبها) نفخة وصلت إلى رحمها ، فحملت بتلك النفخة بالسيّد المسيح عليه أفضل الصلاة والسلام ، اقرأ الآيات الكريمة : ﴿واذكُرْ في الكتابِ مريمَ إذْ انتبَذَتْ منْ أهلِهَا مكانا شرقياً . فاتخذتْ منْ دونهمْ حجاباً فأرسلنَا إليها روحنا فتمثّل لها بشَراً سَويّاً . قالتْ إني أعوذُ بالرحمنِ منكَ إنْ كنتَ تقيا . قالَ إنما أنَا رسولُ ربكِ لأهبَ لك غلاماً زكيّاً﴾ .

ويذكر المفسرون أنّ الذي نفخ في جيب قميصها ، وحملت بتلك النفخة إنما هو الملك (جبريل) عليه السلام فهو الذي يسمى (الروح الأمين) ويسمى (روح القدس) ويستدلون بقوله تعالى : ﴿نزلَ بهِ الرّوحُ الأمينُ على قلبكَ لتكونَ من المنذرينَ﴾ والذي نزل بالوحي على الرسل الكرام قطعاً إنما هو جبريل عليه السلام .

قال (أبو حيان) في تفسيره :

« وإنما مثّل لها الملك في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ، ولا تنفر عنه ، ولو بدا لها في الصورة الملكيّة لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه .. ودل على عفافها وورعها أنّها تعوّذت من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن ، وكان تمثّله على تلك الصفة ابتلاءً لها وسبْراً لعفتها[1] .. » .

حين ظهر لمريم بعد ذلك أنّ الذي عرض لها في خلوتها ليس بشراً إنما هو ملاك كريم ، أنست واستبشرت به ، ولكنّها تعجبت من قوله حين بشّرها بالغلام ، فهي امرأة بكر لم تتزوج ، ولم يقربها أحد من الرجال ، ولا تزال عذراء وهي عفيفة لم تقارف إثماً ، فكيف يمكن أن يأتيها غلام مع عدم اتصال رجلٍ بها ﴿قالت : أنّى يكونُ لي غلام ولم يَمْسَسْني بشرٌ ولم أكُ بغيّاً !﴾ وقد كان جوابه لها أنها إرادة الله ومشيئته ، فهو جل ثناؤه لا يعجزه شيء وإذا أراد أمراً فانما يقول له كن فيكون ﴿قال كذلكِ قال ربك هو عليّ هيّن ،

(١) البحر المحيط الجزء السادس صفحه ١٨٠ .

ولنجعله آية للناس ورحمةً منّا وكان أمراً مقضياً) .

كم هي مدة الحمل ؟ :

كان عمر (مريم) حين حملت بعيسى عليه السلام ١٣ ثلاث عشرة سنة ، وقد اختلف العلماء في مدة الحمل فقيل إنها كانت ساعة ، وقيل تسع ساعات ، وقيل ثمانية أشهر ، وقد روي الأخير عن (ابن عباس) والصحيح أنها حملت به حملاً طبيعياً كما تحمل النساء ، ووضعته كما تضع النساء .

قال (ابن كثير) رحمه الله : ثمّ الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن ، إذ لو كان خلاف ذلك لذكر ، واستدلال بعضهم بقوله تعالى ﴿فحملتهُ فانتبذَتْ بهِ مكاناً قصياً ، فأجاءها المخاضُ﴾ فقد عطف بالفاء وهي تدل على التعقيب ، فإنّ الصحيح أن تعقيب كل شيء بحسبه ألم تر إلى قوله تعالى :

﴿ثمّ خلقنا النطفةَ علقةً ، فخلقنا العلقةَ مضغةً ، فخلقنا المضغةَ عظاماً ، فكسونا العظامَ لحماً . ثمّ أنشأناهُ خلقاً آخرَ فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقينَ﴾ . ومعلوم أنّ بين كل حالين أربعين يوماً كما ثبت في الحديث المتفق عليه[١] » .

وقد ذكر المفسرون أن (جبريل) لمّا نفخ في جيب درعها ، نزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها كما تحمل المرأة عند جماع بعلها .. وقد ردّ (ابن كثير) رحمه الله روايةً نسبت إلى (أُبيّ بن كعب) مفادها أن جبريل عليه السلام إنما نفخ في (فمها) لا في فرجها وقال : إنّ هذا خلاف ما يفهم من سياق القصة في القرآن الكريم ، فالقرآن يدل على أنّ الذي أرسل إليها هو الملك جبريل عليه السلام وأنّه إنما نفخ في جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه كما قال تعالى : ﴿ومريمَ ابنةَ عمرانَ الّتي أحصنَتْ فرجَهَا ، فنفخْنَا فيهِ منْ روحنَا ..﴾ فالضمير يعود على الفرج لا على الفم .

---

(١) البداية والنهاية ج٢ ص٦٤ .

اتهام مريم عليها السلام :

يروى أن مريم لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رجل من أقربائها يدعى (يوسف النجار) وكان من العبّاد الصالحين ـ وكان ابن خالها ـ على ما يروي ابن كثير ، فجعل يتعجّب من ذلك عجباً شديداً ، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها وهو مع ذلك يراها حبلى وليس لها زوج ، فعرّض لها ذات يوم في الكلام فقال : يا مريم هل يكون زرع من غير بذر ؟ قالت : نعم ، فمن خلق الزرع الأول ؟ ثم قال : فهل يكون شجر من غير ماء قالت : نعم فمن خلق الشجر الأول ؟ ثم قال : فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت : نعم إنّ الله خلق آدم من غير ذكر وأنثى ، قال لها : فأخبريني خبرك، فقالت : إنّ الله بشّرني ﴿بكلمةٍ منهُ اسمهُ المسيحُ عيسى بنُ مريمَ﴾ فعرف أنها بريئة وأنّ الحمل الذي بها إنما هو بمشيئة الله وإرادته الحكيمة .. وروى (السّدي بإسناده عن الصحابة أن (مريم) دخلت يوماً على أختها ـ زوج زكريا ـ فقالت لها أختها : أشَعرتِ أني حبلى ؟ فقالت مريم : وشعرتِ أني أيضاً حبلى ، فاعتنقتها وقالت لها (أم يحيى) : إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك ، قال مالك : أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام على يحيى ، قال : وبلغني أن عيسى بن مريم ويحيى ابن زكريا ابنا خالة(١) ..

وقد شاع الخبر في بني اسرائيل أنّ (مريم) حامل ، فما دخل على أهل بيت من الهمّ والحزن كما دخل على آل بيت زكريا ، حتى اتهمها بعض الزنادقة بيوسف النجار الذي كان يتعبّد معها في المسجد ، واتهمها آخرون بزكريا عليه السلام . ويقول (ابن جرير) إنهم أرادوا قتله ففرّ منهم فلحقوه حتى أمسكوا به ثمّ نشروه بالمنشار فقتل صلوات الله عليه بأيدي اليهود المجرمين .

رؤيا يوسف النجار :

يقول المؤرخون : إن مريم لما أحسّت بالحمل ، وخشيت اتهام قومها لها

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ص٦٥ الجزء الثاني .

بالزنى وافقت على خطبة يوسف النجار لها ، وقد كان هذا رجلاً باراً صالحاً من بيت (داود) من أبناء عمها ، متقياً لله تعالى ، يتقرب إليه بالصلاة والصيام ويرتزق من عمل يديه في النجارة .. ثم إن (مريم) عليها السلام كاشفت يوسف خطيبها بما جرى لها من الحمل دون أن يمسّها بشر ، وأخبرته ببشارة جبريل لها ، فعزم على أن يترك خطبتها شكاً بأمرها ، وبينما هو نائم إذا بملك من ملائكة الرحمن يوبخه قائلاً له : لماذا عزمت على إبعاد امرأتك ؟ إعلم أنّ ما كوّن فيها إنما كوّن بمشيئة الله ، وستلد العذراء ابناً وستدعونه (يسوع) تمنع عنه الخمر والمسكر وكلّ لحم نجس ، لأنه قدوس الله من رحم أمه ، وأنه نبي من الله أرسل إلى شعب إسرائيل ، ليحوّل يهوذا إلى قلبه ، ويسلك اسرائيل في شريعة الرب كما هو مكتوب في ناموس موسى ، وسيجيء بقوة عظيمة يمنحها له الله ، وسيأتي بآيات عظيمة تفضي إلى خلاص كثيرين . قالوا : فلما استيقظ (يوسف) من النوم شكر الله ، وأقام مع مريم كل حياته خادماً لله بكل إخلاص [1] ، والله أعلم .

ولادة السيد المسيح عليه السلام :

المشهور المستفيض أنّ ميلاد (عيسى) عليه السلام كان ببيت لحم ، وأنها لمّا هربت وخافت عليه أسرعت به وجاءت إلى بيت المقدس .. وقد قصّ القرآن الكريم علينا قصة ولادته في سورة مريم .. وخلاصة تلك القصة أن « مريم » عليها السلام لما أتمت أيام حملها وهي في (بيت لحم) اشتد بها المخاض فألجأها إلى جذع نخلة يابسة ، فاحتضنت الجذع لشدة الوجع وولدت (عيسى) عليه السلام ، فقالت عند ولادتها ـ لِمَا قاسَتْهُ من الآلام والتغرّبِ ، ولِمَا خافت من إنكار قومها واتّهامهم لها عند رؤية وليدها ـ قالت ﴿يا ليتني متّ قبلَ هذا وكنتُ نسياً مَنْسياً﴾ فقد تمنّت الموت من جهة الدين ، إذ خافت أن يُظنّ بها الشر والسوء في دينها ، وتعيّر بين قومها وعشيرتها .

(١) إنجيل برنابا الفصل الثاني نقلا عن كتاب (العقيدة الإسلامية) للاستاذ الحبنكة .

وضعت مريم البتول العذراء طفلها ، وهزّت جذع النخلة التي لا ثمر فيها، فتساقط عليها الرطب الجنيّ الناضج ، فأكلت من الرطب وشربت من النهر الذي أجراه الله لها في مكان لا نهر فيه ، وكان كل ذلك إكراماً من الله تعالى لها على إيمانها وصلاحها وطاعتها لله عز وجل ، وعنايةً لوليدها (عيسى) عبد الله ورسوله .

وكان ميلاد السيّد المسيح عليه أفضل الصلاة والتسليم يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شهر كانون الأول ، أي قبل ميلاد الرسول الأعظم ﷺ بما يزيد على ٦٠٠ عام . حملت مريم وليدها الصغير ، وأتت به قومها تحمله على يدها ، فلما شاهدوه فزعوا لهذا الحدث العظيم والخطب الجسيم وأخذوا يظنّون بها الظنون ، كيف يكون لها وليد وهي لم تتزوج بعد ؟ وزاد في هذا الفزع والاضطراب أنهم يعرفون قومها وعشيرتها ، فهي من بيئة شريفة فاضلة وأبوها (عمران) من السادة الأشراف ، بل لقد كان رئيس العلماء ، وأسرتها أسرة فضلٍ وشهامة ودين ، فكيف تأتي مريم بمثل هذه الجريمة النكراء، وتقترف عمل الفاحشة ؟. وهنا سكتت مريم ، وأشارت إلى وليدها الرضيع ليتكلم معهم، وليجيبهم على أسئلتهم التي وجّهوها إليها ، والتّهم التي اتهموها بها ، فليس أدلّ على طهارتها وبراءتها من أن يتكلم هذا الطفل وهو لم يزل بعد في المهد ويجيبهم على تلك الاتهامات والافتراءات .. إقرأ الآيات الكريمة من سورة مريم قصة ولادته عليه السلام : ﴿فحملَتْهُ فانتبذَتْ به مكاناً قَصياً . فأجاءها المخاضُ إلى جذعِ النخلةِ قالتْ يا ليتني مِتّ قبلَ هذا وكنتُ نَسياً منْسياً . فناداها منْ تحتِها ألاّ تحزني قد جعلَ ربّكِ تحتك سَرِياً . وهزّي إليكِ بجذعِ النخلةِ تُساقِطْ عليكِ رُطباً جنياً . فكلي واشربي وقرّي عيناً فإمّا ترينّ من البشرِ أحداً فقولي إني نذرتُ للرحمنِ صوماً فلن أكلمَ اليومَ إنسياً . فأتت بهِ قومَها تحملُهُ قالوا يا مريمُ لقدْ جئتِ شيئاً فرياً . يا أختَ هارونَ ما كانَ أبوكِ امرءَ سَوء وما كانتْ أمُّكِ بغياً ، فأشارتْ إليهِ قالوا كيفَ نُكلّمُ منْ كانَ في المهدِ صَبياً ! ! قالَ إني عبدُ الله آتاني الكتابَ وجعلَني نبياً .

وجعلني مباركاً أينما كنتُ وأوصاني بالصلاةِ والزكاةِ ما دمتُ حيّاً . وبراً بوالدتي ولم يجعلني جبّاراً شقياً . والسلامُ عليّ يومَ ولدتُ ، ويومَ أموتُ ، ويومَ أبعثُ حيّاً﴾ .

حياة السيد المسيح :

ولما بلغ الطفل من العمر ثمانية أيام حملته أمه مريم إلى الهيكل فختن ،وسمّته (يسوع) يعني عيسى كما أمرها جبريل حين بشّرها به ، والختان من سنن الأنبياء وهو من الفطرة ، وهو شريعة سائر الأنبياء والمرسلين من عهد ابراهيم عليه السلام ، وقد جاء في انجيل (برنابا) ما يدل على ختان عيسى : « فلما تمت الأيام الثمانية حسب شريعة الرب ، كما هو مكتوب في كتاب موسى ، أخذا الطفل واحتملاه إلى الهيكل ليختناه ، فختنا الطفل وسمّياه (يسوع) كما تسمّى من الملاك قبل أن حبل به في الرحم[1] » .

ونشأ (عيسى) عليه السلام في كنف أمه بعيدين عن بيت لحم في ربوةٍ مرتفعة ذات استقرارٍ وأمنٍ وماء معين كما قال تعالى :

﴿وجعلنا ابنَ مريمَ وأمّه آيةً وآويناهُما إلى ربوةٍ ذاتِ قرارٍ ومعين﴾ .

هيرودس يعزم على قتل المسيح :

في الزمن الذي ولد فيه السيّد المسيح كان هناك حاكم ظالم يسمى (هيرودس وقد حكم البلاد بأمر (قيصر أوغسطس) وقد بلغه عن طريق بعض الكهنة أنه ولد مولود سيكون له سلطان على جميع اليهود فأمر بقتل كل طفل ولد في بيت لحم ، وقد تفرّد بذكر هذه القصة إنجيل (متّى) وإنجيل (برنابا) وأن يوسف النجار قد أمر في منامه بأن يذهب بالطفل (عيسى) وأمه (مريم) إلى مصر خشية عليه من بطش ذلك الحاكم الجائر ، فقام من فوره وأخذ الطفل وأمه وذهب بهما إلى مصر وأقاموا بها إلى أن هلك (هيرودس) ولما هلك أمر يوسف في منامه بأن يأخذ الطفل وأمه ويرجع بهما إلى بلادهما لأن الذين يطلبون

(١) انجيل برنابا الفصل الخامس .

قتله قد هلكوا[1] فارجع بهما » .

مجادلة عيسى للعلماء :

وكان عيسى حينئذٍ قد بلغ من العمر سبع سنين ، فرجع من مصر ووصل إلى الجليل ، وأقام في الناصرة ، وإلى الناصرة ينسب (النصارى) ونما الصبيّ في النعمة والحكمة أمام الله والناس ، ولما بلغ اثنتي عشرة سنة من العمر صعد مع مريم ويوسف النجار إلى (أورشليم) يعني بيت المقدس ليسجد هناك حسب شريعة الرب ، المكتوبة في توراة موسى عليه السلام ، ولمّا تمت صلواته تفقدوه فلم يجدوه فانصرفوا إلى محل إقامتهم ظناً منهم أنه عاد إلى الوطن مع أقربائهم ، فلم يجدوه فرجعت أمه مع ابن عمها يوسف النجار إلى (أورشليم) ينشدانه بين الأقرباء والجيران فلم يجدوه ، وفي اليوم الثالث وجدوا عيسى في الهيكل وسط العلماء يحاجّهم في أمر الناموس ، وقد أعجب كل الناس بأسئلته وأجوبته ، وقالوا : كيف أوتي مثل هذا العلم وهو حدث لم يتعلم القراءة ؟! فلمّا رأته أمه عنّفته قائلة : ماذا فعلت بنا فقد نشدناك ثلاثة أيام ، فأجابها ألا تعلمين أنّ خدمة الله يجب أن تقدّم على الأم والأب ، ثم نزل معهما إلى الناصرة[2] .

ويسكت التاريخ عما وراء هذه الفترة من حياة السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام حتى بداية نبوته ورسالته ، فأين كان يسوع في هذه المدة وهي سبع عشرة سنة ؟

بدء نبوّة المسيح عليه السلام :

لما بلغ عيسى عليه السلام من العمر ثلاثين عاماً جاء إلى (يحيى بن زكريا) عليهما السلام المسمّى عند النصارى (يوحنّا المعمدان) فعمّده[3] ثم نزل عليه

---

(١) راجع قصص الأنبياء ص٣٨٦ .

(٢) نقلا عن إنجيلي (متى) و (برنابا) .

(٣) أي غسله غسل التوبة وهذا ما يسمى عند النصارى بـ (التعميد) .

روح القدس (جبريل) عليه السلام ثم إنه خرج بعد ذلك إلى البرية ، وصام فيها أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب ، ونزل عليه الوحي بكتاب الله المقدس المسمّى (الإنجيل) ومنذ ذلك ا لحين بدأت رسالة عيسى بن مريم عليه السلام .

والقرآن الكريم لم يذكر متى ابتدأت نبوّة المسيح ، ولا كيف كان ذلك ، ولكنّ عبارات الأناجيل اتفقت على أنّ نبوّته كانت على رأس ثلاثين من عمره وعلى ذلك جرى المؤرخون وبعض المفسرين .

ويقول علماء التوحيد: إنّ النبوّة تكون على رأس الأربعين من العمر وهذا هو الغالب أمّا (عيسى) عليه السلام فقد نبيء على رأس الثلاثين وهذه خصوصية له عليه السلام لأنه قد رفع إلى السماء قبل أن يبلغ سنّ الأربعين ، والدليل على نبوّة المسيح عليه السلام قوله تعالى : ﴿وإذْ قالَ عيسى بنُ مريمَ يا بني إسرائيل إني رسولُ الله إليكم مصدّقاً لما بينَ يديّ منَ التوراةِ ، ومبشراً برسولٍ يأتي منْ بعدي اسمهُ أحمد ..﴾ .

دعوة السيد المسيح :

قام السيّد المسيح يدعو الناس إلى دين الحق الذي أوحاه الله إليه ، في مجتمع يهودي دخلت فيه انحرافات كثيرة ، وخرافات وأباطيل ، بسبب تمردهم وطغيانهم على الشريعة الربانية التي أنزلها الله على (موسى) عليه السلام .. وكان بنو إسرائيل قد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وحرّفوا شريعة الله ، وتلاعبوا بنصوص التوراة ، وانحرفوا عن الطريق الواضح الذي أقامهم عليه نبيّهم ، فبعث الله إليهم (عيسى بن مريم) ليردّهم إلى الجادّة ، ويصحّح ما دخل إلى شريعتهم من تحريف وتبديل ، فقام صلوات الله عليه يبلّغهم أوامر الله ، ويعلّمهم ما أنزل عليه من أحكام تشريعية جديدة ، منها تحليلُ بعض ما كان قد حُرِم عليهم في شريعة موسى عليه السلام بسبب بغيهم وعدوانهم ، والتي كانت عقوبة لليهود في ذلك الحين ، وقد حكى الله جل ثناؤه على لسان السيد

المسيح المهمة التي بعث من أجلها : ﴿ ومصدقاً لما بين يدي من التوراة، ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم، وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون. إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ .

وقد أجرى الله على يد (عيسى بن مريم) المعجزات الباهرات تصديقاً لنبوته وتأييداً لرسالته ، كما سنبين ذلك عند ذكر معجزاته عليه الصلاة والسلام .

وقد لقي السيد المسيح من اليهود تعنتاً واستكباراً ، ولاقى أثناء دعوته أهوالاً وشدائد وخاصة من الكهنة ورؤساء الدين ، فاصطدم معهم بجدال عنيف ، حول مفاهيم الدين ، وأصول الشريعة الربانية التي جاء بها من قبله (موسى) عليه السلام ، والتي حرّفها أولئك الظالمون المجرمون . فكان يحاجّ (الفريسيّين) والكتبة ، والكهنة[1] ، فيدحضهم بالحجج الدامغة ، والبراهين القاطعة .. ولبث عيسى عليه السلام يجاهر بدعوته ، ويجادل المنحرفين ، من كهنة ، وكتبة ، وفريسيين ، ويدلهم على الله ، ويأمرهم بالاستقامة ، ويبيّن فساد طريقتهم ، ويفضح رياءهم وخبثهم ، حتى ضاقوا به ذرعاً ، فقرّروا التخلّص منه .

اجتمع عظماء اليهود وأحبارهم ، وتشاوروا في أمر المسيح ، فقالوا : إنّا نخاف أن يفسد علينا ديننا ، ويتّبعه الناس فقال لهم رئيس الكهنة : لأن يموت رجل واحد خير من أن يذهب الشعب بأسره ، فأجمعوا على قتله ، فسعوا به لدى الحاكم الروماني (بيلاطس البنطي) الذي كان حاكماً على اليهود باسم الملك (قيصر) وزيّنوا له دعواهم بأنه يريد أن يكون ملكاً على اليهود ، وأنه يسعى لتقويض الحكم القائم ، وأوغروا صدره حتى قرّر أن يتخلّص من (عيسى) عليه السلام بالقتل والصلب ، على طريقتهم التي كانوا يفعلونها فيمن يحكمون عليه بالقتل ، وعلم عيسى عليه السلام بمكر القوم به ، فاختفى عن أعين الرقباء حتى لا يعلم أحد من أعوان الحاكم مكانه فيقبضوا عليه ويسلموه للقتل .

---

(١) الفريسيون : هم الزهاد المنقطعون للعبادة و (الكتبة) هم كتاب الشريعة والوعاظ ، و (الكهنة) هم خدمة الهيكل والمعبد .

قالوا : ودخل المسيح إلى (أورشليم) على حمار ، وتلقاه أصحابه بقلوب النخل ، فقال المسيح : « إنّ بعضكم ممن يأكل ويشرب معي يُسْلِمُنِي » ثم جعل يوصي أصحابه قائلاً لهم : « قد بلغت الساعة التي يتحول ابن البشر إلى أبيه ، وأنا أذهب إلى حيث لا يمكنكم أن تجيئوا معي ، فاحفظوا وصيّتي فسيأتيكم (الفارقليط)[1] يكون معكم نبياً ، فإذا أتاكم (الفارقليط) بروح الحق والصّدق فهو الذي يشهد عليّ ، وإنما كلّمتكم بهذا كيما تذكروه إذا أتى حينه ، فإني قد قلته لكم ، فأمّا أنا فإني ذاهب إلى من أرسلني فإذا ما أتى روح الحق يهديكم إلى الحق كليّة ، وينبئكم بالأمور البعيدة ويمدحني ، وعن قليل لا ترونني ، ثمّ رفع المسيح عينه إلى السماء وقال : حضرت الساعةُ .. إني قد مجّدتك في الأرض والعمل الذي أمرتني أن أعمله فقد تمّمته[2] » .

انصرف السيد المسيح مع تلاميذه إلى المكان الذي يجتمع فيه هو وأصحابه وكان من ضمن تلامذته رجل خائن يدعى (يهوذا الاسخريوطي) وهو أحد الحواريين المنافقين الذين أشار إليهم المسيح بقوله السابق « إنّ بعضكم ممن يأكل ويشرب معي يُسلمني » كان هذا الرجل يعرف ذلك الموضع الذي اختبأ فيه المسيح ، فلما رأى الشّرط يطلبون المسيح ليقتلوه دلّهم على مكانه مقابل دريهمات معدودة جعلوها له ، وكانت ثلاثين درهماً ، فلما دخلوا المكان الذي فيه المسيح ألقى الله شبهه على ذلك الخائن (يهوذا الاسخريوطي) فأخذوه وهم يظنونه عيسى عليه السلام فقتلوه وصلبوه ، ورفع الله سيدنا عيسى عليه السلام إليه ، قال تعالى : ﴿وما قتلوهَ وما صلبوه ولكنْ شُبّه لهمْ ، وإنّ الذينَ اختلفُوا فيه لفي شكٍّ ﴾ . وكان عمر عيسى حين رفعه الله إليه ٣٣ سنة فتكون مدة دعوته لبني اسرائيل ثلاث سنين لأن بعثته كانت في الثلاثين من عمره صلوات الله عليه

---

(١) الفارقليط : هو النبي الذي بشر به المسيح ومعناه في اليونانية أحمد (ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) .

(٢) تاريخ اليعقوبي نقلا عن كتاب العقيدة الإسلامية للاستاذ حبنكة .

مسألة صلب المسيح :

عقيدتنا نحن المسلمين في موضوع (صلب المسيح) هي العقيدة الصحيحة السليمة ، التي أخبر عنها القرآن الكريم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهي أنّ الله عزّ وجل نجّى (عيسى) من كيد اليهود ، ورفعه إليه حيّاً بجسده وروحه ، وألقى شبهه على ذلك الخائن (يهوذا الاسخريوطي) الذي دلّ اليهود على مكانه ، فصلبوه وهم يظنون أنه المسيح بن مريم ، وكان في ذلك تكريماً لعبده ورسوله عيسى عليه السلام ، ورداً لكيد اليهود الخبثاء ﴿ومكروا ومكرَ اللهُ ، واللهُ خيرُ الماكرينَ﴾ .

وعقيدة (المسلمين) في السيّد المسيح أطهر ، وأكرم ، وأشرف من عقيدة (النصارى) الذين يزعمون أن المسيح قد صلب ، وأنّ اليهود قد أذاقوه كلّ إهانة ثمّ سمروا يديه ورجليه في الخشب ثم صلبوه وقتلوه تكفيراً لذنوب بني آدم ، وفداءً للبشر . ولقد شكّ (الحواريون) كما شكّ (اليهود) في أمر عيسى واختلفوا فيه اختلافاً كبيراً ، فمن هو المصلوب يا ترى ؟ أهو (عيسى) المسيح أم (يهوذا) الأسخريوطي ؟ وذلك لأن ذلك الخائن لما دلّهم على مكانه طلب من اليهود أن يدخل أمامهم ، ولم يكن في ذلك المكان غير عيسى بن مريم ، فلمّا ألقى الله شبهه عليه ، ورفع عيسى إلى السماء ، دخل اليهود فلم يجدوا غير إنسانٍ واحد هو (يهوذا) الذي ألقى الله شبه عيسى عليه فقالوا : إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟ وأخذوه ليصلبوه وهو يقول لهم : أنا (يهوذا) ولست عيسى فيضحكون من كلامه ويقولون : تكذب علينا أنت (يسوع) أي عيسى فصلبوه وهم في شكٍّ من أمره وفي اضطراب واختلاف . وقد ردّ القرآن الكريم على اليهود ، كما ردّ على النصارى وذكر العقيدة الحقة التي يدين بها المسلمون ، والتي هي فصل الخطاب في موضوع (الصلب والفداء) فقال عزّ من قائل : ﴿وبكفرهم وقولهمْ على مريم بهتاناً عظيماً . وقولِهم إنّا قتلنا المسيحَ عيسى بنَ مريمَ رسولَ الله ، وما قتلوهُ ، وما صلبوهُ ، ولكنْ شُبّه لهمْ ، وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه ، ما لهم به

من علمٍ إلاّ اتّباعَ الظنّ،وما قتلوهُ يقيناً . بلْ رفعهُ اللهُ إليه ، وكان اللهُ عزيزاً حكيماً ﴾.

والعجيب في أمر النصارى ، أنهم يذهبون إلى القول بصلب السيّد المسيح ، مع أنّهم يعتقدون بألوهيته ، أو بأنه ابن الإله !.

وإذا صلب (الإله) فكيف يكون شأن الخلق ؟ ولمن يا ترى ترك تدبير العالم بعد أن صلب ؟ ومن هم الذين صلبوه .. أليسوا هم أشرّ خلق الله (اليهود الخبثاء) عليهم لعنة الله ؟ فكيف لم يستطع الرّب أن يخلّص نفسه من بين أيديهم أو ينقذ ولده من تنكيلهم وإجرامهم ؟! ولقد أحسن من قال :

« أعبّاد المسيح لنا سؤال   نروم جوابه ممن وعاه »
« إذا صلب الإله بفعل عبدٍ   يهوديّ فما هذا الإله ؟ »

تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً .

موضوع الفداء للبشرية :

يقولون : إن المسيح صلب ليخلّص بني آدم من ذنوبهم وخطاياهم !!

هل هذا صحيح ، وهل يتفق مع العدالة الإلهية ، والمنطق السليم ؟! ما هو ذنب (عيسى) حتى يصلب ليكون كفّارة عن ذنوب الخلائق ؟ هل من العدل أن نؤاخذ الإنسان بجريرة غيره ؟ إذا ارتكب أخوك (مثلاً) جريمة القتل ، أو جريمة الزنى ، فما هو ذنبك حتى تؤاخذ و تعاقب على الجريمة التي ارتكبها غيرك ؟ إنّ الحكم الرباني صريح كل الصراحة﴿ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى﴾ و ﴿كلُّ نفسٍ بما كسبتْ رهينةٌ﴾والعدالة الإلهية تقرّر أنّ ﴿من عمل صالحاً فلنفسِه ومنْ أساءَ فعليها﴾..والمنطق السليم يحكم بأنّ العقوبة تحلّ بالفاعل المجرم فقط ، ولكنّه التعصّب الأعمى ، والتفكير السقيم ، الذي يفكّر به رجال الكنيسة ، ويحشون به أذهان المغفلين .!

يقول السيد (رشيد رضا) في تفسير المنار:

« أما النصارى فإنهم جعلوا خاتمة المسيح عليه الصلاة والسلام خاتمةً شنيعة، ومأساة مروعة، وجعلوا الاعتقاد بحصولها — على الوجه الذي صوّروه — أصلاً من أصول دينهم ودعامة من دعائم عقيدتهم لايقبل من مؤمن إيمانه الا بها، ولا ينفعه عمل صالح، ولا عبادة ولا برّ دون الاعتقاد بصلب المسيح.

وقد تلمّسوا لتلك العقيدة أصلاً في (العهد القديم) وأسّسوا عليه صلب المسيح فقالوا: إنّ (آدم) وهو أول كل البشر قد عصى الله تعالى بالأكل من الشجرة، التي نهاه عن الأكل منها، فصار خاطئاً، وصار جميع ذرّيته خطاة مستحقين للعقاب في الآخرة بالهلاك الأبدي.. وقد جاء جميع أبناء آدم خطاة مذنبين، فهم يحملون وزر ذنوبهم ووزر ذنب أبيهم. ولمّا كان الله من صفاته العدل والرحمة، فمن عدله ألاّ يترك الجريمة دون عقاب وإلاّ لم يكن عادلاً، ولهذا شاء الله أن يحل ابنه، الذي هو بنفسه (الله) في رحم امرأة من ذرّية آدم، ويتجسّد جنيناً في رحمها ويولد منها — فيكون ولدها (إنساناً) كاملاً من حيث أنه ابن لتلك المرأة، و (إلهاً) كاملاً من حيث أنه ابن الله — ويكون معصوماً من جميع المعاصي، ثمّ بعد أن يعيش كما يعيش الناس، ويأكل كما يأكلون، ويشرب مما يشربون، ويتلذّذ ويتألم كما يتلذّذون ويتألمون يأتي أعداء الله، وأعداء شريعته ويقتلونه شرّ قتلة وأفظعها، وهي أن يصلبوه ويسمروا يديه ورجليه في الخشب، ثم يقتلوه بعد أن يلطموه على وجهه ويسخروا منه، ويضفروا له إكليلاً من الشوك ويبصقوا في وجهه.. كل ذلك ليفدي البشر من جريمة لم يقترفها هو ولا هم[1].. ».

أقول: إنّ هذا القول باطل فإنه لم يتحقق به عدل ولا رحمة، إذ ليس من العدل أن يؤتى ببريء غير مذنب ويطوّق إثم جريمة جناها غيره.. ثمّ إنه يخالف الكتاب المقدّس عندهم فقد جاء في (سفر التثنية):

« لا يقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء، كلّ إنسان بخطيئته يقتل.

---

(١) انظر تفسير المنار ج٦ ص٢٥ .

من هم الحواريون ؟

كان لعيسى بن مريم أصحاب وتلامذة سمّوا بـ (الحوارييّين) لصفاء قلوبهم ونقاء سرائرهم وهؤلاء من أنصار السيّد المسيح ، وهم يشبهون الصحابة الكرام الذين ناصروا رسول الله ﷺ ، وقد ذكرهم القرآن الكريم وأثنى عليهم في قوله تعالى :

﴿فلمّا أحسَّ عيسى منهُمُ الكفرَ قالَ مَنْ أنصارِيْ إلى الله ؟ قالَ الحوارِيّونَ نحنُ أنصارُ اللهِ آمنّا باللهِ وأشهدْ بأنّا مُسْلمون . ربّنَا آمنّا بمَا انزَلْتَ واتّبعْنَا الرسولَ فاكتبنَا معَ الشّاهِدِينَ﴾ وكل نبيّ جعل الله تعالى له حواريين وأنصاراً كما قال عليه الصلاة والسلام :

« ما من نبيٍّ بعثه الله في أمة قبلي إلاّ جعل له من أمته حواريين وانصاراً... » الحديث .

وعدد الحواريين ١٢ اثني عشر رجلاً وهم كالآتي :

١ — (سمعان) الذي يقال له بطرس	٧ — (متّى) العشّار .
٢ — (أندراوس) أخو سمعان البطرس	٨ — (توما) .
٣ — (يعقوب) بن زبدي	٩ — (يعقوب) بن حلفي .
٤ — (يوحنّا) بن زبدي أخو يعقوب	١٠ — (لباوس) الملّقى تداوس
٥ — (برثولماوس) .	١١ — (سمعان القانوني) .
٦ — (فيلبس) .	١٢ — (يهوذا الأسخريوطي)

وهذه الأسماء للحواويين كما ذكرت في (إنجيل متّى) وهناك من تلامذته (برنابا) و (تداوس) وقد حذفتهما الكنيسة من الحواريين الاثني عشر ، وذلك لأنهما لا يقولان بألوهية السيّد المسيح ، و (برنابا) له إنجيل يسمى (إنجيل برنابا) ولا تعترف به الكنيسة اليوم لأنّ فيه ما يخالف عقيدتها ، وفيه أوصاف النبيّ الأميّ الذي بشّر به السيّد المسيح عليه السلام ، كما قال القرآن الكريم : ﴿الذينَ يتّبعونَ الرسولَ النبيَّ الأميَّ الذي يجدونَهُ مكتوباً عندهُم في

التوراةِ والإنجيلِ يأمرهُم بالمعروفِ وينهاهُم عنِ المنكرِ ويحلُّ لهُمَ الطيبات ويحرّمُ عليهمُ الخبائثَ ﴾.. الآية .

الأناجيل عند النصارى :

الإنجيل : هو أحد الكتب السماوية الأربعة ، التي أنزلها الله على رسله الكرام ، والتي يجب الإيمان بها وتصديق ما فيها لأنها منزلة من عند الله ، وهذه الكتب هي (التوراة ، الإنجيل ، الزبور ، القرآن) . أمّا (التوراة) فقدنزلت على موسى عليه السلام ، و (الإنجيل) نزل على عيسى عليه السلام . و (الزبور) نزل على داود عليه السلام ، و (القرآن) نزل على خاتم الرسل محمد عليه‌السلام. ولفظة (إنجيل) ليست عربيّة وإنما هي عبريّة ، ومعناها (البشارة)،والأناجيل المعروفة الآن لدى النصارى هي أربعة :

١ — إنجيل متّى . ٢ — إنجيل يوحنا . ٣ — إنجيل لوقا . ٤ — إنجيل مرقس . وهناك إنجيل أخر يسمى (انجيل برنابا) لا تعترف عليه الكنيسة اليوم، وهو أقرب الأناجيل إلى الحق والصواب .

هل هذه الأناجيل صحيحة ؟ :

من المقطوع به أنّ الإنجيل الرباني الذي أنزله الله على عبده ورسوله (عيسى ابن مريم) غير هذه الأناجيل الموجودة لدى النصارى اليوم ، فهذه أناجيل دخل إليها التحريف والتبديل كما نصّ القرآن الكريم ، وبين هذه الأناجيل اختلاف واضح، ثمّ إنّ الله عزّ وجلّ أنزل إنجيلاً واحداً فكيف أصبحت أربعةأناجيل.

يقول الشيخ النجار في كتابه قصص الأنبياء :

« أين يوجد اليوم إنجيل المسيح الذي ذكره القرآن الكريم ؟ إن الإنجيل الذي أتى به المسيح وبشّر به لا يوجد الآن ، وإنما توجد قصص ألّفها التلاميذ وغير التلاميذ لم تسلم من المسخ والتحريف بالزيادة والحذف !

فالمسيح ابن مريم جاء إلى أصحابه بكتاب هو الأنجيل ، ولكنّ الناس على

مرّ الزمان تركوا ذلك الإنجيل ، وترتّب على ذلك ضياعه واستمساكهم بكتب ألّف بعضها تلاميذ المسيح ، وبعضها ألّفه تلاميذ تلاميذه أو من بعدهم، وقد كثرت الأناجيل كثرة فاحشة حتى أربت على المائة ، ومعلوم أنّ الكنيسة رفضت ما يخالف رغبتها وأقرّت الأناجيل الأربعة المعروفة اليوم على ما هي عليه من انقطاع السّند ، وعدم العلم التام بالمؤلف الحقيقي ، أو المترجم ومبلغ أمانته على الدين وحرصه على الصدق ، وعلى ما بينها من الاختلاف الحقيقي المفضي إلى أن أحد الأقوال صادق ، وما عداه كاذب[1] »

أما الأناجيل الحالية فهي عبارة عن مصنّفات تاريخية حول قصة حياة مريم وابنها المسيح عيسى ، وما جرى له منذ ولادته حتى نهاية حياته في الأرض حسب معتقداتهم ، كما تتضمّن أخباراً عن (يوحنّا المعمدان) وهو يحيى عليه السلام .

ولم يكتب شيء من هذه الأناجيل في حياة عيسى عليه السلام ، وإنما كتبت بعد رفعه إلى السماء .

١ – فإنجيل (متّى) وهو أقدم الأناجيل عندهم وأولها كتب بعد نهاية المسيح بأربع سنوات وقد كتب باللغة العبرية ، والموجود الآن ترجمته ، ولكن من هو المُتَرْجِمُ ؟ وأين الأصل المتَرْجَم حتى تم المقارنة بينهما ، كل ذلك ليس له عندهم جواب ، فأية قيمة علمية إذاً لوثيقة لا يعرف أصلها ولا مترجمها وليس لها سند متصل إلى السيد المسيح أو تلامذته ؟؟

٢ – وإنجيل (مرقس) كتب باللغة اليونانية بعد رفع المسيح بثلاث وعشرين سنة ، وقد اختلف النصارى في تاريخ تأليف هذا الإنجيل ، فقال فريق إن الذي كتبه هو (بطرس) رئيس الحواريين ، وقال آخرون إن (مرقس) كتب انجيله بعد موت بطرس وبعد موت بولس أيضاً وجاء في كتاب (مرشد

---

(١) قصص الأنبياء ص٣٩١

الطالبين) : إن إنجيل مرقس كتب بتدبير بطرس سنة ٦١ لنفع الأمم الذين كان تنصرهم بخدمته ، وهذا الإنجيل ينكر ألوهية المسيح .

فأنت ترى أن الشكّ قد وقع عند مؤرخي النصرانية في تعيين كاتب هذا المصنف بشكل جازم كما ثبت أن عيسى عليه السلام لم يكتب هذا المصنف ولم يمله فكيف تطمئن النفس إليه ؟

٣ — وإنجيل (لوقا) كتب باتفاق مؤرخي النصارى بعد عشرين سنة من رفع عيسى عليه السلام ، وهو ليس من تلاميذ المسيح اتفاقاً ، ولا من تلاميذ تلاميذه ، وإنما هو تلميذ (بولس) وبولس هذا كان يهودياً متعصباً على المسيحية ولم ير المسيح في حياته ، وكان يسيء إلى النصارى إساءات بالغة ، ولمّا رأى أن اضطهاده للنصرانية لا يجدي عمد من طريق الحيلة إلى الدخول فيها ، وأظهر الاعتقاد بالمسيح ، وادّعى أنه صرع وفي حال صرعه لمسه المسيح ، وزجره عن الإساءة لأتباعه ، ومن ذلك الوقت آمن وأرسله المسيح ليبشّر بإنجيله ، وانطلت حيلته على الكنيسة ، وأباح لهم أكل الميتة وشرب الخمر ، وقد أتي (لوقا) في إنجيله بزيادات كثيرة عما ذكره (متّى) و (مرقس) بشكل واضح يرتاب له القارىء[1] .

وهنا يقف البحث العلمي شاكاً في (لوقا) ومتهماً استاذه (بولس) بتحريف الديانة النصرانية في أصول عقيدتها ومثبتاً أنّ هذا المصنف لا صلة له بعيسى عليه السلام كتابة ولا إملاءً .

٤ — وإنجيل (يوحنّا) كتب بعد رفع المسيح بـ ٣٢ سنة وتزعم الكنيسة أنّ هذا المصنف من كتابة (يوحنّا بن زبدي) أحد تلاميذ المسيح عليه السلام وقد أنكر جمهور كبير من محققي النصارى نسبة هذا المصنف إليه وبينوا أنه تصنيف طالب من طلبة مدرسة الاسكندرية في القرن الثاني الميلادي ، وجاء في دائرة المعارف البريطانية ، التي اشترك فيها خمسمأة من علماء النصارى ما نصه :

---

(١) انظر قصص الأنبياء ص٤٠٠ .

(أمّا إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزوّر أراد صاحبه مضادّة اثنين من الحواريين وهما القدّيسان (يوحنّا ومتّى) وقد ادّعى هذا الكاتب المزوّر في متن الكتاب أنه الحواريّ الذي يحبه المسيح ..) .

وقد انفرد هذا الإنجيل بفقرات تدل على (ألوهية المسيح) والعجيب في الأمر أنّ الكنيسة تعتمد عليه في معتقدها المخالف لأصول الديانة التي أنزلها الله على عيسى عليه السلام مع علمها اليقيني بعدم صحة نسبة هذا الإنجيل إلى (يوحنا) أحد تلامذة السيد المسيح .

وقد ذكر الشيخ النجار في كتابه (قصص الأنبياء) صوراً عن تناقض هذه الأناجيل الحاليّة وعن اضطرابها واختلافها بشكل يلمس فيه الإنسان عدم الوثوق بما كتب فيها فارجع إليه إن شئت فإنه دقيق ونفيس [١] .

وفي الخاتمة يتضح لنا أن الأناجيل الموجودة الآن محرّفة ، وأنها غير الإنجيل الذي أنزله الله ، وأنها منقطعة الإسناد ومضطربة المتن ويكفي هذا لعدم الاطمئنان والوثوق بما فيها من أخبار وأحكام .

عقيدة النصارى في المسيح :

لم يختلف أحد من الناس ، في شأن نبيّ من الأنبياء ، كما اختلفوا في شأن المسيح عليه أفضل الصلاة والسلام ، ولم يقع جدل حول « نبوّة » أحد من الرسل كما وقع حول نبوّة السيد المسيح عليه السلام .

والعجيب في الأمر أنّ أهل الكتاب قد تنازعوا في شأن المسيح واضطربوا وذهبوا بين إفراط وتفريط .. فاليهود ادّعوا أنه (ابن زنى) لأنّ الولد لا بدّ أن يكون له أب ، والمسيح ليس له أب فلا بدّ أن يكون ابن زنى .. والنصارى ادّعوا أنه (ابن الله) لانه خلق من روح الله ، وروح الله جزء من الإله فلا بدّ أن يكون ابن الله. لقد غالى الفريقان في شأن السيد المسيح فأناس جعلوه ابن الله ، وأناس جعلوه ابن زنى ، والكل على خطأ وضلال ، والحقيقة هي ما

(١) قصص الأنبياء ص٤٠٢ .

قرّرها القرآن الكريم وهو أنه رسول من الرسل الكرام بعثه الله إلى بني اسرائيل بالهدى والبيات ، وأمّه هي العفيفة الصدّيقة ، الطاهرة البتول ، التي أحصنت فرجها وكانت من القانتين ، استمع إلى هذا البيان الرائع ، والحق المبين في آيات الذكر الحكيم :

﴿ما المسيحُ ابنُ مريم إلاّ رسولٌ قد خلَتْ منْ قبلِه الرسلُ ، وأمّهُ صدّيقةٌ ، كانا يأكلان الطعام ، انظرْ كيف نُبيّنُ لهُم الآيات ثمّ انظرْ أنىّ يـُؤفكون ؟﴾

فالآية الكريمة فيها ردّ على الفريقين : ردّ على النصارى في دعواهم أنه ابن الله وردّ على اليهود في دعواهم أنه ابن زنى فهو رسول وأمه صدّيقة ، ثم انظر إلى هذا الأدب الرفيع الذي هو غاية في الإبداع حيث ذكر أكل الطعام (كانا يأكلان الطعام) ليشير إلى أن الذي يأكل ويشرب هو محتاج ، والإله ليس بمحتاج ، والذي يتناول الطعام يحتاج إلى إخراج الفضلات ، يحتاج إلى التغوط وإلى أن يدخل بيت الخلاء ، فكيف يليق هذه بالإله أو بابن الإله .

وقد ذكر لنا القرآن الكريم عقائد النصارى مفصّلة ، وبيّن أنهم فرق ثلاثة :

١ – منهم من يعتقد بأنّ المسيح هو ابن الله لأنه خلق من روحه .

٢ – ومنهم من يعتقد بأنّ المسيح نفسه هو (الله) تجسّم وتجسّد في صورة (يسوع) ونزل إلى الأرض ليخلّص الناس من آثامهم .

٣ – ومنهم من يعتقد بعقيدة التثليث (الأقانيم الثلاثة) الآب ، والابن وروح القدس ، وأن الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة .

جاء في كتاب قصص الأنبياء ما نصّه :

« أمّا جماعة النصارى فقد خلقوا لهم عقيدة هي أنّ الله مركب من ثلاثة أقانيم : الآب ، والابن ، والروح القدس ، وهذه كلها واحد ، فانحدر الله الذي هو الأب أو الابن – على اختلاف اقوالهم – وحلّ في مريم وتجسّدإنساناً وولد منها وهو (يسوع) إلى آخر ما يقولون .

وهذا الكلام لم يقله المسيح ولم يعلم به ولكنّ المسيحيّين لما أذاعوا المسيحية بين الوثنيّين ، الذين كانوا يدينون بالأقانيم وتجسد الآلهة والصلب والفداء ،

ودخلوا في المسيحية حاملين لتلك العقيدة أحبّوا أن يوفقوا بين ما ألفوه من عقيدة وبين هذا الدين الجديد ، وأخذوا يؤلّهون المسيح ويقولون : إن الله انحدر منه (اقنوم الابن) المتحد مع (الأب) و (الروح القدس) وتجسّد في (رحم مريم) ثم خرج إنساناً إلهاً[1] .

ويتساءل المرء كيف يكون (عيسى) إلهاً مع أنه قد خرج من فرج امرأة وولد كبقية الناس ؟ وكيف يكون إلهاً مع أنه كان يأكل ويشرب وينام ويتألم ويتعب ويحتاج للذهاب إلى الحمّام ﴿تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً﴾.

ولقد ردّ القرآن الكريم على النصارى باطلهم وضلالهم ، وبيّن كفرهم وعنادهم ، وذكر ما هم عليه من ضلال وزور وبهتان في شأن السيّد المسيح فقال جل ثناؤه :

﴿يا أهلَ الكتاب لا تغلُوا في دينكُم ولا تقولُوا على الله إلا الحق ، إنما المسيحُ عيسى بنُ مريمَ رسولُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروحٌ منه ، فآمنوا بالله ورُسُله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إلهٌ واحدٌ ، سبحانه أن يكون لهُ ولد ، له ما في السموات وما في الأرض ، وكفى بالله وكيلاً﴾.

وقال جلّ ثناؤه في سورة المائدة مؤكداً كفرهم في تلك العقيدة الضالّة :

﴿لقدْ كفَرَ الذين قالوا إنّ الله هو (المسيحُ بنُ مريم) وقال المسيحُ يا بني اسرائيل اعبُدوا الله ربي وربّكُم إنّهُ منْ يُشرِكْ بالله فقدْ حرّم اللهُ عليه الجنّة ومأواه النارُ ، وما للظالمينَ من أنصارٍ . لقد كفَرَ الذين قالوا إنّ الله (ثالثُ ثلاثة) وما منْ إله إلا إلهٌ واحدٌ ، وإن لم ينتهوا عمّا يقولون ليمسَّنّ الذين كفروا منهُمْ عذابٌ أليمٌ . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفورٌ رحيمٌ . ما المسيحُ ابنُ مريم إلاّ رسولٌ قد خلتْ من قبلِه الرسلُ وأمه صدّيقةٌ كانا يأكلان الطعام ، انظرْ كيفَ نُبيّنُ لهم الآيات ، ثمّ انظرْ أنّى يُؤْفكون﴾ . يؤْفكُون : أي يصرفون عن الحق إلى الضلال .

وإذا كان اليهود والنصارى يعجبون من أمر (عيسى) لأنه ولد بدون أب

---

(١) قصص الأنبياء ص٤٥٤ .

فأمر (آدم) أعجب لأنه ولد بدون أب وبدون أم ، فالذي خلق آدم من تراب وقال له كن فيكون هو الذي خلق عيسى بدون أب ، وهو جلّ وعلا القادر على كل شيء ، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، ومن أجل ذلك ضرب القرآن الكريم المثل بآدم فقال جل وعلا: ﴿ إنّ مثلَ عيسى عندَ اللهِ كمثل آدمَ خلقه من ترابٍ ثمّ قال له كُن فيكونُ. الحق من ربك فلا تكنْ من الممتَرينَ ﴾

معجزات السيد المسيح :

ومعجزات السيد المسيح كثيرة ذكر بعضها القرآن الكريم ، وهي كسائر معجزات الأنبياء لا تدل على (ألوهيته) وإنما تدل على صدق نبوّته ، منها : شفاء المرضى ، وإبراء الأكمة (الأعمى) وإحياء الموتى ، والإخبار عن بعض المغيّبات ، والكلام في المهد إلى غير ما هنالك من معجزات . قال تعالى : ﴿ إذ قالَ اللهُ يا عيسى بن مريم اذكرْ نعمتي عليك وعلى والدتِك ، إذْ أيدتك بروح القُدُس تُكلّم الناس في المهدِ وكهلاً ، وإذْ علّمتك الكتاب والحكمةَ والتوراةَ والإنجيل ، وإذْ تخلُقُ من الطين كهيئةِ الطير بإذني فتنفخ فيها فتكونُ طيراً بإذني ، وتبرىءُ الأكمه والأبرصَ بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني .. ﴾ الآية .

خاتمة هل سينزل السيد المسيح إلى الأرض :

لم تنته مهمة السيد المسيح عليه السلام بعد ، وسينزل إلى الأرض ليتمّم رسالته ويبلّغ دعوته ، فهو الآن حيّ في السماء ، رفعه الله تعالى إليه بروحه وجسده ، وقد أخبر الصادق المصدوق عن ذلك ونحن نؤمن بما أخبر عنه القرآن وبما حدّث عنه الرسول المعصوم فقد جاء في الحديث الشريف : « يوشك أن ينزل فيكم عيسى بن مريم حكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية » الحديث وسيحكم بشريعة القرآن فلا يقبل من أحد إلا الإسلام فصلوات ربي وسلامه عليه وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء والمرسلين .

٥ ــ محمد خاتم النبيين ﷺ

محمد رسول الله ﷺ هو خاتم رسل الله جميعاً ، ختم الله به النبوّة والرسالة كما ختم بالقرآن العظيم الكتب السماوية ، فكان ختام مسك، إذ هو آخر المرسلين وجوداً ، وأوّلهم رتبة ومنزلة ، فهو سيّد ولد آدم وفخرهم في الدنيا والآخرة ،

﴿ما كانَ محمدٌ أبا أحدٍ منْ رجالِكُم ،ولكنْ رسولَ الله وخاتمَ النبيّينَ، وكان اللهُ بكل شيءٍ عليماً﴾ .

وقال رسول الله ﷺ :

« إنّ الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه ، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً ، وخيركم نفساً » « رواه أحمد » .

وقال ﷺ :

« أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر ، وما من نبيٍ آدم فمن سواه إلاّ تحت لوائي » « رواه الترمذي » .

نسبه الشريف :

هو محمد بن (عبد الله) بن (عبد المطّلب) بن (هاشم) بن (عبدمناف) ابن (قُصَيّ) بن (كِلاب) بن (مُرّة) بن (كعب) بن (لُؤي) بن

---

(١) يلاحظ القارىء أنا قد ذكرنا هنا نبذة يسيرة عن رسالة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم ولم نفصل لأن التفصيل يحتاج إلى كتاب خاص في تاريخ حياته ودعوته صلوات الله وسلامه عليه .

(غالب) بن (فِهْر) بن (مالك) بن (النضر) بن (كِنَانة) بن (خزيمة) ابن (مدركة) بن (إلياس) بن (مضر) بن (نزار) بن (مَعَدّ) بن(عدنان) إلى أن ينتهي إلى (اسماعيل) بن ابراهيم عليهم السلام .

وكل أجداده ﷺ هم من السادة الأشراف ، ونسبه ﷺ من أشرف الأنساب ، فما بعث الله نبياً إلا في أشرف نسب ، وفي صحيح البخاري لمّا سأل (هرقل) ملك الروم أبا سفيان عن رسول الله ﷺ قال : كيف نسبه فيكم ؟ قال هو فينا ذو نسب فأجابه هرقل بقوله : « كذلك الرسل تبعث في أنساب قومها » يعني في أكرم قومها حسباً ، وأشرفها قبيلة . وقد كانت ولادته ﷺ ولادة الطهر والشرف ، لم يصبه شيء من عُهْر الجاهلية ، وكان بنكاح صحيح يشبه نكاح الإسلام ، يشهد لذلك قول النبي ﷺ : (إني خرَجتُ من نكاح ، ولم أخرُج من سفاح) وفي رواية عائشة (ولدت من نكاحٍ غير سفاح) .

ورسول الله ﷺ هو من أولاد (اسماعيل) عليه السلام وليس من أولاد (اسحق) وأنبياء بني إسرائيل كلهم من نسل يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ، وأمّا رسول الله ﷺ فقد كان من ذرية اسماعيل ففي حديث مسلم « إنّ الله اصطفى من ولد إبراهيم اسماعيلَ ، واصطفى من بني اسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » وفي بعض الروايات ، فأنا خيار من خيار من خيار .

ولادته صلى الله عليه وسلم :

ولد صلوات الله وسلامه عليه يوم الاثنين ، الثاني عشر ١٢ من ربيع الأول عام الفيل ، وذلك حوالي سنة (٥٧٠) ميلادية أعني من ميلاد السيّد المسيح عليه السلام ، قال (ابن كثير) : وهذا ما لا خلاف فيه أنه ولد يوم الاثنين[١] وقد روى ابن عباس قال : « ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين ، واستنبىء يوم

(١) البداية والنهاية ص٢٦٠ .

الإثنين ، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين ، وتوفي يوم الاثنين » «رواه أحمد » .

وأمّا كونه ولد عام الفيل فذلك مقطوع فيه ، ولكن اختلفوا في اليوم والشهر ، والجمهور على أنه في الثاني عشر من ربيع الأول كما نصّ عليه ابن اسحق في السيرة ، وروي عن ابن عباس أنه قال : « ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الاثنين ، الثاني عشر من شهرربيع الأول ، وفيه بعث ، وفيه عرج به إلى السماء ، وفيه هاجر ، وفيه مات » قال في البداية والنهاية : وهذا هو المشهور عند الجمهور[1] .

وأبوه هو (عبد الله بن عبد المطلب ....) إلى آخر النسب الشريف كما مرّ سابقاً . واسم أمه (آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة ...) وهكذا حتى آخر سلسلة نسب الرسول صلوات الله عليه فتجتمع هي وزوجها في الجد السادس (كلاب) .

من هو ابن الذبيحين ؟ : يذكر المؤرخون وأهل السيرة أن رسول الله هو المسمّى (ابن الذبيحين) وقد ذكرنا أنه ﷺ من ولد اسماعيل بن ابراهيم ، واسماعيل هو الذي أُمِرَ إبراهيم عليه السلام بذبحه في المنام — كما مرّ في قصة إبراهيم الخليل — فإسماعيل هو (الذبيح الأول) وأمّا (الذبيح الثاني) فهو والد الرسول (عبد الله) الذي أراد عبد المطلب ذبحه للقصة الآتية :

قصة ذبح عبد الله :

قال ابن اسحق : « وكان عبد المطلب — فيما يزعمون — نذر حين لقي من قريش ما لقّي عند حفر زمزم لئن ولد له عشرة نفر ثمّ بلغوا معه حتى يمنعوه ليذبحنّ أحدهم لله عند الكعبة ، فلما تكامل بنوه عشرةً وعرف أنهم سيمنعونه

(١) المرجع السابق ص٢٦٠ .

وهم (الحارث ، والزبير ، وحجل ، وضرار ، والمقوم ، وأبو لهب ، والعباس وحمزة ، وأبو طالب ، وعبد الله) جمعهم ثمّ أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله عزّ وجل بذلك فأطاعوه وقالوا : كيف نصنع ؟ قال : ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم ليكتب فيه اسمه ثم ائتوني ، ففعلوا ثمّ أتوه ، فدخل بهم على (هبل) في جوف الكعبة وجاء يستقسم بالقداح ، فخرج القدح على ابنه (عبد الله) وكان أصغر ولده وأحبهم إليه ، فأخذ عبد المطلب بيد ابنه عبد الله وأخذ الشفرة ثمّ أقبل به ليذبحه فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا : ما تريد يا عبد المطلب ؟ قال : أذبحه ، فقالت له قريش : والله لا تذبحه أبداً حتّى تعذر فيه ، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يجيء بابنه حتّى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ ثمّ دلّوه على عرّافة واسمها (سجاح) فاشارت عليه أن يقرّب عشراً من الإبل ثمّ يضرب عليها بالقداح وأن يزيد حتّى يرضى الربّ ففعل فخرج القدح على عبد الله فزاد عشراً ثم عشراً إلى أن بلغت مائة من الإبل فضرب فخرجت على الإبل فقالت قريش : قد رضي ربك فذبح الإبل فداءً لولده عبد الله ومنذ ذلك الحين أصبح يسمى الرسول ابن الذبيحين .

أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم :

هو سيدنا محمد ﷺ ويكنى (أبا القاسم)و(أبا إبراهيم)وله عدة أسماء : محمد ، وأحمد ، والماحي الذي يمحو الله به الكفر ، والعاقب الذي ليس بعده نبي ، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه ، والمقفى ، ونبيّ الرحمة ، ونبيّ التوبة ، ونبيّ الملحمة ، والفاتح ، وطه ، ويس ، وخاتم النبيّين[1] .. وغيرها من الأسماء .

وقد بشّرت به التوراة والإنجيل وفيهما أوصافه صلوات الله عليه كما قال تعالى ﴿الذين يتّبعون الرسول النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ..﴾ الآية .

(١) انظر البداية والنهاية ص٢٥٢

واسمه في التوراة (أحمد) وكذلك في الإنجيل وقد بشّر به السيّد المسيح عليه السلام كما قال تعالى ﴿وإذْ قال عيسى بنُ مريم يا بني إسرائيلَ إني رسولُ الله إليكم مصدّقاً لما بين يَدَيَّ من التوراةِ ، ومُبشِراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمُه أحمد ..﴾ الآية .

ولكنّ النصارى طمسوا تلك المعالم كلها ، وأنكروا كل وصفٍ له في الإنجيل حسداً وبغضاً ، وزعموا أنّ الذي بشّر به المسيح هو غير محمد وهم ينتظرونه ، وأمّا ما ورد في (إنجيل برنابا) من أوصاف الرسول ﷺ فقد كذبوا به وأنكروا الإنجيل من أصله لئلا يقرّوا بنبوته ﷺ .

قال القاضي عياض في كتابه (الشفاء) : وأما اسم (أحمد) الذي أتى في الكتاب ، وبشّرت به الأنبياء ، فمنع الله بحكمته أن يسمّى به أحد غيره ، ولا يدعي به مدعو قبله ، حتّى لا يدخل لبس على ضعيف القلب أوشك، وكذلك (محمد) لم يسمّ به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبل وجوده وميلاده أن نبياً يبعث اسمه أحمد ، فسمّى قوم من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم[1] ..

ورسول الله ﷺ هو أثر دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهُم يتلو عليهم آياتِك﴾ ولهذا قال ﷺ :

« أنا دعوة إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمّي أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام » . « رواه أحمد » .

صفة الرسول في التوراة :

(روى الإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال : لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص فقلتُ أخبرني عن صفات رسول الله ﷺ في التوراة فقال : أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن : (يا أيُّها النبيّ إنّا أرسلناكَ شاهداً ومُبشراً ونَذيراً ، وحِرزاً للأميّين ، أنت عبدي ورسولي ، سمّيتُك المتوكل

(١) انظر الشفاء للقاضي عياض .

ليس بفظٍّ ولا غليظ ، ولا صخّاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيموا الملّة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلاّ الله ، يفتح الله بها أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً) .

وروى (ابن اسحاق) عن حسّان بن ثابت أنه قال :

« إني لغلام يفعة – ابن سبع سنين ، أو ثمان سنين – أعقل ما رأيت وسمعت إذا بيهودي في يثرب (المدينة المنورة) يصرخ ذات غداة يا معشر يهود فاجتمعوا إليه – وأنا أسمع – فقالوا : ويلك مالك ؟ قال : قد طلع نجم أحمد الذي يولد به في هذه الليلة[١] » .

مرضعات الرسول :

أرضع الرسول ﷺ أمّه (آمنةُ بنت وهب) و (ثويبة الأسلمية) و (أم أيمن) و (خولة بنت المنذر) وأكثرهن إرضاعاً له (حليمة السعدية) رضي الله تعالى عنها . قدمت (حليمة) مع عشرة نسوة من بني سعد إلى مكة يلتمسن الرضعاء ، في سنة شهباء شديدة المجاعة ، فعُرِضَ رسولُ الله ﷺ عليهنّ من أجل إرضاعه فما قبلته امرأة منهنّ لأنه يتيم ، فكان كلّما عرض على واحدة منهن تقول : ماذا عسى أن تصنع إلينا أمّه ؟ إنما نرجو المعروف من أبي الوليد ، فأمّا أمه فماذا سنرجو منها ؟! وجاءت حليمة إلى (عبد المطلب) تطلب رضيعاً فقال لها : إنّ عندي غلاماً يتيماً وقد عرضته على نساء بني سعد فأبين أن يأخذنه ، فهل لك أن ترضعيه فعسى أن تسعدي به ؟ فاستشارت زوجها (الحارث بن عبد العزّى) فقال لها : لا بأس عليك أن تفعلي فعسى أن يجعل الله لنا فيه خيراً وبركة .

تقول حليمة رضي الله عنها : فما هو إلاّ أن أخذته فجئت به رحلي ، فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روي وشرب أخوه حتى روي وقام زوجي إلى شارفنا فإذا بها مملوءة لبناً ، فحلب لنا ثمّ شرب وشربنا حتى

(١) انظر السيرة النبوية لابن اسحق والبداية والنهاية لابن كثير .

روينا فبتنا بخير ليلة فقال زوجي : يا حليمة والله إني لأراك أخذت نسمة مباركة ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير والبركة ! !

ثم خرجنا راجعين فقطعت الركب بأتاني حتى ما يسبقني أحد ، فكلما مررت على صواحبي قلن لي يا حليمة : هذه أتانك التي خرجت عليها معنا ؟ فأقول : نعم والله إنها لهي ، فيقلن والله إن لها لشأناً .. قالت : حتى أتينا أرض سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمي تسرح ثم ترجع شباعاً لبناً نحلب منها ما شئنا ، وترجع أغنامهم جياعاً ما فيها قطرة لبن ، فلم يزل الله تعالى يرينا الخير والبركة حتى بلغ سنتين ،فكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، فو الله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جفراً قوياً[١] .

حادثة شق الصدر :

بينما رسول الله ﷺ مع إخوته من الرضاع يرعى غنماً لحليمة السعدية إذ جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعاه فشقا بطنه ، فجاء أخوه من الرضاع يشتد نحو بيت حليمة فأخبرها الخبر ، قالت : فخرجت أنا وأبوه نشتد (نسرع) نحوه فوجدناه قائماً منتقعاً لونه ، فاعتنقه أبوه وقال : يا بني ما شأنك ؟ قال جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعاني وشقا بطني ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه ، ثم رداه كما كان قالت : فرجعنا به معنا ، فقال أبوه يا حليمة : لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب فانطلقي بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نخاف عليه ، قالت حليمة : فاحتملناه فقدمنا به على أمه فقالت ما شأنكما لقد كنتما عليه حريصين ، فقالا لها : لقد خشينا عليه التلف والحدث — وحدثاها بقصته — فقالت : أخشيتما عليه الشيطان ، كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل ، والله إنه لكائن لابني هذا شأن ، ثم قالت أمه آمنة : ألا أخبركما خبره ؟ قلنا بلى ! قالت : إني لما حملت به ما حملت حملاً قط أخف منه ، فأريت في النوم حين حملت به كأنه خرج مني نور أضاءت له قصور الشام ، ثم لما ولدته

(١) انظر سيرة ابن اسحاق .

رأيت منه عجباً ، رأيته رافعاً رأسه إلى السماء معتمداً على يديه ، كأنه يريد أن يتكلم فدعاه عنكما [١] ..

قال ابن كثير : وهذا الخبر روي من طرق أخر وهومن الأحاديث المشهورة بين أهل السير والمغازي . وقد وقعت حادثة شق الصدر لرسول الله ﷺ في صغره وعمره قريب من ثلاث سنين ، وكان لا يزال عند حليمة السعدية ، كما وقعت له حادثة أخرى تماثلها قبل الإسراء وذلك حين شقّ صدره واستخرج قلبه الشريف فغسل بماء زمزم واستخرج منه حظّ الشيطان وملىء جوفه حكمة وعلماً [٢] .

وقد ذكر ابن اسحاق في السيرة أن بعض الصحابة سألوا رسول الله ﷺ فقالوا أخبرنا عن نفسك ، قال : نعم « أنا دعوة أبي ابراهيم ، وبشرى عيسى عليهما السلام ، ورأت أمّي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام ، واسترضعت في بني (سعد بن كعب) فبينا أنا في بهم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض ، معهما طست من ذهب مملوء ثلجاً ، فاضجعاني فشقّا بطني ثمّ استخرجا قلبي فشقّاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها ، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتّى إذا أنقياه ردّاه كما كان ، ثمّ قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته فوزنني بعشرة فوزنتهم ، ثمّ قال زنه بمائة من أمته فوزنني بمائة فوزنتهم ، ثم قال زنه بألف من أمته فوزنني بألف فوزنتهم ، فقال دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنهم[٣] » قال ابن كثير : وهذا إسناد جيّد قوي .

يتلخص من هذا أن (حادثة شقّ الصدر) للرسول الأعظم ﷺ قد وقعت له مرتين مرة في صغره حين كان مسترضعاً عند حليمة السعديّة ، ومرة في كبره وذلك في ليلة الإسراء كما ثبت ذلك في الصحيحين ، وليس هذا بالأمر

---

(١) انظر البداية والنهاية ص٢٧٥ .
(٢) الحديث مروي في الصحيحين .
(٣) انظر البداية والنهاية ص٢٧٥ .

المستغرب على قدرة الله عزّ وجل فقد أصبح الشقّ في زماننا أمراً مألوفاً ، يفعله الطبيب الجراح بالشخص المريض فيستخرج قلبه ويجري فيه العملية الدقيقة ثمّ يرده إلى مكانه والمريض لا يشعر بألم أو غيره ويرجع المريض صحيح الجسم ، قويّ البنية كأنه لم يكن به مرض ، كما أصبحت عملية (زرع القلب) شائعة في كثير من البلدان ، والعمليات الجراحية اليوم أصبحت مألوفة وعاديّة بحيث تجري في أدقّ أقسام البدن ، أفيكون شق صدر الرسول ﷺ مستحيلاً على قدرة الله عز وجل حتى ينكره بعض ضعفاء الإيمان !! ويؤلوا الحادثة تأويلاً باطلاً ما أنزل الله به من سلطان !!

أولاد الرسول :

أولاد الرسول ﷺ سبعة وكلهم من (خديجة) رضي الله عنها إلا (ابراهيم) فهو من مارية القبطية ، وهم كالآتي :

١ — (القاسم) : وهو أكبر أولاده وبه يكنى صلوات الله عليه وقد عاش سنتين ثم مات .

٢ — (عبد الله) : وهو الثاني من الذكور وقد مات صغيراً في حياة الرسول .

٣ — (زينب) : وهي أكبر بناته تزوّج منها أبو العاص .

٤ — (رقية) : تزوج منها عثمان بن عفان رضي الله عنه .

٥ — (أم كلثوم) : تزوّج منها عثمان أيضاً بعد وفاة رقيّة بسنة .

٦ — (فاطمة الزهراء) : تزوّج منها علي بن أبي طالب ، وتسلسل منها آل بيت النبوّة ، وكلّهم ولدوا قبل البعثة إلا السيدة فاطمة فبعد النبوّة بسنة .

٧ — (ابراهيم) وهو من مارية القبطية التي تزوّج بها بعد وفاة خديجة وكل أولاده ماتوا قبله إلا السيدة فاطمة فإنها عاشت بعده ستة أشهر ، رضي الله عنهم جميعاً .

١

قال (ابن هشام) : وكان عمر رسول الله ﷺ حين تزوّج خديجة خمساً وعشرين سنة .

ولم يعدّد رسول الله ﷺ زوجاته إلاّ بعد وفاة السيدة خديجة وذلك لحكم جليلة منها : (تعليمية ، وتشريعية ، واجتماعية ، وسياسيّة) والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

حياة الرسول في كلمات :

حياة الرسول الأعظم ﷺ تحتاج إلى مجلدات ضخمة وإلى كتابة موسعة عن نشأته ودعوته ورسالته ، ولذلك فإننا سنذكر بعض النقاط ونجتزىء بها :

١ — نشأ الرسول ﷺ على اليتم والاغتراب وخشونة العيش وآلام الحياة فقد توفي أبوه (عبد الله) قبل ولادته وهو جنين في بطن أمه فجاء يتيماً محروماً من عطف الأب وحنانه .

٢ — ولما بلغ من العمر أربع سنين أرجعته (حليمة السعدية) مرضعته إلى أمّه في مكة فبقي عندها مع جده (عبد المطلب) في كلاءة الله ورعايته وحفظه ، ينبته الله نباتاً حسناً ، لما يريد به من كرامته وتوفيقه .

٣ — ولما بلغ من العمر ست سنين أخذته أمه (آمنة) إلى المدينة المنورة لزيارة بني النجار أخوال أبيه ، فماتت وهي راجعة إلى مكة في (الأبواء) بين مكة والمدينة فاصبح رسول الله ﷺ يتيم الأبوين .

٤ — بقي رسول الله ﷺ في كفالة جدهّ عبد المطّلب بعد وفاة أمه ، وكان جدّه يحبّه ويكرمه ، ويجلسه على فراشه الذي يفرش له في ظلّ الكعبة ، وكان أولاده لا يجلسون على الفراش إجلالاً لأبيهم ، فإذا جاء رسول الله وهو غلام جفْر وأراد الجلوس منعه أعمامه فكان أبو طالب يقول لهم : دعوا ابني فوالله إنّ له لشأناً . ثمّ يجلسه معه على فراشه ، ويمسح ظهره بيده ويلاطفه ، وهذا من عناية الله تعالى به وجميل إحسانه إليه ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يتيماً فآوى؟ ﴾ .

٥ — بعد سنتين من كفالة جده عبد المطلب توفي جدّه فكفله عمّه (أبو

طالب) وكان الرسول ﷺ ابن ثمان سنين ، وقد أوصى جده قبل وفاته به أبا طالب فكان أبو طالب يكرمه ويعطف عليه لأنه ابن أخيه (عبد الله) وتنفيذاً لوصية أبيه . وهكذا توالت النكبات على رسول الله ، فلم يعتن به مؤدب ، ولم يوجّهه مدرّب ، ولكنّ الله عز وجل حفظه ورعاه ، ونشّأه على كمال وخلق عظيم « أدّبني ربي فأحسن تأديبي » .

٦ — تزوج ﷺ بخديجة لما بلغ من العمر ٢٥ سنة ، وأوحى الله تعالى إليه لما بلغ ٤٠ أربعين سنة وذلك حوالي سنة ٦١٠ من ميلاد المسيح عليه السلام وأمره بتبليغ ما أنزل إليه بعد ٣ ثلاث سنوات من نبوته ، فقام يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولبث يدعو إلى الله في مكة وما حولها نحواً من عشر سنين حتى أذن الله له بالهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة) .

٧ — هاجر الرسول إلى المدينة وجعلها مركز دعوته ، وعاصمة دولته الدينيّة — دولة الإسلام — وكان ذلك بأمرٍ من الله تعالى وتوجيهٍ منه ، فهاجر ومعه (أبو بكر الصدّيق) لا فراراً من زحف ، ولا خوفاً من قتل ، وإنما بتخطيط وتدبير من العليّ القدير ، وبذلك بدأت نواة (الدولة الإسلامية) وقام بنيان الجماعة المحمدية التي فتحت — فيما بعد — مشارق الأرض ومغاربها ، ونشرت الإسلام في ربوع العالم ، وأصبحت كلمة الله هي العليا .

٨ — ولما أكمل الله للناس دينهم ، وأتمّ عليهم نعمته ، وأدّى رسوله محمد ﷺ الأمانة ، وبلّغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وفتح عليه بالنصر المبين ، اصطفاه الله تعالى إليه ، واختاره لجواره ، فقبض روحه ، وكان ذلك في يوم الاثنين من ربيع الأول لسنة ١١ من الهجرة النبوية .

اللهم صل وسلّم وبارك وعظّم على عبدك ورسولك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

٢ ــ الرسل غير أولي العزم

١ ــ ادريس عليه السلام

﴿واذكرْ في الكتابِ إدريسَ إنّهُ كانَ صدّيقاً نبياً.ورفعناهُ مكاناً علياً﴾.

* * *

إدريس عليه السلام هو أحد الرسل الكرام الذين أخبر الله تعالى عنهم في كتابه العزيز ، وذكره في بضعة مواطن من سور القرآن . . وهو ممن يجب الإيمان بهم تفصيلاً أي يجب اعتقاد نبوّته ورسالته على سبيل القطع والجزم ، لأن القرآن قد ذكره باسمه وحدّث عن شخصه فوصفه بالنبوة والصدّيقية فقال عز من قائل : ﴿واذكرْ في الكتاب إدريسَ إنه كان صدّيقاً نبياً﴾ .

نسبه عليه السلام :

هو إدريس بن يارد بن مهلائيل .. وينتهي نسبه إلى شيث بن آدم عليه السلام ، واسمه عند العبرانيين (خنوخ) وفي الترجمة العربية (أخنوخ) وهو من أجداد نوح عليه السلام ، وقد زعم بعض المؤرخين أنه لم يكن قبل نوح بل في زمن بني إسرائيل ، وهو زعم خاطىء ردّه الحافظ ابن كثير وغيره من المؤرخين الثقات .

مولده ونشأته :

إدريس عليه السلام هو أول بني آدم أعطى النبوة بعد (آدم) و (شيث) عليهما السلام ، وذكر ابن اسحاق أنه أول من خطّ بالقلم ، وقد أدرك من حياة آدم عليه السلام ٣٠٨ سنوات لأنّ آدم عمّر طويلاً زهاء ١٠٠٠ ألف سنة كما مرّ في قصته[١] عليه السلام .

(١) انظر البداية والنهاية الجزء الاول ص – ٩٩ .

وقد اختلف العلماء في مولده ونشأته .. فقال بعضهم : إنّ إدريس ولد ببابل ، وقال آخرون إنه ولد بمصر ، والصحيح الأول ، وقد أخذ في أول عمره بعلم شيث بن آدم . ولما كبر آتاه الله النبوّة ، فنهى المفسدين من بني آدم عن مخالفتهم شريعة (آدم) و (شيث) فأطاعه نفر قليل ، وخالفه جم غفير ، فنوى الرحلة عنهم وأمر من أطاعه منهم بذلك ، فثقل عليهم الرحيل عن أوطانهم ، فقالوا له : وأين نجد إذا رحلنا مثل (بابل) ؟ فقال : إذا هاجرنا لله رزقنا غيره ، فخرج وخرجوا حتّى وصلوا إلى أرض مصر فرأوا النيل فوقف على النيل وسبّح الله ، وأقام إدريس ومن معه بمصر يدعو الناس إلى الله وإلى مكارم الأخلاق[1] .!

وقد كانت مدة اقامة (إدريس) عليه السلام في الأرض (٨٢) سنة ثمّ رفعه الله إليه كما قال تعالى : ﴿ ورفعناهُ مكاناً عليّاً ﴾ .

وكانت له مواعظ وآداب ، فقد دعا إل دين الله ، وإلى عبادة الخالق جلّ وعلا ، وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة ، بالعمل الصالح في الدنيا ، وحضّ على الزهد في هذه الدنيا الفانية الزائلة ، وأمرهم بالصلاة والصيام والزكاة وغلّظ عليهم في الطهارة من الجنابة ، وحرّم المسكر من كل شيء من المشروبات وشدّد فيه أعظم تشديد ، وقيل إنه كان في زمانه ٧٢ لساناً يتكلم الناس بها ، وقد علّمه الله تعالى منطقهم جميعاً ليعلّم كل فرقةٍ منهم بلسانهم كما قال تعالى ﴿وما أرسلنا منْ رسولٍ إلا بلسانِ قومهِ ليُبيّنَ لهَم﴾.وهو أول من علّم السياسة المدنيّة ، ورسم لقومه قواعد تمدِين المدن ، فبنت كل فرقة من الأمم مدناً في أرضها ، وانشئت في زمانه ١٨٨ مدينة .

وقد اشتهر بالحكمة .. فمن حكمه قوله (خير الدنيا حسرة ، وشرّها ندم) وقوله (السعيد من نظر إلى نفسه ، وشفاعته عند ربه أعماله الصالحة) وقوله (الصبر مع الإيمان يورث الظفر) إلى آخر حكمه الكثيرة التي اشتهر بها عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

---

(١) انظر قصص الأنبياء للنجار ص٢٦ .

٢ ـ هود عليه السلام

﴿وإلى عادٍ أخاهُم هوداً قال يا قوم اعبدُوا اللهَ ما لكُم منْ إلهٍ غيره أفلا تتقونَ ؟﴾ .

* * *

ذكر (هود) عليه السلام في القرآن الكريم سبع مرات ، في عدد من السور الكريمة منها سورة الأعراف ، وسورة الشعراء ، وهناك سورة كاملة تسمى بسورة (هود) .. وقد أرسله الله تعالى إلى قبيلةٍ عظيمة من العمالقة تدعى قبيلة (عاد) وفيهم يقول الله جل ثناؤه :

﴿ كذّبتْ عادٌ المرسلينَ . إذْ قال لهَم ُ أخوهم هود ألا تتقونَ ؟ ﴾ .

و (عاد) هي من القبائل العربيّة البائدة ، المتفرّعة من أولاد (سام بن نوح) وسميت بذلك نسبةً إلى أحد أجدادها وهو (عاد بن عوض بن أرم بن سام) .

نسب هود :

هو (هود) عليه السلام بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن (عاد) جد القبيلة وينتهي نسبه إلى سام بن نوح عليه السلام ، وهذا هو الذي اختاره ابن جرير ، وقد ذكر (محمد بن اسحاق) نسباً يختلف عن هذا النسب والصحيح ما ذكرناه وقد رجّحه الأستاذ (النجار) في كتابه قصص الأنبياء .

مساكن عاد :

كانت مساكن (عاد) في أرض الأحقاف جهة اليمن ، من جنوب شبه الجزيرة العربية ، وتقع شمال حضرموت ، وفي شمالها الربع الخالي ، وفي شرقها

(عُمَان) وموضع بلادهم اليوم رمال ، ليس بها أنيس ولا سمير ، بعد ذلك العمران والنعيم المقيم ، قال تعالى :

﴿واذكرْ أخا عادٍ إذْ أنذرَ قومَه بالأحقاف ، وقد خلتِ النّذُرُ من بينِ يديهِ ومن خلفهِ ألا تعبدوا إلا اللهَ إني أخافُ عليكم عذابَ يومٍ عظيم﴾ .

وعاد هم (عاد إرم) التي تسمى عاد الأولى ، وأمّا عاد الثانية فمتأخرة قال تعالى : ﴿وأنّهُ أهلكَ عاداً الأولى وثمودَ فما أبقى﴾ وتسمى (عادَ إرم) لقوله تعالى : ﴿ألم ترَ كيفَ فعلَ ربّكَ بعاد . إرم ذاتِ العماد . التي لم يُخلقْ مثلُها في البلاد﴾ .

وقد كانت هذه القبيلة من العمالقة أشدّاءَ أقوياءَ ، وقد زادهم الله بسطةً في الجسم ، وكانوا مترفين في الحياة ، يبنون القصور الفخمة الشامخة ، ويقيمون القلاع والحصون ، وعندهم البساتين النضرة ، والعيون الجارية ، وقد غرقوا في النعيم ، وانغمسوا في البذخ والترف ، وقد قصّ القرآن الكريم ما كانوا عليه من مظاهر النعمة والترف فقال عزّ من قائل :

﴿أتبنونَ بكل ريعٍ آيةً تعبثون ؟ وتتّخذون مصانعَ لعلكم تخلدون . وإذا بطشتمْ بطشتمْ جبارين . فاتقوا اللهَ وأطيعون . واتقوا الذي أمدّكم بما تعلمون . أمدّكم بأنعامٍ وبنين . وجناتٍ وعيون﴾ .

وقد كانت أجسامهم قوية ، وبنيتهم ضخمة متينة ، وكانوا إذا مشوا على الأرض تهتز الأرض تحت أقدامهم لثقلهم ، كأنهم الجبال لفرط طولهم ، وضخامة أجسادهم ، فاغترّوا بقوتهم ، واستكبروا على الله ، وعتوا عن أمر رسله ، وتمادوا في طغيانهم فأهلكهم الله بالريح العاتية كما قال تعالى : ﴿فأمّا عادٌ فاستكبروا في الأرض بغيرِ الحقِ ، وقالوا : مَنْ أشدُّ منّا قوةً ؟ أولم يروا أنّ الله الذي خلقَهُم هو أشدُّ منهُم قوةً وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلْنا عليهم ريحاً صَرْصراً في أيام نحساتٍ لنذيقَهُم عذابَ الخزي في الحياة الدنيا ، ولَعذابُ الآخرةِ أخزى وهم لا يُنصرون﴾ .

عبادتهم :

كان قوم (هود) عليه السلام أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله تعالى ، وهم أول من عبد الأصنام بعد الطوفان ، قال ابن كثير : وكانت لهم أصنام ثلاثة (صدا ، وصمودا ، وهرا [1] وكانوا عرباً جفاةً ، عتاةً كافرين متمرّدين على الله ، وكان (هود) عليه السلام ينذرهم ويحذّرهم عذاب الله ، ويضرب لهم المثل بقوم نوح ويذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم ، ويبيّن لهم أنه لا يطلب على نصيحته أجراً منهم ، ولا يبتغي جزاءً ولا شكوراً ، وكان منهم ناس قد عتوا عتواً كبيراً فقد قاوموا دعوته ، وسفّهوا رأيه ، وعزموا على الفتك به ، ورموه بالسّفه والجنون ، واتهموه بأنّ آلهتهم قد أصابته بسوء ، وأنّ ما يهزىء به إنما بسبب مسّ الآلهة له قال تعالى حكاية عنهم : ﴿قالوا يا هودُ ما جئتنا ببيّنةٍ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولِك،وما نحنُ لكَ بمؤمنينَ .إنْ نقولُ إلاّ اعتراكَ بعضُ آلهتِنا بسوءٍ ، قال:إني أشهد الله واشْهدُوا أنّي بريءٌ ممّا تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثمّ لا تُنْظرون﴾ .

وقد أنذرهم (هود) علبه السلام عذاب الله ، ولكنّهم بقوا على كفرهم وعنادهم .

هلاك عاد :

لما طغت عاد وتمرّدت على نبيّ الله (هود) عليه السلام ، ولم ينفعها التذكير والإنذار وتمادت في طريق العصيان ، حبس الله عنهم المطر ثلاث سنين ، حتّى اشتد عليهم الجهد والبلاء ، فاستغاثوا واستنجدوا فأرسل الله عليهم سحاباً كثيفاً من السماء ، فلمّا رأوا السحاب فرحوا واستبشروا وظنوا أنه مطر غزير ، وأنّ الله قد تداركهم برحمته واستجاب دعاءهم حين استغاثوا ، فلما أظلتهم السحابة رأوها سوداء قاتمة ففزعوا ، ثمّ هبت عليهم الريح – وكانت ريحاً عقيماً –

---

(١) البداية والنهاية ج١ ص١٢١ .

وسلّطها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً ، فأهلكهم الله وأبادهم ، وصارت أجسامهم كأنها أعجاز نخل خاوية ، ونجّى الله هوداً والذين آمنوا معه برحمته من ذلك العذاب الغليظ ، وكان الذين هلكوا من قوم عاد قد هلكوا عن آخرهم ، فلم يبق من أنفسهم ولا من ديارهم شبح و لا رسم لأنّ الريح قد دمّرت كل شيء فلم تبق عليهم ولم تذر استمع إلى قوله تعالى :

﴿ فلمّا رأوْهُ عارضاً مستقبلَ أوديتِهم قالوا: هذا عارضٌ ممطِرُنا، بلْ هو ما استعجلتم به ريحٌ فيها عذابٌ أليمٌ. تُدمّر كل شيءٍ بأمرِ ربها فأصبحُوا لا يُرى إلاّ مساكنُهم كذلكَ نجزي القوم المجرمين﴾ وهذه الريح تسمّى (الريح العقيم) التي ذكرها الله في كتابه العزيز بقوله :

﴿ وفي عادٍ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شيء أتت عليه إلاّ جعلته كالرميم﴾ .

وقد سكن (هود) عليه السلام بلاد حضرموت بعد هلاك عاد إلى أن مات ودفن في شرقي حضرموت على بعد مرحلتين من مدينة (تريم) ، وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه مدفون في كثيبٍ أحمر وعند رأسه سمرة في حضرموت ويزعم أهل فلسطين أنه مدفون عندهم والصحيح ما ذكرناه والله أعلم .

٣ - صالح عليه السلام

﴿ولقد أرسلنا إلى ثمودَ أخاهُم صالحاً أن اعبدوا اللهَ فإذا هم فريقان يختصمون﴾ .

نسبه عليه السلام :

هو صالح بن عبيد بن آسف .. وينتهي نسبه إلى (سام بن نوح) وقد أرسله الله تعالى في قبيلةٍ من القبائل العربيةِ البائدة وهي قبيلة (ثمود) وسميت بذلك نسبة إلى أحد أجدادها وهو (ثمود بن عامر) من أولاد سام بن نوح .

ويقال للعرب الذين كانوا قبل (اسماعيل) عليه السلام (العربُ العاربة) وهم قبائل كثيرة منهم عاد ، وثمود ، وجرهم ، ومدين ، وقحطان .. الخ .

وأما العرب المستعربة فهم من نسل (اسماعيل) بن ابراهيم الخليل ، وكان اسماعيل عليه السلام أول من تكلّم بالعربية الفصيحة البليغة ، وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه (هاجر) في مكة المكرمة[١] .

والمقصود أن قبيلة (ثمود) كانت قبل اسماعيل عليه السلام ، وأنهم من العرب العاربة .

مساكن ثمود :

كانت مساكن ثمود بالحِجْر ، ولذلك سمّاهم الله في القرآن الكريم (أصحاب الحجر) قال تعالى :

﴿ولَقَدْ كَذَّبَ أصْحَابُ الحِجْر المرسَلينَ . وآتيناهمْ آياتِنَا فكَانُوا

(١) البداية والنهاية ج١ ص١٢٠ .

عنها مُعْرِضينَ﴾ .

وأما الحجر فهي تقع بين (الحجاز والشام) ويمرّ عليها المسافر بطريق البر ، وتعرف الآن بـ (فجّ الناقة) وآثار مدائن هؤلاء القوم ظاهرة حتى الآن وتسمّى (مدائن صالح) .

يقول المسعودي :

« ورممهم باقية ، وآثارهم بادية ، في طريق من ورد من الشام ، وحجر ثمود في الجنوب الشرقي من أرض مدين ، وهي مصاقبة لخليج العقبة » أي أنها قريبة من خليج العقبة .

أصل قبيلة ثمود :

وقد اختلف المؤرخون في أصل ثمود وزمن وجودهم ، فقال بعضهم : إنهم بقيّة من قوم (عاد) ، وقال آخرون : إنهم بقيّة من العماليق انتقلوا إلى ذلك المكان من غرب الفرات ، ويرى بعض المؤرخين من المستشرقين أنهم قوم من اليهود سكنوا تلك الناحية ولم يدخلوا فلسطين .. وهذا الرأي باطل لأن اليهود لم يُعْرفوا إلا بعد خروج موسى عليه السلام ببني اسرائيل من أرض مصر فكيف يكونون يهوداً ؟ وأصح الأقوال أنهم كانوا عرباً من بقايا قوم عاد ، ويؤيد هذا الرأي قول الله تعالى على لسان نبيّه الكريم (صالح) عليه السلام : ﴿ واذكروا إذْ جعلَكُم خلفاءَ منْ بعدِ عادٍ ، وبوّأكُمْ في الأرضِ تتّخذونَ منْ سهولها قُصوراً .. ﴾ .

يقول (ابن كثير) رحمه الله :

« وهم قبيلة مشهورة يقال لها (ثمود) باسم جدّهم ثمود أخي جديس ، وكانوا عرباً من العاربة يسكنون الحِجْر الذي بين الحجاز وتبوك ، وقد مرّ به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين ، فلما نزل بهم الحِجْر عند بيوت ثمود استقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود

---

(١) البداية والنهاية ج١ ص١٣٨ .

فعجنوا منها وطبخوا، فلما علم الرسول ﷺ بذلك أمرهم أن يريقوا القدور وأن يعلفوا العجين الإبل ، وارتحل بهم حتى نزل البئر التي كانت تشرب منها الناقة وقال لهم – كما في الصحيحين – لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلاّ أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ان يصيبكم ما أصابهم .

وأما زمن وجود (ثمود) فلم يعلم بالضبط إلاّ أنهم كانوا بعد (عاد) كما أشارت الآية الكريمة ، وقبل الميلاد وقبل زمن موسى عليه السلام قطعاً بدليل قول مؤمن آل فرعون يخوّف قومه عذاب الله :

﴿وقال الذي آمن يا قومِ إني أخافُ عليكُم مثلَ يومِ الأحزابِ. مثل دأبِ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمود، والذينَ منْ بعدِهم وما اللهُ يريدُ ظُلماً للعباد﴾ .

وممّن ردّ على دعوى المستشرقين أن قبيلة (ثمود) من اليهود الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء فارجع إليه إن شئت[1] .

عبادة قوم ثمود :

كانت قبيلة (ثمود) تدين بعبادة الأوثان ، وتكفر بالله الواحد الديّان ، فبعث الله إليهم سيدنا (صالح) عليه السلام ، يذكّرهم بنعم الله ، ويهديهم طريق الفوز والسعادة ، وأنهم خلفاء في الأرض من بعد قوم (عاد) ، وأمرهم بالتقوى ، ونهاهم عن عبادة الأصنام فظلّوا متمادين في غوايتهم ، عاكفين على عبادتهم الباطلة ، وكانوا أهل خصبٍ ونعيمٍ ، لما لهم من الخيرات الوافرة ، والجنات الزاهرة ، والعيون الجارية ، وقد ذكّرهم الله تعالى بهذه النعم بقوله : ﴿أتُترَكُونَ فيما ها هُنا آمنين. في جنّاتٍ وعيون. وزروعٍ ونخلٍ طلعُها هضيم وتنحِتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾ فآمن به نفر قليل ، وأكثرهم كذّبوه وكفروا برسالته ، وعتوا في طغيانهم عتواً كبيراً ، وطلبوا منه معجزة تشهد بصدقه ، فجاءهم بمعجزة (الناقة) وقد كانت آية عظيمة دالة على صدق

(١) قصص الأنبياء ص٥٩ .

(صالح) عليه السلام ، حيث خرجت الناقة من صخر أصم ورأوا بأعينهم كيف انفلقت الصخرة وخرجت منها ناقة عشراء .

لماذا كانت الناقة معجزة ؟

وقد كان لهذه الناقة بعض الأمور العجيبة الغريبة التي تدل بحق على صدق صالح عليه السلام وعلى أنها آية من عند الله تعال منها :

أولاً : خرجت من الصخر وهو حجر أصم من الجماد فكيف يخرج منه الحيوان ؟

ثانياً : كانت تشرب ماء القبيلة بأجمعه ﴿لها شربٌ ولكم شربُ يومٍ معلوم﴾ واستيفاء ناقةٍ لشرب أمة أمر عجيب .

ثالثاً : إنها كانت تعطي القبيلة من (الحليب) بقدر الماء الذي شربته وهذا أيضاً أمر عجيب .

قال (الإمام الرازي) رحمه الله : واعلم أن القرآن قد دلّ على أنّ في الناقة (آية) وأمّا أنها آية من أيّ الوجوه فهو غير مذكور قال تعالى : ﴿هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكلْ في أرض الله ، ولا تمسّوهَا بسوءٍ فيأخذكم عذابٌ أليم﴾ .

ولقد كانت هذه الآية المعجزة برهاناً ساطعاً على صدق نبيّ الله صالح عليه السلام ، كما كانت بطلبٍ منهم حيث وعدوه باتباعه والإيمان به إن هو شقّ لهم الصخر وأخرج لهم منه ناقة .. يقول (ابن كثير) : وقد ذكر المفسرون أن (ثمود) اجتمعوا يوماً في ناديهم ، فجاءهم صالح فدعاهم إلى الله وذكّرهم وحذّرهم ووعظهم فقالوا له : إنْ أنتَ أخرجت لنامن هذه الصخرة — وأشاروا إلى صخرة عظيمة — ناقة عشراء (يعني حاملاً) يكون من أوصافها كذا وكذا نؤمن بك ونصدّقك ، فأخذ عليهم نبيّ الله العهود والمواثيق على ذلك ثمّ قام إلى مصلاّه فصلى ودعا ربّه عزّ وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا فأجاب الله دعاءه

فانفطرت الصخرة عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب فلما عاينوها راوا أمراً عظيماً ، ومنظراً هائلاً ، وقدرة باهرة ، ودليلاً قاطعاً ، وبرهاناً ساطعاً فآمن بعضهم ، واستمرّ أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ﴿وآتينا ثمود الناقةَ مبصرةً فظلموا بها﴾(١) .

هلاك ثمود :

وقد حذّرهم (صالح) عليه السلام من التعرض للناقة بسوء ، وأنذرهم عذاب الله إن هم أقدموا على قتلها ﴿ولا تمسّوها بسوءٍ فيأخُذَكُم عذابُ يومٍ عظيمٍ﴾ .

ولكنّ النفوس العاتية التي لا تسمع موعظة ، ولا تقبل نصيحة ، والتي قد أعماها حب التمرد والطغيان ، وأصمّ آذانها عن قبول دعوة الله ، قد أبت إلا الإجرام ، فأقدموا على عقر الناقة بغياً وعتواً ﴿فعَقروا الناقةَ وعتَوْا عن أمرِ ربّهم ، وقالوا: يا صالحُ ائتنا بما تَعدُنا إنْ كنتَ منَ المرسلين﴾ .

وقد قصّ الله علينا قصّتهم في سورة الشمس﴿كذّبتْ ثمودُ بطغواها . إذ انبعثَ أشقاها ، فقالَ لهم رسولُ اللهِ ناقةَ اللهِ وسُقياها . فكذّبوهُ فعقروها ، فدمدَمَ عليهمْ ربّهُم بذنبهِم فسوّاها . ولاَ يَخافُ عقباها﴾ .

وكان أول من سطا على الناقة الشقيّ اللعين (قُدار بن سالف) فعقرها فسقطت على الأرض فابتدرها الرجال بأسيافهم يقطعونها وكانوا تسعة كما أخبر الله عز وجل﴿وكانَ في المدينة ِتسعةُ رهطٍ(أي أشخاص) يفسدون في الأرضِ ولا يُصلحون﴾ وقد همّوا بقتل نبيّ الله (صالح) عليه السلام بعد قتل الناقة لا سيّما بعد أن أنذرهم بعذاب الله وتوعّدهم به بعد ثلاثة أيام من عقر الناقة ﴿فعقروها فقالَ تمتعوا في داركُم ثلاثةَ أيامٍ ذلكَ وعدٌ غيرُ مكذوبٍ﴾فأرسل الله على أولئك النفر الذين قصدوا قتل (صالح) حجارة من السماء رضختهم ودمّرتهم قبل قومهم .

---

(١) البداية والنهاية بتصرف ص١٣٤ .

قال (ابن كثير) : وأصبحت ثمود في اليوم الأول من موعد حلول العذاب وقد اصفرت وجوههم ، ثم أصبحوا في اليوم الثاني وقد أحمرّت وجوههم ، ثم أصبحوا في اليوم الثالث وقد اسودّت وجوههم كما أنذرهم صالح عليه السلام فلما انتهت الأيام الثلاثة ومع شروق الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم ، ففاضت الأرواح ، وزهقت النفوس ، وسكنت الحركات ، وخشعت الأصوات ، وحقّت الحقائق ، فأصبحوا في دارهم جاثمين جثثاً هامدة ، لا أرواح فيها ولا حراك[1] ﴿فدمدمَ عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها ولا يخافُ عقْباها﴾ .

وقد كان هلاكهم بأنواع من العذاب (الصاعقة) التي دمّرتهم و (الصيحة) التي أخذتهم ، و (الرجفة) التي زلزلت تحتهم الأرض حتى هلكوا عن بكرة أبيهم ، وكل هذه الأنواع من العذاب قد أخبر عنه القرآن في الآيات الكريمة التاليـة :

أولاً : قال تعالى ﴿وأمّا ثمودُ فهديناهُم فاستحبّوا العمى على الهدى فأخذتْهُم صاعقةُ العذابِ الهونِ بما كانوا يكسبونَ﴾ .

ثانياً: وقال تعالى ﴿إنّا أرسلنا عليهمْ صيحةً واحدةً فكانوا كهشيمِ المحتظر﴾

ثالثاً : وقال تعالى ﴿فعقروا الناقةَ وعتَوْا عنْ أمر ربهِم وقالُوا : يا صالحُ ائتنا بما تعدُنا إنْ كنتَ منَ المرسلينَ . فأخذتْهُم الرجفةُ فأصبحُوا في دارهم جاثمينَ﴾ .

وأما (صالح) والذين آمنوا معه فقد نجوا ممّا حاق بقومهم من العذاب ، الذي أدركهم بعد ثلاثة أيام من جريمتهم النكراء ﴿فتولّى عنهُم وقالَ يا قومِ لقدْ أبلغتكُم رسالةَ ربي ونصحتُ لكُم ولكنْ لا تحبونَ الناصحين﴾ .

وقد كان الذين نجوا مع صالح (١٢٠) مائة وعشرين من المؤمنين ، أما الهالكون فكانوا أهل خمسة آلاف بيت كما يذكر (الألوسي) ، وقد عاش سيدنا (صالح) بعد ذلك إلى أن توفاه الله تعالى في نواحي الرملة من أراضي فلسطين على أشهر الأقوال .

---

(١) البداية والنهاية ص١٣٦ ج١ .

٤ – لوط عليه السلام

﴿ولوطاً إذْ قالَ لقومِهِ أتأتُونَ الفاحشةَ وأنتم تُبصرون ؟ أئنّكُم لتأتون الرجالَ شهوةً منْ دونِ النساءِ بلْ أنتُم قومٌ تجهلونَ﴾ .

* * *

لوط عليه السلام من الرسل الكرام ، وقد ذكره الله تعالى في عديد من سور القرآن في (الأعراف ، وهود ، والحِجْر ، والشعراء ، والنمل) وغيرها من سور القرآن ، وذكرت قصته مع قومه مفصّلة في بعض السور ، ومجملة في البعض الآخر .

نسبه عليه السلام :

هو لوط بن هارون بن تارح يعني « آزر » ... وهكذا إلى آخر نسب سيدنا (إبراهيم) عليه السلام ، وقد بعثه الله في زمن إبراهيم الخليل ، وهو ابن أخيه ، وإبراهيم عمه لأنه قد تقدّم في قصة إبراهيم أن (إبراهيم ، وهاران ، وناحور) إخوة وكلهم أولاد آزر ولوط هو ابن (هاران) فيكون ابراهيم عمه وقد آمن لوط بعمه ابراهيم واهتدى بهديه كما قال تعالى ﴿فآمنَ لهُ لوطٌ وقالَ إني مهاجرٌ إلى ربي إنهُ هو العزيزُ الحكيمُ﴾ ثم هاجر معه من العراق ، وتبعه في جميع أسفاره ثم أرسله الله تعالى إلى أهل (سَدُومَ) في دائرة الأردن ، وليس له في قومه الذين أرسل إليهم نسب ، لأنه ليس من القبيلة ، بخلاف (صالح) و (هود) و (شعيب) فقد كانوا من نفس العشيرة ، ولعل التعبير بقوله تعالى ﴿ولوطاً إذْ قالَ لقومِهِ﴾ يدل على ذلك حيث لم يذكر أنه أرسل منهم .

قوم لوط :

كان (لوط) عليه السلام قد نزح عن محلة عمّه الخليل ابراهيم عليه السلام بأمره وإذنه ، فنزل بمدينة (سدوم) في أطراف شرق الأردن ، وكان قومها من أفجر الناس وأكفرهم ، وأخبثهم طوية ، وأقبحهم سيرة ، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون .

وقد ارتكبوا جريمة من أقبح وأشنع الجرائم ، لم يسبقهم إليها أحد من أهل الأرض ألا وهي (إتيان الذكور) دون النساء ، وقد حدثنا القرآن الكريم عنهم بقوله تعالى :

﴿أتَأتُونَ الذّكْرانَ من العَالمينَ . وتَذَرونَ ما خَلَقَ لكمْ ربّكُمْ من أزْواجِكمْ بَلْ أنتمُ قومٍ عادون﴾ .

وكانوا لا يستقبحون قبيحاً . ولا يستترون من منكر ، قد قست قلوبهم ، وفسدت أخلاقهم ، حتى كانوا يجاهرون باللواطة ولا يستحون ، فبعث الله إليهم (لوطاً) عليه السلام ، فدعاهم إلى الله وذكّرهم ، ونهاهم وخوّفهم بأس الله تعالى فلم يأبهوا له ولم يرتدعوا ، فلمّا ألحّ عليهم هدّدوه بالطرد والإخراج من بين أظهرهم ﴿قَالُوا لئِنْ لمْ تَنْتَهِ يالُوطُ لتكونَنّ من المخرجين﴾ كما قرّروا طرده وطرد من آمن معه لا لشيء إلاّ لأنهم أناس يتطهرون ، ولا يرتكبون الجرائم التي كان يرتكبها أولئك القوم الضالّون ﴿فما كانَ جوابَ قومه إلا أنْ قالُوا أخرجُوا آلَ لوطٍ من قريتكُم إنّهمْ أناسٌ يتطهّرونَ﴾ وهذاً منتهى السفه وقلة العقل والتفكيرّ .

يا لله .. متى كان اجتناب الرذائل والقبائح يعتبر جريمة ينبغي أن يعاقب عليها الإنسان بالطرد والحرمان ؟!

ومتى كان الشريف الطاهر مجرماً ينبغي تهجيره وإخراجه من الأوطان ﴿أخرجوهم من قريتكُمْ إنهمْ أناسٌ يتطهّرون﴾؟؟ وما هو السبب في هذا الطرد والإبعاد؟إنهم لا يستحون أن يقولوا بملءأفواههم﴿إنهم أناس يتطهرون﴾.

فالعفة والطهارة ، وعدم التلوث بالقاذورات ، وخاصة (اللواطة) تعتبر

في نظر أولئك الأشقياء جريمة ينبغي أن يعاقب عليها الإنسان .

ولا عجب فذلك منطق « الطغيان » في كل عصر وزمان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قصة الملائكة (ضيوف لوط) :

وحين أراد الله عزّ وجل إهلاك أولئك الخبثاء الأشرار ، من قوم لوط ، الذين كانوا أرذل وأخبث أمةٍ في ذلك الحين ، أرسل إليهم الملائكة ليقلبوا عاليها سافلها ، وكانت لهم قرى خمسة ، ويزيد عددهم على (٤٠٠) أربعمأة ألف كما يذكر ذلك المؤرخون .

فمرّوا في طريقهم على (ابراهيم) الخليل ، فبشروه بغلام حليم ، وأخبروه أنهم ذاهبون للانتقام من قوم لوط ، الذين هم أهل (سدوم وعامورة) وأنّ الله قد أمرهم بإهلاك جميع أهل القرى ، الذين كانوا يعملون الخبائث، فتخوّف (إبراهيم) على ابن أخيه (لوط) إذا قلبت بهم الأرض أن يكون ضمن الهالكين فأخذ يناقشهم ويجادلهم ، وقال لهم : إنّ فيها لوطاً ، فأخبروه بأنّ الله سينجّيه وأهله ومن معه من المؤمنين قال تعالى : ﴿ولمّا جاءَتْ رسُلُنا إبراهيمَ بالبُشْرى قالوا : إنّا مهلكوا أهل هذهِ القريةِ إنّ أهلَها كانوا ظَالمينَ . قالَ ان فيها لوطاً قالوا : نحنُ أعلمُ بمن فيها لننجينّهُ وأهلَهُ إلا امرأتَهُ كانتْ من الغابرين﴾ .

خرج الملائكة من عند ابراهيم وجاءوا إلى (لوط) فدخلوا عليه في صورة شباب مردحسان ، تشرق وجوههم بنضارة الشباب والجمال ، ولم يخبروه بحقيقتهم ، فظنّ أنهم ضيوف جاءوا يستضيفونه ، فرحّب بهم ، ولكنه اغتمّ من دخولهم عليه في وقت الظهيرة ، لأنه خاف عليهم من أولئك المجرمين الأشرار لا سيما وأنهم في منتهى الحسن والجمال ، ووقع في نفسه أنه لا بدّ أن يكون قد رآهم أحد من قومه حين دخلوا عليه ، فلا بدّ أن يمسّوهم بأذى ، لذلك فقد أشفق عليهم وخاف من قومه أن يسمعوا بقدومهم ، فيعتدوا عليهم بالفتك في

أعراضهم ، وهناك أخذ يفكّر ماذا سيصنع لو أراد المجرمون أن يعتدوا على ضيوفه ؟ وسرعان ما وقع ما كان يخشاه فقد أقبل رجال القرية من قوم لوط ، يريدون أن يتحرشوا بأولئك الضيوف ، وأخذ لوط عليه السلام يجادلهم بالحسنى ويناقشهم باللطف واللين ، لعل فيهم من يرتدع عن غيّه وضلاله ، ويخجل عن خزايته في ضيفه ، ودعاهم إلى أن يتزوجوا ببنات القرية فإنّ ذلك أكرم وأفضل ، وأشرف وأطهر .. ولكن (الخبثاء) صارحوه بغرضهم السيء وأنهم لا يرغبون إلاّ في أولئك الشباب المرد الحسان ، فازداد همّه وغمّه وشعر الملائكة بذلك فأخبروه بحقيقة الأمر وأنهم ليسوا بشراً إنما هم (ملائكة) قدموا لإهلاك أهل هذه القرية بأمرٍ من الله لأن أهلها كانوا ظالمين ، اقرأ هذه الآيات الكريمـة :

﴿ولمّا جاءَتْ رسُلُنَا لوطاً سيءَ بهمْ وضاقَ بهم ذَرعاً وقال: هذا يومٌ عصيبٌ وجاءه قومُهُ يهرعونَ إليهِ ومنْ قبلُ كانوا يعملون السيئاتِ قال: يا قومِ هؤلاء بناتي هنّ أطهرُ لكم فاتقوا الله ولا تخزونِ في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ؟ قالوا: لقد علمتَ ما لنا في بناتك من حقٍ وإنك لتعلمُ ما نريد . قالَ لو أن لي بكم قوةً أو آوي إلى ركن شديد. قالوا : يا لوطُ إنّا رسلُ ربكَ لنْ يصلُوا إليكفأسْرِ بأهلك بقِطْعٍ منالليل ولا يلتفت منكم أحدٌ إلا امرأتكَ إنّه مصيبها ما أصابهم إن موعدهُم الصبحُ ، أليسَ الصبحُ بقريبٍ﴾ .

أخبروه بحقيقتهم وبمهمتهم التي جاءوا من أجلها ، وبأنّ القوم لن يستطيعوا الوصول إليهم ، وأمروه أن يخرج من أرض قومه مع أهله ليلاً قبل طلوع الصبح لأن موعد اهلاكهم سيكون في وقت الصبح ، وسيكون ذلك الوقت موعد تدميرهم وإهلاكهم عن بكرة أبيهم ﴿إنّ موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب ؟﴾ .

هلاك قوم لوط :

اطمأنّ (لوط) عليه السلام على ضيوفه ، وترك قومه في ضجيجهم وجدالهم وأخذ يستعدّ للخروج من القرية قبل أن يدركه الصباح ، وحين هجم القوم على بيت لوط ليأخذوا الضيوف بالقرة طمس الله أعينهم فلم يبصروا ولم يهتدوا قال تعالى ﴿ولقدْ راوَدُوهُ عنْ ضيفِهِ فطمَسْنَا أعينَهُم فذوقُوا عذابي ونُذُرِ﴾ وما أن أشرقت الشمس حتى كانت القرى بمن فيها خراباً يباباً فأهلكهم الله بأنواع من العذاب :

١ — قَلَبَ بهم القرى فجعل عاليها سافلها .

٢ — أرسل عليهم صيحةً من السماء .

٣ — أمطر عليهم حجارة من سجّيل منضود .

قال تعالى ﴿فلما جاءَ أمرُنَا جعلْنَا عاليَها سافلَها وأمطرْنَا عليها حجارةً منْ سجّيلٍ منضودٍ﴾ .

وقال تعالى ﴿فأخذتْهُم الصيحةُ مشرقين . فجعلْنَا عاليَها سافلَها وأمطرْنا عليهِم حجارةً منْ سجّيلٍ﴾ .

زوجة لوط مع الهالكين :

وقد هلكت زوجة (لوط) مع الهالكين لأنها لم تكن مؤمنة بالله ، فحلّ بها من السخط والعذاب ما حلّ بهم ، ولم ينفعها أنها زوجة نبيّ فإنّ الله قد أوعد بإهلاك الكافرين قال تعالى ﴿فأنجيناهُ وأهلَهُ إلا امرأتَهُ كانتْ من الغابرينَ﴾ . قال السهيلي : واسم امرأة لوط (والهة) . وقد نجا (لوط) عليه السلام مع ابنتيه من الهلاك .

ويقول بعض المؤرخين : إنّ البحر الميّت ، المعروف الآن ببحيرة لوط لم يكن موجوداً قبل هذا الحادث وإنما حصل من الزلزال الذي جعل عالي البلاد سافلها ، وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربعمئة متر ، وقد أثبتت

الاكتشافات القريبة آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميت .

ويقول (ابن كثير) رحمه الله :

(وجعل الله مكان تلك البلاد بحرة منتنة لا ينتفع بمائها ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها لردائتها ودناءتها ، فصارت عبرة ومثلة ، وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزّته في انتقامه ممن خالف أمره وكذّب رسله واتّبع هواه وعصى مولاه)(١) .

مسألة هامة :

قد يتساءل المرء هل تخون امرأة النبيّ زوجها ؟ وهل تقع منها جريمة الزنى؟ فكيف أخبر الله عن زوجي (نوح ولوط) أنهما خانتا أزواجهما ؟؟

والجواب أن هذا أمر مستحيل لا يمكن أن يقع لأنّ الله عزّ وجل قد حفظ الأنبياء من تلوث العرض ، ومن وقوع أزواجهن بالفاحشة ، لأن ذلك يؤذي سمعة الأنبياء الأطهار ، ولهذا قال (ابن عباس) : ما بغت امرأة نبيّ قط ، وهذا هو مذهب أئمة السلف والخلف .

وأمّا الكفر منهنّ فقد يقع ، فقد كانت زوجة (لوط) كافرة ، كما كانت زوجة (نوح) كافرة أيضاً ، وقد ضرب الله المثل بهما قال تعالى : ﴿ ضربَ اللهُ مثلاً للذين كفروا امرأةَ نوحٍ وامرأةَ لوط ، كانتا تحتَ عبدَيْنِ من عبادِنا صالحين فخانتاهُما فلمْ يُغنيا عنهُما منَ اللهِ شيئاً وقيلَ ادخلا النارَ معَ الداخلينَ ﴾ والمراد بالخيانة هنا (الخيانة في الدين) حيث لم تؤمنا بالله ، قال ابن كثير : فخانتاهما أي في الدين فلم تتبعاهما فيه ، وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة ، حاشا ، وكلاّ ، فإنّ الله لا يقدّر على نبيّ أن تبغي امرأته ، ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيراً (٢) .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير .

(٢) البداية والنهاية ص١٨٢ ج١ .

٥ - إسماعيل عليه السلام

﴿ واذكرْ في الكتابِ اسماعيلَ إنهُ كانَ صادقَ الوعْدِ وكانَ رسولاً نبيّاً ﴾ .

نسبه عليه السلام :

هو اسماعيل بن ابراهيم خليل الرحمن ، وأمه (هاجر) وهو البكر من أولاد إبراهيم الذي أمر إبراهيم بذبحه في المنام كما تقدمت قصته فيما سبق ، وهو جدّ الرسول الأعظم إذ أن الرسول ﷺ هو من نسل اسماعيل بن إبراهيم عليهم من الله جميعاً أفضل الصلاة والسلام .

رسالته عليه السلام :

الراجح من التاريخ أن الله قد أرسل (اسماعيل) عليه السلام إلى القبائل العربية الّتي عاش عليه السلام في وسطها ، وقد ذكر بعض المؤرخين أنّ الله قد أرسله إلى قبائل اليمن ، وإلى العماليق الذين كانوا يسكنون في تلك الجهات وقد تقدّم أنّ (اسماعيل) عليه السلام قد تربّى في الحجر بجانب البيت العتيق في مكة المكرمة ، وأنه نشأ هناك وتزوج من قبيلة (جرهم) فالظاهر إذاً من تاريخ حياته أنّ بعثته كانت لنفس العرب الذين عاش بينهم .

حياته عليه السلام :

تقدم معنا في قصة ابراهيم عليه السلام أنه قد دعا ربه أن يرزقه ولداً صالحاً فاستجاب الله دعاءه ورزقه هذا الغلام اليافع (اسماعيل) عليه السلام ، وقد

ولد من أمته (هاجر) لما بلغ ابراهيم من العمر ٨٧ سنة وإلى ذلك تشير الآية الكريمة :

﴿ الحمدُ للهِ الذي وهَبَ لِيَ على الكِبَرِ إسماعيلَ وإسحقَ إن ربي لسميعُ الدعاءِ ﴾.

و (هاجر) كانت أمة مملوكة لـ (سارة) وهبها له ملك مصر الجبار ، فوهبتها سارة لابراهيم لعل الله أن يرزقه منها بولد ، إذ كانت هي حتى ذلك التاريخ (عقيماً) لم تلد ، إلا أنها ولدت بعد ذلك بإسحاق ، ببشارة الملائكة الأطهار لابراهيم عليه السلام كما تقدم معنا عند ذكر قصة ابراهيم الخليل عليه السلام .

وإسماعيل هو (الذبيح) كما أثبتنا ذلك في قصة إبراهيم ، ونزيد هنا كلمة لطيفة للأستاذ النجار في كتابه (قصص الأنبياء) وفي هذه الكلمة إثبات آخر على أن الذبيح هو اسماعيل لا إسحاق . قال (ودليلي على أن الذبيح هو اسماعيل من التوراة نفسها ، إذ أن الذبيح وصف بأنه ابن ابراهيم الوحيد — أي الذي ليس له سواه — إذ سخاوة نفس إبراهيم بولده الوحيد ، يذبحه امتثالاً لأمر ربه له في المنام أدلّ على امتثال الأمر ونهاية الطاعة ، وهذا هو الإسلام بعينه ، وإذا رجعنا إلى إسحاق لم نجده وحيداً لابراهيم في يوم من الأيام ، لأن إسحق ولد وعمر اسماعيل نحو ١٤ سنة — كما هو صريح في التوراة — وبقي اسماعيل إلى أن مات ابراهيم ، وحضر اسماعيل وفاته ودفنه . وأيضاً فإنّ ذبح اسحاق يناقض الوعد الذي وعد به ابراهيم أنّ إسحق سيكون له نسل ، وكذلك فإنّ مسألة الذبح وقعت في مكة ، واسماعيل هو الذي ذهب به أبوه إلى مكة رضيعاً لا إسحاق[1] والله أعلم .

أولاد اسماعيل :

ولد لإسماعيل عليه السلام اثنا عشراً ولداً ذكراً ، وهم كلهم رؤساء

---

(١) قصص الأنبياء ص ١٠٣ .

قبائل ، وقد ذكرت التوراة أسماءهم ، كما ولدت له بنت زوجها لابن أخيه (العيص بن اسحاق) ومن نسل اسماعيل جاء العرب الذين يعرفون بـ (العرب المستعربة) ثمّ كانت خاتمة المطاف بولادة سيدنا محمد ﷺ خاتم النبيين من نسل اسماعيل .

وفاته عليه السلام :

عاش اسماعيل عليه السلام (١٣٧) سنة ومات بمكة ودفن عند قبر أمه (هاجر) في الحجر على المشهور من أقوال المؤرخين ، وتذكر التوراة أنه مات بأرض فلسطين ودفن فيها والصحيح ما عليه مؤرخو العرب من أنه مات بمكة ودفن فيها والله أعلم .

٦ - إسحاق عليه السلام

﴿وبشّرناهُ بإسحاقَ نبياً منَ الصالحينَ . وباركنا عليه وعلى إسحاقَ ، ومِنْ ذرّيتهما محسنٌ وظالمٌ لنفسهِ مبينٌ﴾ .

نسبه عليه السلام .

هو إسحاق بن ابراهيم عليه السلام وأمه (سارة) وهو الولد الثاني لإبراهيم الذي بشّرت به الملائكة الأطهار خليل الرحمن ، ومن نسله جاء أنبياء بني اسرائيل ، حيث أن النبوة قد كانت في ذرية ابراهيم في ولديه اسماعيل واسحق كما قال تعالى ﴿وجعلنا في ذريتِهِ النبوةَ والكتابَ﴾ وسيأتي تفصيل هذا إن شاء الله تعالى .

رسالته عليه السلام :

يترجح أن (اسحاق) قد أرسل إلى الكنعانيين في تلك الأراضي التي كانوا يسكنونها وهي (بلاد الشام وفلسطين) في البيئة التي عاش فيها أبو الأنبياء ابراهيم الخليل ، فكانت رسالة اسحاق إلى هؤلاء الأقوام الذين عاش بينهم عليه السلام .

حياة اسحاق عليه السلام :

لما بلغ ابراهيم من العمر (١٠٠) مائة سنة ولدت له زوجته (سارة) المرأة العجوز العقيم إسحاق عليه السلام قال تعالى ﴿قالتْ يا ويلتا أألدُ وأنا عجوزٌ

وهذا بعلي شيخاً إنّ هذا لشيءٌ عجيبٌ﴾. وقد أوصى إبراهيم ابنه اسحاق ألاّ يتزوج إلاّ امرأة من أهل أبيه فتزوج اسحاق عليه السلام (رفقة) بنت ابن عمه وقد أنجب منها ولدين (العيص) ويسميه أهل الكتاب (عيسوّ) والثاني (يعقوب) عليه السلام وهو المسمّى (إسرائيل) وإليه ينتسب اليهود من بني اسرائيل .

وفاته عليه السلام :

عاش اسحاق عليه السلام (١٨٠) سنة ، ومات في أرض الكنعانيين ، ودفن في الخليل (حبرون) في المغارة التي دفن فيها أبوه إبراهيم عليهم جميعاً أفضل الصلاة والتسليم .

٧ ـ يعقوب عليه السلام

﴿ووهَبْنَا لهُ إسحاقَ ويعقوبَ وكُلاً جعلنا نبيّاً . ووهبنا لهمْ مـنْ رحمتنا وجعلنا لهمْ لسانَ صدقٍ علياً﴾ .

نسب يعقوب عليه السلام :

هو يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليه السلام ، وأمه (رفقة) بنت بتوئيل ابن ناحور بن آزر الذي يسمّيه المؤرخون (تارح) . وناحور هو أخو ابراهيم عليه السلام . و (يعقوب) عليه السلام هو أبو الأسباط الاثني عشر ، وإليه ينسب شعب بني اسرائيل ويسمّى يعقوب (إسرائيل) قـال تعالى ﴿كـلُّ الطعامِ كانَ حِلاً لبني اسرائيل إلاّ ما حرّمَ اسرائيلُ على نفسِهِ منْ قبلِ أنْ تنزّلَ التوراةُ﴾ .

وقد جاء عند أهل التوراة أن الله سمّاه (إسرائيل) ومعناه في العبرية (روح الله) ، والمقصود هنا أن نعلم أنّ (اسرائيل) هو اسم يعقوب عليه السلام كما وضّحنا وإليه ينتسب اليهود .

حياة يعقوب عليه السلام :

ذكر المؤرخون أن (يعقوب) عليه السلام قد ولد في أرض الكنعانيـين (فلسطين) وشبّ في كنف أبيه إسحاق ، وقد أمرته أمه (رفقة) أن يسافر إلى خاله (لابان) في (فدان آرام) من أرض بابل بالعراق ويقيم عنده ، لأنها خافت عليه من أخيه (العيص) أن يبطش به لأن أخاه كان قد توعّده، فخرج يعقوب عليه السلام يريد خاله فأدركه المساء في موضع فنام فيه ، فرأى في نومه الملائكة يصعدون إلى السماء وينزلون ، ورأى الرب تبارك وتعالى يخاطبه ويقول

له : (إني سأبارك عليك ، وأكثر ذريتك ، واجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك) فلما هبّ من نومه فرح بما رأى ونذر أن يبني لله تعالى (معبداً) في ذلك الموضع الذي رأى فيه تلك تلك الرؤيا السارة ، فعمد إلى حجر فصبغه بدهن ليتعرف به المكان وسمّى ذلك الموضع (بيت إيل) أي بيت الله وهو موضع بيت المقدس اليوم الذي بناه يعقوب بعد ذلك . ثم تابع سفره فلما وصل إلى خاله في أرض العراق وجد عنده ابنتين هما (لَيْئَة) ويقال (ليّا) بالتسهيل وهي الكبرى ، و (راحيل) وهي الصغرى ، فخطب يعقوب من خاله ابنته الصغرى (راحيل) وكانت أحسنهما وأجملهما ، فوافقه خاله مقابل أن يخدمه سبع سنين يرعى له غنمه ، فلما مضت المدّة صنع خاله طعاماً وجمع الناس عليه وزفّ إليه ليلاً ابنته الكبرى (ليئة) وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر ، فلمّا أصبح يعقوب إذا هي (ليئة) فقال لخاله لم غدرت بي وأنا إنما خطبت (راحيل) فقال له : إنه ليس من سنّتنا أن نزوّج الصغرى قبل الكبرى ، فإن أحببت اختها فارع لي الغنم سبع سنين أخرى وأزوجك (راحيل) فعمل سبع سنين أخرى فزوّجه إياها ، وجمع له بين الأختين ، ولم يكن الجمع بين الأختين في شريعتهم محرّماً ، ثم نسخ في شريعة التوراة كما هو الحال في الشريعة الإسلامية

ووهب (لابان) لكل واحدة من ابنتيه جارية فوهب (زلفى) لابنته ليئة ، ووهب (بلها) لابنته راحيل فوهبت كل منهما جاريتها ليعقوب فأصبح عنده أربع نسوة وقد ولدن له أولاده الاثني عشر ، الذين يسمون بالأسباط .

أمّا (ليئة) فقد ولدت له ستة أولاد وهم :

(١ – روبيل . ٢ – شمعون . ٣ – لاوى . ٤ – يهوذا . ٥ – ايساخر . ٦ – زابلون) وروبيل هو أكبر أولاده ، ولاوي جاء من نسله موسى عليه السلام ، وكلمة يهود أخذت من يهوذا أحد أبناء يعقوب .

وأمّا (راحيل) فقد ولدت له ولدين وهما :

(١ – يوسف الصدّيق عليه السلام . ٢ – بنيامين) .

وأمّا (بلها) جارية راحيل فقد ولدت له ولدين وهما :

(١ ــ دان . ٢ ــ نفتالي) .

وأمّا (زلفى) جارية ليئة فقد ولدت له ولدين أيضاً وهما :

(١ ــ جاد . ٢ ــ أشير) فأصبح أولاد يعقوب عليه السلام اثني عشر ستة من ليئة ، واثنان من راحيل ، واثنان من بلها ، واثنان من زلفى ، وهؤلاء كلهم إخوة يوسف الصديق الذي رأى في منامه أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين كما سيأتي قريباً في قصته عليه السلام .

وقد أصبح كل واحد من أولاد يعقوب أباً لسبط من أسباط بني اسرائيل، ويقول المؤرخون إن كل أولاده قد ولدوا له وهو في العراق وعند خاله يرعى له الغنم إلاّ (بنيامين) فقد ولد له بعد أن رجع يعقوب إلى وطنه في أرض الكنعانيين في فلسطين .

وفاته عليه السلام :

فقد يعقوب عليه السلام بصره حزناً على ولده (يوسف) الذي مكر به إخوته ثمّ ردّ الله إليه بصره بعد أن اجتمع به بعد طول غياب وشدة حزن وألم كما قال تعالى : ﴿فلما أنْ جاءَ البشيرُ ألقاهُ على وجهِهِ فارتدّ بصيراً﴾وقد اجتمع به في مصر وتوفي يعقوب عليه السلام بعد أن بلغ من العمر ١٤٧ سنة وقد كان ذلك بعد ١٧ عاماً من اجتماعه بولده الحبيب يوسف عليه السلام ، وقد أوصى يعقوب ابنه يوسف أن يدفنه مع أبيه إسحاق ففعل ذلك وسار به إلى فلسطين ودفنه عند أبيه في المغارة بجبرون (مدينة الخليل) صلوات الله عليهم أجمعين .

٨ – يوسف الصديق عليه السلام

﴿ولمّا بلغَ أشدَّهُ آتيناهُ حُكْماً وعِلْماً ، وكذلكَ نجزي المحسنينَ﴾ .

نسبه عليه السلام :

هو (يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم) وقد ذكره الله تعالى في مجموعة الرسل الكرام الذين يجب الإيمان بهم تفصيلاً ، وأثنى عليه بقوله ﴿ كذلكَ لنصرفَ عنهُ السّوْءَ والفحشاءَ ، إنّهُ مِنْ عبادِنَا المُخْلَصينَ﴾ووصفه بالعفة والنزاهة ، والصبر والاستقامة ، كما أثنى عليه رسول الهدى ﷺ بقوله :

(إنّ الكريم بنَ الكريم بن الكريم بن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن اسحاق ابن إبراهيم) « رواه البخاري » .

ذكره في القرآن :

ذكر اسم يوسف في القرآن الكريم في ٢٦ آية ، منها ٢٤ آية في سورة يوسف وآية في الأنعام وآية في سورة المؤمن (غافر) ، وقد وصفه الله تعالى بالصدّيقية ولهذا يسمى (يوسف الصديق) قال تعالى : ﴿ يوسفُ أيّها الصِدّيقُ أفتِنَا في سبعِ بقراتٍ سِمَانٍ يأكُلهُنّ سبعٌ عجافٌ ..﴾ الآية . وهو من ذرية إبراهيم عليه السلام ، ومن سلالة النبوة ، ومن أشهر أنبياء بني إسرائيل ، وقد أُرسل إليهم كما قال تعالى : ﴿ولقدْ جاءكُمْ يوسفُ منْ قبلُ بالبيناتِ فما زلتُمْ في شَكٍّ ممّا جاءكُمْ بهِ ، حتّى إذا هلَكَ قلتُمْ لنْ يبعثَ اللهُ منْ

بعده رسولاً ..﴾ الآية .

وله سورة ذكرت فيها قصته بالتفصيل وهي من طوال سورة القرآن تسمى (سورة يوسف) وفيها بيان لحياته عليه السلام ، ومحنته مع إخوته ، ومحنته مع امرأة العزيز ، ودخوله السجن ، ودعوته فيه إلى الله ، ثم خروجه من السجن وتعبيره الرؤيا للملك ، واستلامه لخزائن الأرض ، ثم مجيء إخوته إلى مصر بسبب القحط ، واحتيال يوسف لإبقاء أخيه (بنيامين) عنده ، ثم التعرف على أبيه وإخوته ، ودخولهم عليه وسجودهم له ، حسب الرؤيا التي رآها في صغره ، إلى غير ما هنالك من إشارات دقيقة ، وعظات بالغة ، من حياة هذا النبي الكريم.

من هم الأسباط :

قدمنا أن (يعقوب) عليه السلام ولد له من البنين اثنا عشر ولداً ذكراً ، وإلى هؤلاء الأبناء تنسب أسباط بني إسرائيل ، فجميع بني إسرائيل انحدروا وتناسلوا من أولاد يعقود ، وكان أشرفهم وأفضلهم وأعظمهم (يوسفُ) عليه السلام ، وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن في أولاد يعقوب نبيّ غيره ، وأن جميع إخوة يوسف لم يوح إلى واحد منهم ، وقد أيّد (ابن كثير) رحمه الله هذا الرأي فقال ما نصه : (وظاهر ماذُكر من فعالهم ومقالهم ، في هذه القصة ، يدل على هذا القول ، ومن استدل على نبوتهم بقوله تعالى : ﴿ قولُوا آمنّا بالله وما أُنْزِلَ إلينا وما أُنزِلَ إلى إبراهيمَ ، وإسماعيلَ ، واسحقَ ، ويعقوبَ ، والأسباطِ ﴾ وزعم أنّ هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقويّ ، لأنّ المراد بالأسباط (شعوب بني اسرائيل) وكان يوجد فيهم من الأنبياء ، الذين نزل عليهم الوحي من السماء ، ومما يؤيد أنّ (يوسف) عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوّة أنّه لم ينص على واحد من إخوته سواه ، فدل بذلك على ما ذكرناه » .

رؤيا يوسف الصدّيق عليه السلام :

ذكر المفسّرون أن يوسف عليه السلام رأى في المنام وهو صغير لم يحتلم

بعد رؤيا عجيبة غريبة ، رأى في نومه أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر قد سجدوا له ، فهاله ذلك الأمر ، واستعظم تلك الرؤيا ، فلمّا استيقظ قصّها على أبيه ، فعرف أبوه أنه سيكون لابنه شأن عظيم ، وسينال رتبة عالية ، ورفعة سامية ، في الدنيا والآخرة ، بحيث يخضع له أبوه وأمه وجميع إخوته فيها ، فأمره بكتمانها ، وألا يقصها على إخوته ، خوفاً عليه منهم، لئلا يحسدوه ويكيدوا له ويدبروا له أنواع المكائد ، فإنّ في طبيعة الإنسان الكيد والحسد ، ولهذا أوصى يعقوب ابنه بكتمان السر لهذه الرؤيا ، وقد جاء في الأثر : (استعينُوا على قضاءِ حوائجكم بالكتمانِ ، فإنّ كلّ ذي نعمةٍ محسودٌ) .

قال تعالى اشارة إلى هذه الرؤيا :

﴿ إذْ قالَ يوسفُ لأبيهِ يا أبتِ إني رأيتُ أحدَ عشَرَ كوكَباً، والشّمْسَ والقمرَ رأيتُهُمْ لي ساجِدِينَ . قالَ يا بُنيّ لا تَقْصُصْ رؤياكَ على إخوتكَ فيكيدُوا لك كيداً ، إنّ الشيطانَ للإنسانِ عدوّ مبينٌ ﴾.

والظاهر من النص القرآني أنّ يوسف عليه السلام قد قصّ الرؤيا على والده في غيبة إخوته ، وأنّ أباه قد أوصاه بعدم إخبار إخوته بما رأى ، وعبارة التوراة تفيد أنّ ذلك كان بحضرة إخوته ، وأنّ أباه انتهره على هذا القول قائلاً : لعلّنا نسجد لك أنا وأملك وإخوتك ، قالها متهكّماً ... وهذا الذي ذكر في التوراة خطأ ، لأنّ التوراة محرفة قطعاً ، والصحيحُ ما ذكر في القرآن الكريم .

حبّ يعقوب ليوسف :

كان يعقوب عليه السلام يحب من أولاده (يوسف) ويؤثره هو وأخاه (بنيامين) على بقية أولاده في المحبة والقرب ، فكان ذلك سبباً لحسد إخوته وحقدهم على يوسف وأخيه ، وهم في حداثة السن والشباب ، فأضمروا له الشرّ وطلبوا من أبيهم أن يسمح لهم باصطحاب يوسف ، ليلهو ويلعب معهم في البرية ، وقد كان يعزّ ذلك على نفس يعقوب ، فهو لا يستطيع فراقه ، ويخشى عليه منهم لذلك تعلّل لهم بقوله :﴿ إنيْ لَيَحْزُنُنِي أنْ تذهبُوا بهِ ،

وأخافُ أنْ يأكلَهُ الذئبُ وأنتمْ عنهُ غافلون ﴾وهو عليه السلام يتخوف عليه عدوانهم أكثر ممّا يتخوف عليه عدوان الذئب ، ولكنّه أراد أن يصرفهم عنه بتلك التعلّة ، ولكنّ إخوته كانوا بارعين في الدهاء فقالوا لأبيهم :﴿ لئِنْ أكلهُ الذّئبُ ونحنُ عصبةٌ إنّا إذاً لخاسِرونَ ﴾.

إلقاء يوسف في الجب :

لم يجد يعقوب بدّاً أن يرسل يوسف مع إخوته ، لئلا يشعروا بأنّ أباه يخشى عليه منهم ، فيدبّروا له مكيدة في غيابه ، فتظاهر بقبول كلامهم وأرسله معهم على كره ومضض ، وما أنْ غابوا به عن عينيه حتّى جعلوا يشتمونه ويضربونه ويهينونه بسيء الكلام وقبيح المقال ، ثم اجمعوا على إلقائه في غيابة الجب (أي في قعره) وكانت قليلة الماء ، فلمّا ألقوه فيه أوحى الله إليه أنه لا بد من فرج ومخرج من هذه الشدة والضيق ، ولتخبرنّ إخوتك بصنيعهم هذا ، في وقت يكون لك فيه العزة والسيادة عليهم وهم لا يعلمون أمرك . ﴿وأوحَيْنَا إليهلتنبئنهم بأمرهمهذا وهمْ لا يَشْعُرونَ ﴾. مرت سيارة (قافلة) فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه في الجب فتعلق به يوسف ، فلما نزع الدلو يحسبها قد امتلأت ماء ، فإذا غلام جميل الصورة ، وسيم الخلق ، قد تعلّق بها فاستبشر الرجل وقال :﴿ يا بشرى هذا غلام ﴾وأسروه بضاعة حتّى وصلوا إلى مصر ، فباعوه على أنه عبد رقيق فاشتراه عزيز مصر واسمه (قطفير) من القافلة بثمن رخيص ، واحتلّ عنده مكاناً حسناً بسبب أمانته ، وحسن خلقه ، وصدقه ونزاهته ، وكان ذلك على وجه التقريب سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد .. أما اخوة يوسف فقد رجعوا إلى أبيهم ومعهم قميص يوسف قد لطخوه بدم شاة ذبحوها ليوهموا أباهم أن الذئب قد عدا على أخيهم فأكله ، ولكنهم نسوا أن يخرقوا القميص ــ وآفة الكذب النسيان ــ فلم يفلحوا في هذا المكر ، قال تعالى : ﴿وجاءوا أباهم عِشَاءً يبكون . قالوا يا أبانا إنّا ذهبْنَا نستبِقُ وتركنَا يوسفَ عندَ متاعِنَا فأكلَهُ الذّئبُ وما أنتَ بمؤْمنٍ لنَا ولوْ كنّا صادِقينَ ﴾قال بعض

السلف : «لا يغرنّك بكاءُ المتظلّم ، فربّ ظالمٍ وهو باكٍ كما فعل إخوةُ يوسف حين جاءوا أباهم عِشاء يبكون»، وروى أنّ (يعقوب) عليه السلام لما أتوه بقميص يوسف ملطّخاً بالدم جعل يقلّبه وينظر فيه ويقول : ما أحلم هذا الذئب أكل ابني دون أن يمزّق ثوبه !! يقول ذلك تعريضاً بكذبهم وإيذاناً لهم بأنّ صنيعهم ومكرهم لم يرج على أبيهم ﴿قالَ : بلْ سوّلَتْ لكمْ أنْفسُكُمْ أمراً ، فصبرٌ جميلٌ ، واللهُ المستعانُ على ما تَصِفونَ﴾ .

محنة يوسف مع امرأة العزيز :

أقام يوسف الصدّيق في بيت عزيز مصر ، منعّماً مكرّماً ، وكان فائق الحسن والجمال ، فلمّا شبّ وكبر ، عشقته امرأة العزيز (زوجة سيّده) وشُغِفت به حباً ودعته إلى نفسها ، وكان ذلك بداية المحنة الثانية له ، أما المحنة الأولى فقد كانت عندما حسده اخوته ورموه في الجب ، ولقد كان يوسف طاهر النفس عفيف الخلق ، مستقيم السيرة ، ولذلك استعصى على تلك الفتنة العارمة ، ووقف في وجه الشهوة والاغراء موقف المؤمن الحازم لأمرين اثنين :

أولهما : الإيمان بالله الذي غمر قلبه ، والسيرة العطرة التي نشأ عليها في حجر أبيه وجده ..

ثانيهما : أن زوجها هو سيّدُه الذي أحسن إليه ، وأكرم مثواه ، وأئمنه على ماله وعرضه ، فكيف يخونه ؟ قال تعالى : ﴿وراودتْهُ التي هوَ في بيتِها عن نفسِه ، وغلّقت الأبوابَ ، وقالتْ : هَيْتَ لكَ ، قالَ : معاذَ الله إنّهُ ربي (أي سيدي) أحسنَ مثوايَ ، إنّهُ لا يُفلِحُ الظالمون﴾ .

هاج هائج الغرام في قلب امرأة العزيز فأرادت أن تحمله على الاتصال بها بالقوة ، فغلّقت الأبواب ، وأحكمت الخطة ، ودعته صراحة إلى نفسها ، ولكنّه امتنع وأبى ، وأصرّ على العصيان لأمرها ، وغلبها الحب على حيائها ، واستطارت الشهوة في نفسها فأمسكت به تريد أن تجبره على مواقعتها ، ولكنّ

خوفه من الله عصمه عن ذلك فتجاذبا ، وأخيراً أفلت من يدها وأمسكت بثوبه من خلف فتمزق الثوب ، وظلت تلاحقه وهما يستبقان الباب ، هو يريد فتحه هرباً ، وهي تحول بينه وبين الباب طلباً ، لتقضي منه لبانتها ، وفي هذه اللحظة كان قد وصل زوجها فوجدهما في هذه الحالة المريبة .. وهنا يبدأ الكيد الخبيث والمكر المدبّر فتنطلق صارخة باكية لتظهر أمام زوجها بالبراءة ، زاعمة أنّ يوسف راودها عن نفسها ، فامتنعت منه ، وأنه قد عزم على عمل الفاحشة معها فهربت منه ، وفي لمحة عين يصبح الطالب مطلوباً ، والظالم مظلوماً ، وتصبح العقوبة واجبة لمن أراد أن يخون شرف سيّده ، ويهتك عرضه ، وحقاً إنّه الكيد والمكر والدهاء استمع إلى قوله تعالى ﴿واستبَقَا البابَ وقَدّتْ قميصَهُ من دُبُر ، وألفيَا سيّدها لدَى البابِ ، قالتْ ما جزاءُ من أرادَ بأهلِكَ سوءً إلاّ أنْ يُسْجنَ أو عذابٌ أليمٌ ؟ قالَ هيَ راودَتْني عنْ نفسِيْ ، وشهِدَ شاهِدٌ من أهلِهَا إنْ كانَ قميصُه قدّ (أي شقّ) من قُبُلٍ فصدَقَتْ وهوَ من الكاذبينَ.وإنْ كانَ قميصُهُ قُدّ منْ دُبُرٍ فكذَبَتْ وهوَ منَ الصّادِقينَ﴾ شهادة صادقة ، وحجة مقنعة ، شهد بها طفل من أقربائها ، أنطقه الله بها لتكون براءة ليوسف الصديق ، وبرهاناً على عفته ونزاهته ، وليتخلص الصدّيق من العقوبة الشديدة التي أرادتها له امرأة العزيز ، وخلاصة الشهادة كما يلي :

إذا كان يوسف هو الطالب وهي الممتنعة فلا بدّ أن يُشق ثوبه من أمام لأنه يريدها وهي تدفعه عن نفسها ، فالمنطق السويّ أن يكون الشق من الأمام ، وإن كان يوسف هو الهارب وهي الطالبة فلا بد أن شق ثوبه من خلف﴿ فلما رأى قميصَهُ قدّ من دُبُر قالَ إنّهُ مِنْ كَيدِ كُنّ ، إنّ كيدَكُنّ عظيمٌ يوسفُ أعرِضْ عنْ هذا ، واستغفِري لذنبِكِ إنّكِ كنتِ منَ الخاطئينَ﴾.

شيوع الخبر في المدينة :

شاع الخبر في أرجاء المدينة ، وأخذت ألسنة النساء تلوك في امرأة العزيز ، استهجاناً ولوماً لها على صنعها ، كيف تعشق سيّدة عبدها ؟ وكيف تهوى وتحبّ

خادمها ؟ وبلغ ذلك امرأة العزيز ، فأرسلت إلى صديقاتها العاذلات ، من ذوات الثراء والجاه ، ودبّرت لهن مكيدة حتى يعذرنها في هذا الحب والغرام ، هيأت لهن مكاناً يجلسن فيه ، وقدمت إليهن طعاماً يحتاج إلى القطع بالسكين ، وكانت قد خبأت يوسف في مكان آخر ، وفي تلك اللحظة أمرته أن يخرج عليهن ، فبهرهن جماله ، وألهاهن حسنه وتشاغلن عما في أيديهن فصرن يقطعن أيديهن ولم يشعرن في تلك اللذة الغامرة بألم جراحة الأصابع حيث كان الدم يسيل على ثيابهن ، وهن يحسبن أنهن يقطعن الفاكهة ، والعقل غارق والبصر شارد في الاستمتاع بجمال يوسف ، والتأمل في محاسنه ، ثم لم يمنعهن العتب والعذل إلا أن يعلن إكبارهن لذلك الجمال الفائق قائلات : ﴿حاشا لله ما هذا بشراً إنْ هَذَا إلاّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. وهنا باحت امرأة العزيز بسرّ عشقها له ، بعد أن أوقعتهن في شباك غرامه ، فقالت معاتبة لهن ﴿فذلكنّ الذي لُمْتُنَّنِي فيه ، ولقدْ راودتُه عَنْ نفسِهِ فاستعصَمَ ،ولئنْ لم يفعلْ ما آمره ُ ليسجنَنّ وليكُونَنَ منَ الصاغرينَ﴾. لقد كانت العدالة تقضي بأن يكرّم يوسف على نزاهته وعفته وأن تعاقب زوجة العزيز على جنايتها وما اجترحته يدها ، ولكنّ الأمر كان بالعكس فقد قُدّم يوسف البرىء التقي الطاهر ، فدية لسمعة تلك التي استهانت بكرامتها وكرامة زوجها وأرادت ان تلحق به عار الخيانة ، فبرّئت تلك المرأة وأدين يوسف ، وحكم عليه بالسجن ، فمكث في السجن سنوات عديدة تبلغ سبعاً ، كما قال تعالى ﴿ثمّ بَدَا لهمْ مِنْ بعد ما رأوا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حتّى حين﴾ .

دخل يوسف السجن على غير جريمة اقترفها ، ودخل معه السجن فتيان : أحدهما رئيس سقاة الملك ، والثاني رئيس الخبّازين ، فرأى كل منهما حُلُماً وعرضه على يوسف ، أمّا رئيس السقاة فقد رأى أنّه يعصر في كأس الملك الخمر ، وأما الثاني فقد رأى أنه يحمل فوق رأسه طبقاً من الخبز ، والطير تأكل من ذلك الخبز ، وطلبا منه أن يخبر كل واحد منهما بتفسير رؤياه ، فقال للأول إنك ستخرج من السجن وتعود إلى عملك فتسقي الملك خمراً .. وقال للثاني :

إنّك ستصلب وتأكل الطير من رأسك ، وكان الأمر كما أخبر يوسف الصديق عليه السلام .

رؤيا الملك وخروج يوسف من السجن :

بعد تلك السنين الشديدة التي مرت على يوسف وهو في السجن جاء الفرج من الله ، فقد رأى الملك في نومه رؤيا عجيبة غريبة ، رأى سبع بقرات جميلات قد خرجت من النهر ، وأخذت ترتع في روضة ، ثم رأى سبع بقرات عجافاً هزيلة قبيحة المنظر قد خرجت من النهر وأكلت البقرات السمينة ، كما رأى سبع سنابل خضراء حسنة ، قد عدَت عليها سبع سنابل يابسة فأكلتها فاستيقظ الملك فزعاً من رؤياه ، وطلب من السحرة والعلماء تأويلاً لها ، فلم يجد جواباً شافياً ، وهناك تذكّر ساقي الملك قدرة يوسف على تأويل الأحلام فطلب من الملك أن يرسله إلى السجن ليأتيه بالخبر اليقين ، فذهب إلى يوسف وقصّ عليه رؤيا الملك ، فأخبره بتعبيرها على الوجه الدقيق ، قال له يوسف : إنّ البلاد ستمر عليها سنوات سبع فيها الخيرات تجود فيها الأرض بالغلاّت الوافرة ، ثم يعقبها سبع سنين مجدبة ، تأكل الأخضر واليابس ، وأنّ عليهم أن يقتصدوا من سني الرخاء إلى سني الجدب والقحط ، وقد أعجب الملك بتأويل يوسف غاية الإعجاب ، فأمر باخراجه من السجن ، ليجعله من خاصته المقربين ويسلّمه إحدى وزارات الدولة ، ولكنّ يوسف أبى أن يخرج من السجن وعليه سمة المجرمين ، حتى يقر خصومه ببراءته ، فتبرّأ ساحته من تلك التهمة الشنيعة ، ويشهد الناس بنزاهته وذلك هو منتهى العزة النفسية والكرامة النبوية ، قال تعالى:

﴿وقالَ المَلِكُ ائتُوني بهِ ، فلمّا جاءَهُ الرّسولُ قالَ ارجعْ إلى ربّكَ فاسألهُ ما بالُ النّسوةِ اللاّتي قطّعْنَ أيديهنّ ؟ إنّ ربي بكيدِهِنّ عليمٌ . قالَ ما خطبكُنّ إذْ راودتُنّ يوسفَ عنْ نفسِهِ ؟ قلن حاشَ للهِ ما علمنَا عليهِ منْ سُوءٍ قالتْ امرأةُ العزيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحقّ أنَا راودتُهُ عنْ نفسِهِ وإنّهُ لمنَ الصّادقينَ﴾. وقصةُ يوسف طويلة وقد فصّلها القرآن أجمل

تفصيل ، وذكر في النهاية أن أباه وأمه وجميع إخوته قد جاؤوا إلى مصر ، ودخلوا عليه وهو في عزّ وسلطان وجاه عظيم ، فسجدوا له سجود «تحية وتكريم» وذكّرَ أباه بما رأى وهو صغير حيث تحقّقت رؤياه كما قال تعالى : ﴿ وقالَ ادخلُوا مصرَ إن شاءَ اللهُ آمنينَ . ورفعَ أبويهِ على العرش وخرّوا له سُجّداً ، وقالَ يا أبتِ هَـٰذَا تأويلُ رؤيايَ منْ قَبْلُ قدْ جَعَلَها ربي حقاً ، وقدْ أحسنَ بي إذْ أخرجَني مِنَ السّجْنِ ، وجاءَ بكمْ مِنَ البَدْوِ منْ بعدِ أنْ نزَغَ الشيطانُ بيني وبينَ إخوتي إنّ ربي لطيفٌ لِمَا يَشَاءُ إنّهُ هُـوَ العليمُ الحكيمُ ﴾ .

محنة يوسف عليه السلام :

لقد مر يوسف بمحن شديدة ، وكانت حياته عليه السلام حياة عصيبة ، فقد تنقل بين عسر ويسر ، وشدة ورخاء ، وضيق وسعة ، ثم كانت نتيجة هذه المحن والمصائب العظيمة أن وسّع الله عليه ، وأكرمه بالعز والسلطان ، فخرج من السجن إلى الملك ، فملّكه الله خزائن أرض مصر ، حتى أصبح الناس يأتون إليه من كل صقع وبلد ليمتاروا ، ومن ضمنهم إخوته الذين أضرّ بهم الجدب فجاءوا إليه من أجل الميرة فعرفهم وهم له منكرون . ولقد كانت محنته سبباً لتلك المنّة الغظيمة عليه وكما يقول بعض العارفين : (ربما كمنت المنّةُ في المحنة) .

ولقد مرت على يوسف عليه السلام محن ثلاث :

المحنة الأولى: وذلك حين حسده إخوته فدبروا له مكيدة من أخطر المكائد أرادوا بها قتله ، ثم اكتفوا بإلقائه في (الجب) ولولا عناية الله ورحمته به لكان من الهالكين .

المحنة الثانية : حين أحبّته امرأة العزيز ، وراودته عن نفسها ، وعملت كل حيلة من أجل إغرائه وإغوائه — وهو شاب في ريعان شبابه — ولكنّ الله

حفظه من كيدها ونجّاه من تلك الورطة العظيمة : ﴿فاستجابَ لهُ ربّهُ فصرفَ عنهُ كيدهُنّ إنّهُ هوَ السميعُ العليمُ﴾ .

المحنة الثالثة : وهي دخوله السجن – ظلماً وعدواناً – ومكثه فيه سبع سنين ، بسبب تلك التهمة الملفّقة ، ولولا (رؤيا الملك) التي شغلت ذهنه وباله لمكث في السجن السنين الطوال .

تنبيه هام على عصمة يوسف :

ذكرنا في باب (عصمة الأنبياء) عشرة وجوه في عصمة يوسف الصديق نبي الله الكريم ، ونزيد هنا كلمة لطيفة للمفسر الشهير (الفخر الرازي) وهي تدل على نزاهة يوسف وعصمته وبراءته من (الهمّ) الذي زعمه بعض الجهلة قال رحمه الله :

١ – إنّ يوسف قد شهد الله تعالى ببراءته بقوله جل وعلا : ﴿كذلكَ لنصرفَ عنهُ السوءَ والفحشاءَ ، إنّهُ من عبادِنَا المُخْلَصينَ﴾ .

٢ – وشهد ببراءته الشاهد من أقرباء امرأة العزيز قال تعالى : ﴿وشهدَ شاهدٌ من أهلِهَا إنْ كانَ قميصهُ قُدّ من قُبُلٍ ...﴾ الآية .

٣ – وشهد ببراءته النسوة اللاتي قطّعن أيديهن قال تعالى : ﴿قلنْ حاشَ للهِ ما علِمنَا عليهِ من سوءٍ ..﴾ الآية .

٤ – وشهد ببراءته زوجة العزيز بقولها : ﴿الآن حَصْحَصَ الحقّ ، أنَا راودتُهُ عن نفسِهِ وإنّه لمنَ الصّادقينَ ..﴾ حصحص : أي ظهر ووضح .

٥ – وشهد ببراءته الشيطان بقوله ﴿فبعزّتِكَ لأغوينّهُمْ أجمعينَ إلاّ عبادَكَ منهمُ المُخْلَصين ..﴾ (١) .

فالذي يريد أن يتهم يوسف بـ (الهمّ) عليه أن يختار أن يكون من حزب

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازي .

الله ، أو من حزب الشيطان ، وكلاهما شهد ببراءة يوسف ، فلا مفر إذاً من الاقرار بالحق على أيّ حال ، وهو براءة يوسف عليه السلام من الهمّ بامرأة العزيز ..) انتهى كلام الفخر الرازي .

وفاة يوسف عليه السلام :

قال المؤرخون . ولما اجتمع يوسف بأبيه بعد الفراق كان عمر يعقوب مائة وثلاثين سنة (١٣٠) ثم توفي يعقوب بعدها بسبع عشر سنة (١٧) وعاش يوسف عليه السلام من السنين (١١٠) مائة وعشراً ، ومات في مصر وهو في الحكم ودفن فيها ، وكان قد أوصى إخوته أن يُحْمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن مع آبائه ، وقد نقل رفاته إلى الشام أيام موسى عليه السلام ، ودفن بنابلس على الأرجح ، وكانت وفاة يوسف بعد ميلاد جده الأكبر (ابراهيم) عليه السلام بـ (٣٦١) سنة وقبل مولد موسى عليه السلام بـ (٦٤) سنة على الصحيح من الأقوال .

وقد طلب من ربه جلّ وعلا حين دنا أجله ان يميته على الإيمان ، وأن يلحقه بعباده الصالحين فقال ﴿ربّ قد آتيتني من الملكِ ، وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطرَ السموات والأرضِ ، أنت وليي في الدنيا و الآخرة ، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ وقد استجاب الله دعاءه فنقله إلى الرفيق الأعلى رحمه الله رحمة واسعة ورزقنا الموت على الإيمان ، إنه سميع مجيب الدعاء .

٩ ـ شعيب عليه السلام

﴿وإلى مَدْيَنَ أخاهُمْ شُعَيباً قالَ يا قومِ اعبدُوْا اللهَ ما لكُمْ مِنْ إلهٍ غيره ..﴾ الآية .

ذكره في القرآن :

ورد ذكر شعيب عليه السلام في القرآن عشر مرات ، في مواطن متفرقة من سورة الأعراف، وهود ، والشعراء ، والعنكبوت ، وقد أرسله الله إلى مدين ، ويعرفونَ أيضاً بـ (أصحاب الأيكة) لقوله تعالى ﴿كذّبَ أصحابُ الأيْكَةِ المرسلين . إذْ قالَ لهمْ شعيبٌ ألا تتّقون ؟﴾ ويرى بعض المفسّرين أنّ (أصحاب الأيكة) قوم آخرون غير أهل مدين ، أرسله الله إليهم بعد هلاك مدين فكذبوه فأخذهم عذاب (يوم الظُلّة) والصحيح أنّ أهل مدين هم أنفسهم أصحاب الأيكة ، لأن سورة الشعراء وضحت أنهم كانوا يطففون المكيال والميزان ، وهذا وصف أهل مدين ، وسمّوا بأصحاب الأيكة لأن الأيكة هي الغوطة التي يكثر فيها الشجر . وقد كانوا يجمعون بين التجارة والزراعة ، وأراضيهم كانت كثيرة الأشجار ، وافرة الثمار ، وفيها الحدائق والبساتين الغناء فلذلك سموا بأصحاب الأيكة .

نسبه عليه السلام :

هو (شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين أحد أولاد إبراهيم الخليل عليه أفضل الصلاة والتسليم) وأمّه بنت لوط عليه السلام وقد كانت بعثته بعد (لوط)

لقوله تعالى في قصة قومه ﴿وما قومُ لوط منكمْ ببعيد﴾ وقبل رسالة موسى لأنّ الله تعالى لمّا ذكر نوحاً ثم هوداً ثم صالحاً ثم لوطاً ثم شعيباً أعقب ذلك بقوله ﴿ثمّ بعثْنَا منْ بعدِهمْ موسى بآياتِنَا إلى فرعونَ وملائِه﴾ فدلّ على أنّ (شعيباً) كان من قبل زمن موسى وهرون عليهما السلام . وقد اخطأ بعض المؤرخين فظنّ أنّ (شعيباً) كان زمنه بعد موسى بعدة قرون ، وهذا ينافي النص السابق ، وقد التبس الأمر علهم بين (شعيب) وبين (شعيا) أحد الأنبياء الذين لم يذكرهم القرآن الكريم فظنوا أن (شعيا) هو شعيب ومن هنا جاء الخطأ كما نبّه عليه بعض المحققين من العلماء .

أين كانت مساكن أهل مدين ؟

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون في بلاد الحجاز ، ممّا يلي جهة الشام ، قريباً من (خليج العقبة) من الجهة الشمالية منه ، ويقول (الطبري) أنّ بين مصر وأرض مدين ثماني ليال[1] ويظهر أنها في الأرض المسماة الآن (معان) وهي جنوب فلسطين . وأهل (مدين) ينسبون إلى أحد أولاد إبراهيم وهو (مدين ابن إبراهيم) وفي التوراة يسمى (مديان) وإنما سميت هذه القبيلة باسم (مدين) نسبةً إليه حيث عاش بينهم وصاهرهم فصار له فيهم رهط واسرة فسمّوا أهل مدين .

دعوة شعيب لقومه :

كان أهل مدين أهل تجارة وزراعة ، وكانوا أصحاب رفاهية ونعيم ، وقد كانوا على دينهم الذي ورثوه عن إبراهيم ، ولكنّه لم يطل بهم العهد حتى غيّروا وبدّلوا وكفروا بالله ، وانحرفوا عن الصراط المستقيم ، قد فشت فيهم منكرات عديدة ، منها (التطفيف) في المكاييل والموازين ، فكانوا يبخسون الناس أشياءهم ، ويفسِدون في الأرض ولا يصلحون .

---

(١) انظر تاريخ الطبري .

وقد بعث الله إليهم (شعيباً) عليه السلام فدعاهم إلى توحيد الله وذكّرهم بعذابه ، ونهاهم عن تطفيف المكيال والميزان وأمرهم بالاصلاح وعدم الافساد فآمن به قليل وكذّبه الأكثرون ، وقد كان هؤلاء المكذّبون على غاية من الضلال والجحود ، يقعدون على الطرق يرصدون الناس الذين يأتون إلى شعيب ليصدوهم عن الدين ، ويمنعونهم عن الإيمان به ، ويتوعدون من اتّبعه بأنواع من التهديد والوعيد كما قال القرآن الكريم على لسان شعيب عليه السلام (ولا تقعُدُوا بكل صِراطٍ تُوعِدُونَ وتصدّونَ عن سبيل الله منْ آمنَ بهِ وتبغونَهَا عِوجاً) ولمّا ألحّ عليهم شعيب عليه السلام في الدعوة والموعظة جاهروه في العداء ، وادعوا أنهم لا يفقهون كلامه ، ولا يعرفون غرضه وتوعدوه بأنه لولا أنّ له أنصاراً لقتلوه كما قال تعالى ﴿قالُوا يا شعيبُ ما نفقَهُ كثيراً ممّا تقولُ ، وإنّا لنراكَ فينَا ضعيفاً ، ولولا رهطُكَ لرجمنَاكَ ، وما أنتَ علينَا بعزيزٍ﴾ ثم هدّدوه وتوعدوه بالإخراج والطرد من القرية ، هو والذين آمنوا معه إلاّ أن يعودوا في ملتهم ، ويدخلوا في دين قومهم إستمع إلى قوله تعالى :

﴿قالَ الملأ الذينَ استكبرُوا من قومِهِ لنخرجنّكَ يا شعيبُ والذينَ آمنوا معكَ منْ قريتِنَا ، أو لتعودُنّ في ملّتِنَا قال أوَلوْ كنُنّا كَارهِينَ ..﴾ .

العبرة من قصة شعيب :

العجب من هؤلاء القوم ، يأتيهم نبيهم الكريم بدعوة انسانية كريمة ، واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار فيقولون له : ﴿ ما نفقَهُ كثيراً ممّا تقوُلُ وإنّا لنراك فينا ضعيفاً ..﴾ مع ان دعوته في غاية الظهور والبيان ، ويدعوهم إلى ترك عبادة غير الله فيتوعّدونه بالطرد من القرية ، وإخراجه هو ومن آمن معه ، ويأمرهم بترك ذلك المنكر القبيح (تطفيف المكيال والميزان) فيجيبونه بأسخف جواب وأتفه كلام ، ساخرين منه ، متهكمين عليه في صلاته وعبادته ﴿قالوا يا شُعَيبُ أصلاتُكَ تأمركَ أنْ نتركَ ما يعبدُ آباؤنا ؟ أو أن نفعلَ في أموالنا ما نشاءُ ؟ إنّكَ لأنتَ الحليمُ الرشيدُ ؟﴾ .

عجبٌ والله أن يهزأ الجاهل من العالم ، وأن يسخر المجنون من العاقل ، وأن يصبح السفيه صاحب حجة وبيان يريد أن يظهر بها على خصمه الذي يدعوه إلى الفضيلة والطهر والعفاف ؟ متى كانت الاستقامة تعدّ نقصاً ؟ ومتى كانت الفضيلة تعتبر عيباً يلام عليه الإنسان ؟ ولكنه منطق البغي والعدوان كما قال قوم لوط لنبيهم وأتباعه من المؤمنين ﴿ أخرِجوهُمْ من قريتكم إنّهمْ أناسٌ يتطهّرونَ ..﴾ كذلك كان موقف أهل مدين من شعيب عليه السلام ﴿وقالَ الملأ الّذين كفرُوْا من قومِهِ لئِنْ اتبعتّمْ شعيباً إنكمْ إذاً لخاسرونَ ..﴾ .

هلاك قوم مدين :

ولقد كان من شدة حماقتهم أن يطلبوا إلى (شعيب) أن يسقط عليهم كسفاً (قطعاً) من السماء ، إنْ كان من الصادقين في دعوته ، فأخذهم عذاب (يوم الظّلّة) بأن سلط الله عليهم الحر سبع أيام حتى غلت مياههم ، ثمّ ساق إليهم غمامة فاجتمعوا تحتها للاستظلال فرراً من شدة الحر ، فلما تكامل عددهم في ظلها تزلزلت بهم الأرض ، وجاءتهم الصيحة وأمطرت عليهم السماء ناراً فاحترقوا وصدق الله حيث يقول ﴿فكذّبوهُ فأخذهُمْ عذابُ يومِ الظّلّة إنّهُ كانَ عذابَ يومٍ عظيمٍ ..﴾ .

وقد عاش شعيب بعد هلاك قومه مدة من الزمن إلى أن توفاه الله تعالى ، وذلك في الفترة الواقعة بين وفاة يوسف ونشأة موسى عليه الصلاة والسلام ، ويغلب على الظن أنّ أحداث إهلاك قومه كانت بعد انتقال بني إسرائيل إلى مصر والله تعالى أعلم .

١٠ - أيوب عليه السلام

﴿وأيوبَ إذْ نادَى ربَّهُ أنّي مسّنيَ الضُرّ وأنتَ أرحمُ الراحمينَ فاستجبنَا لهُ فكَشَفنَا ما بهِ منْ ضُرٍ﴾ .

ذكره في القرآن :

ذكر اسم (أيوب) في القرآن الكريم أربع مرات ، في سورة النساء ، والأنعام ، والأنبياء ، وفي سورة (ص) وقد ذكره الله في عداد مجموعة الرسل الذين يجب الإيمان بهم تفصيلا وهو من ذرية ابراهيم عليه السلام على وجه التحقيق لقوله تعالى في معرض الحديث عن إبراهيم :

﴿ومنْ ذريّتِهِ داودَ ، وسليمانَ ، وأيوبَ ، ويوسفَ وموسى ،وهارونَ وكذلكَ نجزي المحسنينَ ..﴾ .

نسبه عليه السلام :

يختلف العلماء في نسبه حتى قال أبو البقاء : (لم يصحّ في نسبه شيء) ولكنّ ابن كثير رجحّ أنه من سلالة (العيص بن اسحق) وذكر أنّ أمه بنت (لوط) عليه السلام حكاه عن ابن عساكر ، والراجح من الأقوال في نسبه ما ذكره ابن اسحق وهو كالتالي « أيوب بن أموص بن زارح بن العيص بن اسحق بن إبراهيم الخليل » عليه السلام .

بلاء أيوب عليه السلام :

ابتلي أيوب عليه السلام بلاء شديداً في أهله وبدنه ، وماله ، ولكنه كان مثالاً للعبودية الحقة لله تعالى ، فصبر على ذلك حتى أصبح يضرب فيه المثل على الأذى فيقولون (صبراً كصبر أيوب) وقد أثنى الله تبارك وتعالى عليه بقوله ﴿إنّا وجدناه صابراً نعمَ العبدُ إنّهُ أوّابٌ ..﴾ .

وقد كان أيوب عليه السلام من الأغنياء صاحب ثروة ومال وبنين ، وكان يملك أراض واسعة وحقولاً وبساتين ، وقد ابتلاه الله بالنعمة والرخاء فآتاه الغنى والصحة وكثرة الأهل والولد فكان عبداً تقياً ذاكراً شاكراً لأنعم الله عليه لم تفتنه الدنيا ولم تخدعه ، ثم ابتلاه الله بسلب النعمة ، ففقد المال والأهل والولد ونشبت به الأمراض المضنية المضجرة ، فصبر على البلاء وحمد الله وأثنى عليه ، وما زال على حاله من التقوى والعبادة والرضى عن ربه ، فكان في حالتي الرخاء والبلاء ، مثالاً لعباد الله الصالحين في إرضاء الرحمن ، وإرغام أنف الشيطان . قالوا : وكانت له امرأة مؤمنة صالحة اسمها (رحمة) من أحفاد يوسف عليه السلام ، وقد رافقت هذه المرأة حياة نعمته وصحته ، وزمن بؤسه وبلائه ، فكانت في الحالين مع زوجها شاكرة وصابرة .. ثم إنّ الشيطان حاول أن يدخل على (أيوب) في زمن بلائه فلم يؤثّر فيه فحاول أن يدخل إليه عن طريق امرأته فوسوس لها : إلى متى تصبرين ؟ فجاءت إلى أيوب وفي نفسها اليأس والضجر مما أصابه فقالت له : إلى متى هذا البلاء ؟ فغضب أيوب وقال لها : كم لبثتُ في الرخاء ؟ قالت : ثمانين ، قال : كم لبثت في البلاء ؟ قالت : سبع سنين ، قال : أما أستحيي أن أطلب من الله رفع بلائي وما قضيت فيه مدة رخائي ، ثم قال : والله لئن برئت لأضربنك مائة سوط ، وحرّم على نفسه أن تخدمه بعد ذلك ، ثم نادى ربه في حالة الوحدة والشدّة ﴿ربّ إني مسّنيَ الضُرّ وأنتَ أرحمُ الراحمينَ ..﴾ فأجاب الله دعاءه ، وكشف بلاءه ، وأوحى إليه أن يضرب برجله الأرض ، فضرب الأرض فتفجّر له منها الماء البارد، فأمره

أن يشرب منه ويغتسل ، فشفاه الله ، وعاد أكمل ما كان صحةً وقوة قال تعالى :

﴿وأيوبَ إذْ نادى ربّه أني مسّنيَ الضرّ وأنتَ أرحمُ الراحمينَ . فاستجبنا له فكشفنَا ما به من ضُرّ ، وآتيناه أهلَهُ ومثلهُمْ معهمْ رحمةً من عندِنَا وذِكْرَى للعابدينَ ..﴾ .

وقال تعالى : ﴿واذكُرْ عبدنَا أيوبَ إذْ نادَى ربّهُ أني مسّنيَ الشّيطَانُ بنُصْبٍ وعذَابٍ . أرْكُضْ برجْلِكِ هذا مغتسلٌ باردٌ وشرابٌ . ووهبنَا لهُ أهلَهُ ومثلهم معهم رحمةً منّا وذكرى لأولي الألبابِ، وخذْ بيدكَ ضِغثاً فاضربْ بهِ ولا تحنَثْ ، إنّا وجدناهُ صابراً نعمَ العبدُ إنّهُ أوّابٌ ..﴾ .

أمر الله أن يبر بيمينه بأن يضربها بحزمة من قضبان خفيفة فيها مئة عود ، أو يأخذ عِذْقاً من النخل فيه مائة شمراخ (عود) فيضربها بها ضربة واحدة ويبرّ في يمينه ولا يحنث ، وقد شرع الله ذلك رحمة عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ، وتحمّلها معه وقت الشدة والبلاء صنوف المحنة والابتلاء .

قال ابن كثير : « وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ولاسيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة ، المكابدة الصدّيقة ، البارة الراشدة ، رضي الله عنها ، ولهذا عقّب الله هذه الرخصة وعلّلها بقوله : ﴿إنّا وجدناهُ صابراً نعمَ العبدُ إنّهُ أوّابٌ ..﴾ .

ثم قال : وقد استعمل كثيرٌ من الفقهاء هذه الرخصة في باب الإيمان والنذور وتوسّع آخرون فيها حتى وضعوا الحيل في الخلاص من الأيمان ، وصدّروه بهذه الآية الكريمة وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب[1] .

وقد ذكر بعضهم أموراً لا يجوز اعتقادها بالنسبة لبلاء (أيوب عليه السلام) وهي منقولة عن اسرائيليات لم تصحّ منها : أنّ أيوب حين أشتدّ به المرض وطال به البلاء عافه الجليس ، وأوحش منه الأنيس ، وانقطع عنه الناس ، وتعفّن جسده حتى كان الدود يخرج منه ، فأخرج من البلد وألقيَ على مزبلة

(١) البداية والنهاية ج١ ص ٢٢٥ .

خارجها .. إلى غير ما هنالك من الحكايات المنقولة عن التوراة المحرفة أو هي من أقوال أهل الكتاب .. وهذا مما يتنافى مع منصب النبوة ، وقد قرّر علماء التوحيد أنّ الأنبياء منزّهون عن الأمراض المنفرة ، فكيف يتفق هذا القول مع منصب النبوة ؟ والصحيح أنّ المرض الذي ألَمّ بأيوب لم يكن مرضاً منفراً وليس فيه شيء من هذه الأقوال العليلة ، وإنما هو مرض طبيعيّ ولكنهُ استمرّ بهِ سنين عديدة تبلغُ سبعاً وقيل إنّ مرضه استمر ثماني عشر سنة ، وهو – بلا شك – أجلٌ طويل لا يصبر عليه عادة الإنسان ، ثم أنّ بلاءه لم يكن في جسده فحسب بل شمل المال والأهل والولد ولهذا قال تعالى ﴿ووهبنَا لهُ أهلهُ ومثلهمْ معهـم﴾ .

وقد عاش أيوب عليه السلام (٩٣) سنة ورزقه الله المال والبنين وقد ولد له ٢٦ ولداً ذكراً منهم واحد يسمى (بِشْراً) الذي يقول بعض المؤرخين إنه (ذو الكفل) الذي ذكره القرآن في ضمن الرسل الكرام وقد كانت رسالة أيوب إلى أمة الروم ولهذا يقولون إنه من أمة الروم ، وكان مقامه في دمشق وأطرافها على ما ذكره بعض المؤرخين .. .

١١ ـ ذوالكفل عليه السلام

﴿واذْكُرْ إسْمَاعيلَ واْليَسَعَ وَذَا الكِفْلِ ، وكُلٌ مِنَ الأخيارِ﴾ .

نسبه عليه السلام :

قال أهل التاريخ .ذو الكفل هو ابن أيوب عليه السلام ، الذي مرّ معنا ذكره ونسبه هو نسب أيوب عليه السلام واسمه في الأصل (بشر) وقد بعثه الله بعد أيوب وسمّاه (ذا الكفل) لأنه تكفّل ببعض الطاعات فوفّى بها ، وكان مقامه في الشام ، وأهل دمشق يتناقلون أنّ له قبراً في جبل هناك يشرف على دمشق يسمى (جبل قاسيون) .

يرى بعض العلماء أنه ليس بنبي وإنما هو رجل من الصالحين من بني إسرائيل وقد رجّح ابن كثير نبوّته لأن الله تعالى قرنه مع الأنبياء فقال جلّ وعلا في سورة الأنبياء :

﴿وإسماعيلَ وإدريسَ وذَا الكِفْلِ كلٌ من الصّابرين . وأدْخَلْنَاهُمْ في رحمتِنَا إنّهم مِنَ الصّالحينَ ..﴾ .

وقال في سورة (ص) بعد قصة أيوب :

﴿واذْكُرْ إسماعيلَ والْيَسَعَ وذَا الكِفْلِ وكلٌ مِنَ الأخيارِ ..﴾ .

قال ابن كثير : (فالظّاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي عليه من ربه الصلاة والسلام وهذا هو المشهور[1]

(١) البداية والنهاية ج١ ص ٢٢٧ .

والقرآن الكريم لم يزد على ذكر اسمه في عداد الأنبياء ، أمّا دعوته ورسالته والقوم الذين أرسِلَ إليهم فلم يتعرض لشيء من ذلك لا بالاجمال ولا بالتفصيل لذلك نمسكُ عن الخوض في موضوع دعوته حيث إنّ كثيراً من المؤرخين لم يوردوا عنه إلاّ النزر اليسير ، وممّا ينبغي التنبه له أنّ (ذا الكفل) الذي ذكره القرآن الكريم هو غير (الكفل) الذي ذُكِر في الحديث الشريف ، ونصّ الحديث كما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال :

(كان الكفل من بني اسرائيل لا يتورع عن ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها ، فلمّا قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت ، فقال لها ما يبكيك ؟ أكرهتُكِ ؟ قالت : لا ، ولكنْ هذا عمل لم أعمله قطّ وإنما حملتني عليه الحاجة .. قال : فتفعلينَ هذا ولم تفعليه قطّ ؟. ثمّ نزل فقال اذهبي بالدنانير لك ، ثمّ قال : والله لا يعصي اللهَ الكفلُ أبداً فمات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه : قد غفر الله للكفل) .

قال ابن كثير : ورواه الترمذي وقال : حديث حسن ، وروى موقوفاً على ابن عمر ، وفي إسناده نظر ، فإنْ كان محفوظاً فليس هو (ذا الكفل) وإنما لفظ الحديث (الكفل) من غير إضافة ، فهو إذاً رجلٌ آخر غير المذكور في القرآن[1] ...

ويذكر بعض المؤرخين أنّ (ذا الكفل) تكفّل لبني قومه أنْ يكفيهم أمرهم ، ويقضي بينهم بالعدل ، فسميّ ذا الكفل ، وذكروا بعض القصص في ذلك ، ولكنّها قصص تحتاج إلى تثبت ، وإلى تمحيص وتدقيق ، لذلك فقد ضربنا صفحاً عن ذكرها لأنّ في الروايات الصحيحة غنية عنها ، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

---

(١) المرجع السابق بالصفحة والجزء .

١٢ – هارون عليه السلام

﴿ثُمَّ بعثْنَا مِنْ بعدِهِمْ مُوسى وهارونَ إلى فرعونَ وملائِهِ بآياتِنَا فاستكبرُوا وكَانوا قوماً مُجرِمينَ ..﴾ .

نسبه عليه السلام :

هو (هارون بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن) عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام ، وهو شقيق موسى عليه السلام ، وقد بعثه الله رسولاً مع (موسى)معيناً له في دعوته ، وقد استجاب الله دعاء موسى حين طلب من ربه أن يجعل له هارون وزيراً ومعيناً في تبليغ الدعوة ﴿واجْعَلْ لي وزيراً مِنْ أهلي هارونَ أخي . أُشْدُدْ بهِ أزري . وأشْرِكْهُ في أمري ..﴾ فوهبَ له هارون وأعطاه النبوة رحمة منه جلّ وعلا كما قال تعالى : ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاهُ هارونَ نبيّاً ..﴾ .

حياته عليه السلام ودعوته :

ولد هارون عليه السلام قبل ولادة موسى بثلاث سنين ، وقد بعثه الله رسولاً إلى بني إسرائيل مع أخيه موسى عليه السلام ، وقد كان فصيح اللسان قويّ الجنان ، ولذلك أرسله الله مع أخيه ، ليكون له ردءاً ومعيناً في تبليغ الدعوة إلى فرعون الجبار كما قال تعالى حكاية عن موسى :

﴿وأخي هارونُ هو أفْصَحُ منّي لِسَاناً فأرْسِلْهُ معيَ رِدْءاً يصدّقْني

إني أخافُ أنْ يكذبونِ ..﴾ .

وإذا ذكرت دعوة موسى ذكرت دعوة هارون مقرونة بها ، فقد أرسلا إلى (فرعون وهامان وقارون) وكانا رسولين إلى بني إسرائيل ولكنّ (موسى) عليه السلام أعظم شأناً ، وأفضل منزلة من هارون ، فهو من كبار (أولي العزم) بينما هارون عليه السلام كبقية الرسل الكرام ، وقد بسط القرآن الكريم حياة موسى في ولادته ، ونشأته وفراره من مصر ، ودخوله أرض مدين ، وزواجه ابنة شيخ مدين ، وتكليم الله له في جانب الطور ، وتحميله الرسالة ، والمعجزات التي جرت في حياته ، وسائر الأحداث العظيمة التي وقعت لبني إسرائيل ، وقد ذكرنا طرفاً منها حين تحدثنا عن قصة (موسى الكليم) عليه السلام ضمن الرسل الخمسة من أولي العزم .. وفي كل هذه كان هارون عليه السلام مرافقاً لأخيه في الدعوة لم يفارقه في سفر ولا في حضر .

وحين ذهب موسى لمكالمة ربه عند جبل الطور ، ووعد موسى قومه أن يأتيهم بالتوراة لتكون دستوراً وشريعة لهم ، استخلف أخاه (هارون) على بني إسرائيل ، وأكد عليه الأمر بالنظر في مصالحهم ، وإصلاح شئونهم ، واليقظة في أمرهم خشية أن يفتنهم أحد عن دينهم كما قال تعالى :

﴿وقالَ موسى لأخيهِ هارونَ اخلُفْني في قَوْمي ، وأصْلِحْ ولا تتّبِعْ سبيلَ المُفْسِدينَ ..﴾ .

وقد كانت مدة غياب موسى عن قومه أربعين يوماً كما قصّ علينا القرآن الكريم ، وفي أثناء هذه الفترة كانت المحنة العظمى والابتلاء الكبير على شعب بني إسرائيل ، حيث عبدوا (العجل) في غياب موسى ، ذلك العجل الذي صنعه (السامريّ) من الذهب والحليّ ، وألقى عليه قبضة من تراب كان قد أخذها من أثر فرس جبريل حين نزل مع الملائكة لإغراق فرعون وجماعته ، وقد أصبح لهذا العجل صوت يشبه خوار البقر ، وزعم هذا الخبيث الضال أنّ هذا العجل هو الرب الذي بحث عنه موسى فلم يعرف مكانه ، وحذّرهم هارون فتنة ذلك المجرم العنيد ، ولكنهم لم يلتفتوا إلى كلامه وعبدوا العجل من دون

الله ، فلما رجع موسى ووجد قومه في هذه الفتنة العظيمة غضب غضباً شديداً على قومه ، وعلى أخيه وأخذ بلحيته ورأسه يجره إليه فأخبره هارون بما حدث لهم ، وبموقفه معهم وعدم انصياعهم لأوامره ، اقرأ قوله تعالى :

﴿ولمّا رجعَ موسى إلى قومِهِ غضبانَ أسِفاً قالَ بئسَمَا خلَفْتموني مِنْ بَعْدي أعجلتُمْ أمرَ ربّكُمْ ؟ وألْقى الألواحَ وأخذَ برأسِ أخيهِ يجرّهُ إليه ، قالَ ابنَ أمّ إنّ القومَ استضعفونيْ وكادُوا يَقتُلونَنيْ فلا تُشْمِتْ بيَ الأعداءَ ولا تَجْعلنيْ مع القومِ الظالمين ..﴾ .

وقد ذكرت القصة مفصلة في كتب التفسير والتاريخ فارجع إليها . وقد عاش هارون (١٢٢) سنة انتقل إلى جوار ربه قبل أخيه موسى بأحد عشر شهراً وكانت وفاته في أرض التيه قبل دخول بني إسرائيل أرض فلسطين رحمه الله وأسكنه فسيح جنته[١] .

---

(١) راجع تاريخ الطبري وتاريخ ابن كثير في تفصيل القصة .

١٣ - داود عليه السلام

﴿ولقَدْ فضّلْنَا بعضَ النّبيينَ على بَعْضٍ وآتينَا دَاوُدَ زَبُوراً ..﴾ .

ذكره في القرآن :

ورد اسم (داود) في القرآن الكريم في ستة عشر موضعاً ، في (البقرة ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والإسراء ، والأنبياء ، والنمل ، وسبأ ، وسورة ص) وهو من أنبياء بني إسرائيل الكرام ومن سبط (يهوذا بن يعقوب) وقد جمع الله تعالى له بين (النبوة والملك) وأعطاه خيرى الدنيا والآخرة فكان نبياً ملِكاً كما كان ولده سليمان عليه السلام .

نسبه عليه السلام :

هو (داود بن إيشا بن عويد .. من أولاد يهوذا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام) وقد ذكر أهل التوراة وأهل الإنجيل نسبه في كتبهم مفصّلاً وهم جميعاً متفقون على أنّه من سبط يهوذا بن يعقوب المسمى (إسرائيل) عليه السلام وهو أحد الرسل الذين نزلت عليهم الكتب السماوية بعد موسى عليه السلام ، وأعطاه الله الزبور كما قال تعالى : ﴿وآتَيْنا داودَ زبورا﴾

مكانة داود بين بني إسرائيل :

بعد وفاة موسى وهارون ، تولى أمر بني إسرائيل نبيّ من أنبيائهم يدعى (يوشع بن نون) عليه السلام فدخل بهم بلاد فلسطين (الأرض المقدّسة) التي

كانوا قد وعدوا بها على لسان موسى في التوراة ، وقسم لهم الأرضين ، وقام بأمرهم إلى وفاته ، ولمّا توفي (يوشع بن نون) تولى أمرهم قضاة منهم وبقوا على ذلك ٣٥٦ سنة ويسمى الحكم في هذه الفترة (حكم القضاة) .

وفي هذه الفترة دبّ إلى بني إسرائيل الوهن والضعف ، وفشت فيهم المعاصي والمنكرات ، وضيّعوا الشريعة ، ودخلت في صفوفهم الوثنية ، فسلّط الله عليهم الأمم القريبة منهم ، فغزاهم العمالقة ، والأراميون ، والفلسطينيون وغيرهم ، وكانوا إلى الخذلان أقرب منهم إلى النصر في كثير من حروبهم مع عدوهم .

قال ابن جرير في تاريخه : ثم مرج أمر بني إسرائيل ، وعظمت منهم الخطوب والخطايا ، وقتلوا من قتلوا من الأنبياء فسلّط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبّارين يظلمونهم ، ويسفكون دماءهم ، وسلّط عليهم الأعداء من غيرهم ، وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم (تابوت الميثاق) ويسميه أهل الكتاب (تابوت العهد) فيه ألواح موسى وعصاه ، وهو الذي أشارت الآية الكريمة إليه في قوله تعالى : ﴿وقال لهمْ نبيّهُم إنّ آيةَ مُلْكِهِ أنْ يأتيكُم التّابُوتُ فيهِ سَكِينةٌ منْ ربّكُمْ ، وبقيّةٌ ممّا تَركَ آلُ موسى وآلُ هارون ..﴾ الآية .

وقد كانوا ينصرون ببركته فلمّا كانوا في بعض حروبهم مع أهل (غزّة وعسقلان) غلبوهم على أخذه فانتزعوه من بين أيديهم ، ومات ملكهم كَمَداً وبقي بنو إسرائيل كالغنم بلا راع ، حتى بعث الله إليهم نبياً من الأنبياء يقال له (شمويل) وأهل الكتاب يقولون (صمويل) فطلبوا منه أن يقيم عليهم ملكاً منهم ليقاتلوا معه الأعداء فكان من أمرهم ما قصّ الله علينا في كتابه العزيز : ﴿ألمْ ترَ إلى الملأِ مِنْ بَنِيْ إسرائيلَ مِنْ بَعدِ موسى إذْ قالوا لنبيّ لهمْ ابْعثْ لنَا ملِكاً نقاتِلْ في سبيلِ اللهِ ، قال : هلْ عَسَيْتُمْ إنْ كُتِبَ عليكمُ القِتَالُ ألاّ تقَاتِلُوا ؟ قالُوا : وما لنَا ألاّ نُقَاتِلَ في سبيلِ اللهِ وقدْ

أخْرِجْنَا منْ دِيَارِنَا وأبنائِنا ، فلمّا كُتِبَ عليهمُ القِتَالُ تولّوْا إلاّ قليلاً منهُمْ ، واللهُ عليمٌ بالظّالِمينَ﴾ .

وقد جعل عليهم نبيهم (طالوت) ملكاً بوحي من الله فملّكه أمرهم لقوته (الجسمية والعلمية) ولكنّ بني إسرائيلَ تمردوا على توليه الملك وقالوا لنبيهم ﴿أنّى يكونُ لهُ المُلْكُ علينَا ونحنُ أحقّ بالمُلْكِ منهُ ، ولمْ يُؤْتَ سَعَةً منَ المالِ ؟ قالَ : إنّ اللهَ اصطفاهُ عليكُمْ وزادَهُ بَسْطَةً في العِلمِ والجسمِ﴾

أصبحَ (طالوت) ملكاً على بني إسرائيل ، وأيده الله على الملك بمجيء التابوت الذي كان قد نُزع منهم ، فاختار الجنود الأقوياء الأشداء ، وخرج بهم لقتال عدوهم ، وفي الطريق اختبرهم بعد أن اشتدّ بهم الظمأ في رحلة برية شاقة بالمرور على النهر فأمرهم ألا يشربوا منه إلاّ من أخذ جرعة من الماء ليبل بها ظمأهُ ، وكان ذلك اختباراً وامتحاناً من طالوت لجنوده في قوة بأسهم وإرادتهم قال تعالى :

﴿فلمّا فصل طالوتُ بالجنودِ قالَ إنّ اللهَ مبتليكُمْ بنَهَرٍ فمَنْ شَرِبَ منهُ فليسَ منّي ومَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فإنّهُ منّي إلاّ مَنْ اغترَفَ غُرْفَةً بيدهِ فشربوا منهُ إلاّ قليلاً منهُمْ ..﴾ .

لم يبق مع طالوت إلا عدد قليل يقدر بـ ٣١٩ وكان عددهم على ما يذكر السدّي ٨٠ ألفاً فرجعوا حيث إنّ إرادتهم كانت خوّارة فلم يصحبهم طالوت معه لقتال الاعداء وإنما اكتفى بهؤلاء القلة في قتال خصومه(الوثنيين)الفلسطينيين وكان رئيس جيش العدو يسمى (جالوت) وكان جبّاراً شديداً يهابه الناس ، فرهبه بنو إسرائيل وقالوا : ﴿لا طَاقَةَ لَنَا اليومَ بجَالُوتَ وجنودِهِ ، قالَ الذينَ يَظُنّون أنّهمْ مُلاقُوا اللهِ كَمْ مِنْ فِئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذنِ اللهِ ..﴾ .

كان (جالوت) يطلب المبارزة فتقدم إليه فتى صغير اسمه (داود) من

---

(١) انظر تاريخ الطبري .

سبط يهوذا ولم يكن في الحسبان أن يدخل مثله في المقاتلين لصغر سنّه ، فلمّا أقبل عليه احتقره وازدراه وقال له : ارجع فإني أكره قتلك فقال له ، داود : ولكني أحب قتلك ، ثم حصلت مبارزة بينهما فقتل (داود) جالوت وانهزم جيشه شر هزيمة وتم النصر لداود عليه السلام قال تعالى :

﴿فهَزَمُوهُمْ بإذن اللهِ وقَتَلَ داودُ جَالُوتَ ، وآتاهُ اللهُ المُلْكَ والحِكْمةَ ، وعلّمه ممّا يشاءُ ..﴾ .

منذ ذلك الحين لمع اسم (داود) بين شعب بني إسرائيل ، وتتابعت الانتصارات على يديه وأعزّ الله بني إسرائيل بعد أن كانوا في ذلٍ وهوان ، فاجتمع بنو إسرائيل بعد وفاة (طالوت) وبايعوا هذا الغلام الفتيّ على الملك ، فأصبح ملكاً عليهم ، وكان عمره لا يزيد على ٣٠ عاماً ، وقد حكم بين شعبه بالعدل ، وساسهم بالمساواة ، وطبّق عليهم أحكام التوراة ، إلى أن أوحى الله بالزبور ، أحد الكتب الأربعة السماوية .

رسالته ودعوته عليه السلام :

لمّا بلغ داود عليه السلام من العمر ٤٠ سنة آتاه الله النبوة مع الملك وأرسله رسولاً إلى بني إسرائيل ، وأنزل عليه الزبور فيه مواعظ وعبر ، ورقائق وأذكار ، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب .

وقد كان (داود) عليه السلام حسن الصوت ، جميل الانشاد ، حتى أصبح يضرب به المثل في حسن الصوت ، فيقال : أعطي مزماراً من مزامير داود ، وقد سمع رسول الله (ص) صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ القرآن – وكان حسن الصوت – فوقف يستمع لتلاوته فأعجب بصوته الجميل وتلاوته الرائعة فقال له : لقد أعطيتَ مزماراً من مزامير آل داود ، فقال يا رسول الله أكنتَ تستمع لقراءتي ؟ قال نعم ، قال لو علمت أنك تستمع لحبّرته لك تحبيراً) أيْ لجمّلت قراءتي وحسنّتها لك أكثر ..

كان داود عليه السلام إذا قرأ الزبور تكفّ الطير عن الطيران ، وتقف

على الأغصان والأشجار ، فترجّع بترجيعه ، وتسبّح بتسبيحه ، وكذلك الجبال تردّد معه في العشيّ والإبكار ، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله فيعكف الجن والإنس والطير على صوته حتى يهلك بعضها جوعاً [1] فهو يصدح بصوته العذب الجميل بتسبيح الله وتحميده ، ويتغنى فيه بكلام الله في الزبور فتسبح معه الجبال والطير قال تعالى :

﴿ إنّا سخّرنَا الجبالَ معهُ يسبّحْنَ بالعَشيّ والإشْرَاقِ ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ ولقدْ آتينَا داودَ مِنّا فَضْلاً يا جبالُ أوّبي معهُ والطّيْرَ ﴾

وكان مع ذلك الصوت الرخيم سريع القراءة للزبور ، مع التدبر والترنم والتغني به على وجه التخشع فقد جاء في الحديث الشريف : (خُفّف على داود القرآنُ فكان يأمر بدوابه فتسرح (أي يوضع على ظهرها السرج للركوب) فيقرأ القرآن قبل أن تُسْرج دوابه ، وكان لا يأكل إلاّ من عمل يديه) [2] وقد كان داود عليه السلام مع هذه العظمة والمللك والجاه كثير العبادة لله سبحانه وتعالى ، كان يقوم الليل ويصوم النهار ويقضي جزءاً كبيراً من يومه في مسجده ومصلاّه ، فكان ذا قوة في العبادة والطاعة وعمل الصالحات كما قال تعالى : ﴿ واذكُرْ عبدَنَا داودَ ذَا الأيْدِ إنّه أوّابٌ .. ﴾ .

قال ابن عباس : الأيْد القوة في الطاعة والعبادة ، وفي الصحيحين (أحبّ الصلاة إلى الله صلاة داودَ ، وأحبّ الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصفَ الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكاز يصوم يوماً ويفطر يوماً ..) .

المزايا التي خصّ الله بها داود عليه السلام :

١ - تسخير الجبال معه يسبّحن بكرة وعشياً : ﴿ إنّا سخّرنَا الجبالَ معهُ يسبّحنَ بالعَشِيّ والإشْرَاقِ ﴾ .

---

(١) البداية والنهاية ج٢ ص ١١ .
(٢) رواه البخاري وأحمد .

٢ ــ ترجيع الطير معه كلمّا قرأ الزبور : ﴿والطيرَ محشورةً كلٌ له أوّابٌ .. ﴾ .
٣ ــ تعليمه منطق الطير : ﴿ عُلِّمنَا منطِقَ الطّيْرِ .. ﴾ .
٤ ــ إلانة الحديد له فكان بين يديه كالعجين : ﴿ وألنّا له الحديد .. ﴾ .
٥ ــ علّمه الله صناعة الدروع لدرء خطر الحرب : ﴿ وعلّمناه صنعةَ لَبُوسٍ لكم لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بأسِكُمْ .. ﴾ .
٦ ــ قوىّ الله ملكه وجعله منصوراً على أعدائه مهاباً في قومه : ﴿ وشَدَدْنا مُلْكَهُ .. ﴾ .
٧ ــ آتاه الله الحكمة (النبوة) وفصل الخطاب (تمييز الحق عن الباطل) ﴿وآتيناهُ الحِكمةَ وفَصْلَ الخِطَابِ ..﴾ .

فرية عظيمة على داود :

وقع بعض المفسّرين في خطأ فاحش ، حين نقلوا بعد القصص الإسرائيلية في تفاسيرهم ، اعتماداً على ما جاء عند أهل الكتاب ، مما لم يصح سنده ، ولا يجوز اعتماده ، لأنه من ضلالات أهل الكتاب ، ولأنه يتنافى مع عقيدة المسلمين في (عصمة الأنبياء) من هذه الأباطيل المدسوسة ما روى عن داود عليه السلام من أمر عشقه لزوجة قائد جنده وخلاصتها : أن داود كان يمشي على سطح داره فنظر إلى امرأة تستحمّ فأعجبته وأغرم بها ، وكانت زوجة أحد قواده في المعارك وهو (أوربا) فأراد أن يتخلصَ منه ليتزوج بها فأرسله في أحد الحروب وحمّله الراية وأمره بالتقدم ، وكان قد أوعز إلى الجنود أن يتأخروا عنه إذا تقدم نحو الأعداء ، وبهذه الوسيلة قتل الرجل وتزوج داود بتلك المرأة التي عشقها ، ويدّعي أهل الكتاب أن داود عاشرها في غياب زوجها (أي زنى بها) ثم دبر تلك المكيدة ليتخلص منه ، وأنّ سليمان جاء من تلك المرأة العشيقة إلى آخر ما هنالك من زور وضلال وبهتان ، على هذا النبي الكريم ، وهذه قصة مفتراة على داود ، ومن يقرأ في كتب أهل الكتاب يجد فيها الشيء

الكثير من نسبة الكبائر إلى أنبيائهم وقدّيسيهم، يلفّقونها ليبرروا لأنفسهم ارتكاب الآثام، والوقوع في الكبائر.

قال ابن كثير: وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليات، ومنها ما هو مكذوب لا محالة، تركنا إيرادها في كتابنا قصداً اكتفاء بمجرد تلاوة القصة من القرآن الكريم، والله يهدي من يشاء إلى صراط المستقيم.

وقال البيضاوي: وما قيل إنّه أرسل (أوربا) مراراً إلى الحرب، وأمر أن يتقدم حتى قتل فتزوجها داود هزوٌ وافتراء، ولذلك قال (علي) رضي الله عنه: (من حدّث بحديث داود على ما يرويه القُصّاص جلدته مأة وستين جلدة[1] وهذه عقوبة حد القذف مغلّظة لأنها في حق نبي من الأنبياء. أما القصة التي ذكرها القرآن الكريم فليس فيها ما يقدح بعصمة داود، وليس فيها شيء من هذا الشطط والبهتان الذي زعمه أهل الكتاب، وأخذه عنهم بعض المفسرين بدون تثبت ولا تحقيق، وسنورد الآية الكريمة التي زلّ فيها بعض الناس، ونبيّن معناها على الوجه الذي ذكره المحققون من المفسرين.

قال تعالى في سورة (ص):

﴿وهلْ أتاكَ نبأُ الخَصْمِ إذْ تَسَوَّرُوا المِحرابَ. إذْ دَخَلُوا على داوُدَ فَفَزِعَ منهُمْ قالُوا: لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغَى بعضُنَا على بعضٍ فاحكُمْ بينَنَا بالحَقِّ ولا تُشْطِطْ واهْدِنَا إلى سَوَاءِ الصِّرَاطِ. إنَّ هذا أخي لهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ نعجَةً وليَ نعجَةٌ واحدةٌ فقالَ أكفِلْنيهَا وعَزَّني في الخطاب، قالَ لقدْ ظَلَمَكَ بسُؤالِ نعجتِكَ إلى نِعَاجِهِ وإنَّ كثيراً مِنَ الخُلَطَاءِ ليبْغِي بعضُهُمْ على بعْضٍ إلاّ الذينَ آمنُوا وعمِلُوا الصّالِحَاتِ وقليلٌ ما همْ، وظَنَّ داودُ أنما فتنّاهُ فاستغفر ربّهُ وخَرَّ راكِعاً وأنابَ..﴾.

---

(١) انظر تفسير البيضاوي.

وتفصيل القصة على ما ذكر المحققون : أنّ داود عليه السلام جزّأ أزمانه يوماً للعبادة ، ويوماً للقضاء ، ويوماً للوعظ والارشاد ويوماً لخاصة نفسه فتسوّر عليه ملائكة في صورة البشر في يوم الخلوة والاحتجاب – وكان الحرس على الباب لا يتركون من يدخل عليه – فلم يشعر داود إلاّ وأمامه بعض الأشخاص ففزع منهم فقالوا له : لا تخف نحن فوجان مختصمان (بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تُشْطِطْ ..) .

أي لا تجر ولا تظلم في الحكم (واهدنا إلى سواء الصراط ..) والمراد عين الحق وهو العدل ﴿إنّ هذا أخي له تسعٌ وتسعونَ نعجة ..﴾ وهي الأنثى من الضأن وقد يكنّى بها عن المرأة فيكوَن الغرض أن عنده تسعاً وتسعين امرأة ﴿ولي نعجةٌ واحدةٌ فقالَ أكْفلنيها..﴾ أي ملكنيها ﴿ وعزّني في الخطاب..﴾ أي غلبني في الخصومة فأجابه داود بقوله : ﴿لقد ظلمَك بسؤالِ نعجتكَ إلى نعاجِه .. ﴾وفي ذلك استنكار لفعل خليطه وتهجين لطعمه حيث أراد أن يتنازل له صاحبه عن نعجته وعنده تسع وتسعون..﴿ وظنّ داودُ أنما فتنّاهُ .. ﴾أي علم وأيقن أنما ابتليناه﴿ فاستغفرَ ربهُ وخرّ راكعاً وأناب..﴾ أي رجع إلى الله بالتوبة والانابة ولعل داود رأى أنه اسرع بالحكم قبل سؤال المدّعي عليه وأنه تجاوز الحق إذ لا يجوز له أن يحكم قبل أن يسمع كلام الخصمين . هذه خلاصة القصة وليس فيها ما يزيد على أنّ (داود) استغفر ربه من شيء وقع منه ولعلّه أرادةُ الفتكِ لمن تسوّروا عليه المحراب حيث ظن بهم الشرّ والسوء فأراد قتلهم ثمّ سمع كلامهم فاستغفر ربه ممّا ظن بهم من سوء وليس في القصة شيء مما ذكروا في الافتراء والبهتان فأين فيها الحب والغرام لزوجة قائده ؟ وأين فيها تدبير المؤامرات لاختطافها منه بعد تعريضه للقتل في الحرب ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم ..

ولسنا نعجب من افتراء أهل الكتاب على رسلهم وانبيائهم ، ولكننا نعجب من اغترار بعض علماء المسلمين بمثل هذه المفتريات والحكايات الاسرائيلية على الأنبياء والمرسلين ، حتى ينقلوها في كتبهم ويرووها على أنها من قصص القرآن

فهل تليق هذه الأساطير بمقام نبي الله الكريم (داود) عليه السلام الذي قال عنه القرآن: ﴿ نعمَ العبدُ إنهُ أوّابٌ ..﴾ وقال عنه: ﴿وإنّ لهُ عندَنا لزُلْفَى وحُسْنَ مآب ..﴾ وقال أيضاً : ﴿وآتيناهُ الحكمةَ وفصل الخطاب ..﴾ ؟

والأغرب من هذا أن نجد في التوراة أمثال هذا الخبر المفترى ، الواضح البطلان في شأن داود عليه السلام ، فقد ورد في التوراة ما يلي : (وكان داود يدخل المعابد الوثنية فيقيم فيها الطقوس الدينية إرضاء لرغبات زوجاته الوثنيات) أقول : ينبغي على العلماء التثبت في نقل الأخبار ، وخاصة ما ذكر في كتب أهل الكتاب من قصص إسرائيلية ، فإنّه مما لا شكّ فيه أنّ الكتب السماوية قد دخل إليها التحريف والتبديل . وكل ما خالف العقيدة الإسلامية الصافية فهو باطل مردود .

وفاة داود عليه السلام :

يقول أهل الكتاب إنّ (داود) عاش سبعاً وسبعين سنة ثم توفاه الله تعالى وقد ردّ هذا القول ابن جرير وقال إنه غلط ، وقال إنه عاش مائة سنة وذلك للحديث الذي رواه أحمد (إنّ آدم عليه السلام لما استخرج ذريته من ظهره رأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ، ورأى فيهم رجلاً يزهر ، فقال أيْ ربّ من هذا ؟ قال هذا ابنك داود ، قال أيْ ربّ كم عمره ؟ قال ستون عاماً قال أيْ ربّ زد في عمره ، قال لا ، إلا أن أزيده من عمرك — وكان عمر آدم ألف عام — فزاده أربعين عاماً ، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت ، فقال بقي من عمري أربعون سنة ، ونسي آدم ما كان وهبه لولده داود فأتمها الله لآدم ألف سنة ، ولداود مائة سنة [1] وقد دام ملكه ٤٠ سنة رحمه الله تعالى .

(١) انظر البداية والنهاية ج٢ ص ٤٦ .

١٤ – سليمان عليه السلام

﴿وحُشِرَ لسُليمَانَ جنودُهُ من الجنّ والإنْسِ والطّيْرِ فهم يُوزَعُوْنَ﴾

ذكره في القرآن :

ذكر اسم سليمان عليه السلام في القرآن الكريم في ست عشرة آية ، في البقرة ، والنساء ، والأنعام ، والأنبياء ، والنمل ، وسبأ ، وفي سورة (ص) وهو أحد أنبياء بني إسرائيل ، وقد رزقه الله (النبوة والملك) وجمع له بينهما كما جمعهما لوالده (داود) علية السلام ، وكان ملكه واسعاً وسلطانه عظيماً ، لم يدانه أحد في تلك الرتبة والمنزلة ، فقد استجاب الله دعاءه وأعطاه ملكاً عظيماً لم يعطه لأحد بعده كما قال تعالى حكاية عنه :

﴿قالَ ربّ اغفِرْ لي وهبْ لي مُلْكاً لا ينْبَغي لأحدٍ من بَعْدي ، إنّك أنتَ الوهّابُ . فسخّرنَا لهُ الريحَ تجري بأمرهِ رُخَاءً حيثُ أصابَ . والشّياطينَ كلّ بنّاءٍ وغوّاصٍ وآخرينَ مقرّنينَ في الأصفَادِ هذا عطاؤنا فأمنُنْ أو أمْسِكْ بغيرِ حسابٍ ..﴾ .

نسبه عليه السلام :

هو سليمان بن داود بن إيشا بن عويد ... من سبط (يهوذا بن يعقوب) وينتهي نسبه إلى إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وأهل الكتاب يذكرون نسبه مطولاً ، ويقولون إنه كان عظيم الحكمة ، ولذلك يسمونه

(سليمان الحكيم) ولا يلقبونه بالنبيّ أصلاً [1].

حكمة سليمان عليه السلام :

أوصى داود عليه السلام بالملك لولده سليمان ، ولما مات داود ورثه سليمان في الملك وكان عمره حينئذ (١٢) سنة ويروي ابن الأثير في الكامل : أن عمره كان ثلاث عشرة سنة ، وقد كان مع حداثة سنة من ذوي الفطانة والذكاء ، وحسن التدبير والسياسة ، وقد أعطاه الله الحكمة وحسن القضاء منذ الصغر ، وقد ذكر القرآن الكريم طرفاً من ذلك النبوغ والذكاء الذي كان عند سليمان وذلك في الفتوى التي عرضت على أبيه ، فأفتى فيها (داود) بوجه وأفتى فيها (سليمان) بوجه آخر ، كان أضمن للحق وأقرب للصواب كما قال تعالى :

﴿وداوُدَ وسُليمانَ إذ يَحْكُمانِ في الحَرْثِ ، إذْ نَفَشَتْ فيهِ غنمُ القومِ وكُنّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدينَ . ففهّمناهَا سليمانَ وكُلاً آتينا حُكْماً وعِلْماً ..﴾ الآية فقوله تعالى : (ففهمناها سليمان) يدل على أنّ ما أفتى به سليمان كان أقرب للصواب وقوله (وكلاً آتينا حكماً وعلماً) يدل على أنّ داود وسليمان كانا على جانب عظيم من الحكمة والعلم .

وتفصيل القصة ذكرها المفسرون : أن زرعاً دخلت فيه غنم لقوم ليلاً فأكلته وأفسدته ، فجاء المتخاصمون إلى داود وعنده سليمان ، وقصّوا عليه القصة فحكم داود بالغنم لصاحب الزرع عوضاً عن حرثه الذي أتلفته الغنم ليلاً فقال سليمان — وهو ابن إحدى عشرة سنة — غير هذا أرفق ، تدفع الغنم إلى أهل الحرث فينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها وتدفع الحرث إلى أهل الغنم يقومون بإصلاحه حتى يعود كما كان ، ثمّ يترادّان بعد ذلك فيعود لأهل الغنم غنمهم ، ولأهل الحرث حرثهم .

ومما يدل على حكمة سليمان ، وجودة رأيه في الحكم والقتضاء ، ما روي

---

(١) انظر قصص القرآن للنجار ص ٣١٨ .

في الصحيحين عن رسول الله (ص) أنه قال : (بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما ، فتنازعتا في الآخر فقالت الكبرى : إنما ذهب بابنك ، وقالت الصغرى بل إنما ذهب بابنك ، فتحاكمتا إلى داود فحكم به للكبرى ، فخرجتا على سليمان فقال : ائتوني بسكين أشقّه بينكما نصفين لكل واحدة منكما نصفه ، فقالت الصغرى لا تفعل يرحمكَ الله هو ابنها فقضى به لها[1]..) وهذه الحادثة تدل على اسلوب بارع في معرفة الحق ، واستخراجه بطريق الحيلة ، فداود عليه السلام حكم به للكبرى لأنها كانت أقوى بالحجة من الصغرى ، ويظهر أنها استطاعت ببعض القرائن أن تثبت الحق لطرفها ، وأما سليمان عليه السلام فقد سلك طريقة بديعة لمعرفة صاحب الحق فحينما عرضتا عليه أمرهما قال : أعطوني السكين أشقه بينهما نصفين ، فسكتت الكبرى عن غفلة وبلاهة ، واندفعت الصغرى بعاطفة الأمومة وحنانها تقول : لا تفعل يرحمك الله هو ابنها ظناً منها أنه سينفذ الحكم في ولدها فعرف أنه ابنها بسبب شفقتها عليه فحكم به للصغرى .

بناؤه لبيت المقدس :

قام (سليمان بن داود) بعمارة بيت المقدس ، تنفيذاً لوصية أبيه داود عليه السلام بعد أربع سنين من توليه الملك ، وأنفق في ذلك أموالاً كثيرة ، وانتهى من بنائه بعد سبع سنين وأقام السور حول مدينة (أورشليم) أي مدينة القدس . وقد روى أنّ سليمان لمّا بنى بيت المقدس ، سأل ربه عز وجل خلالاً ثلاثة فأعطاه اثنتين : (سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إيّاه ، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إيّاه ، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلاّ الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه[2] .

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) رواه أحمد والنسائي .

قال ابن كثير : بعد أن أورد تلك الرواية فنحن نرجو أن تكون الثالثة لنا وأنّ الله قد أعطانا إياها .

ولما انتهى من بناء بيت المقدس بنى (الهيكل) أي القصر الملكي قال المؤرخون : وقد أتمّ بناءه في مدة ثلاث عشرة سنة وأنشأ مذبح القربان ، وكان له اهتمام عظيم بالإصلاح والعمران . وكان له اسطول بحريّ ، قالوا : وكانت السفن تجلب اه من الهند الذهب والفضة والبضائع ، وكانت له عناية فائقة بالخيل يروّضها ويعدّها للحرب ، وكانت له مجموعة كبيرة من النساء الحرائر والسراري حيث لم يكن في شريعته تحديد لعدد الزوجات ، روى عن النبي ﷺ أنه قال : (قال سليمان بن داود لأطوفنّ الليلة على مائة امرأة ، تلد كلّ واحدة منهنّ غلاماً يقاتل في سبيل الله — ولم يقل إن شاء الله — فما ولدت إلاّ واحدة منهن بشق إنسان ، فقال رسول الله : لو قال إن شاء الله لولدت كلّ امرأة منهنّ غلاماً يقاتل في سبيل الله عز وجل [1] .

نعم الله على سليمان :

أكرم الله سبحانه (سليمان بن داود) بنعم عظيمة ، وخصه بمزايا رائعة كانت عنواناً للعظمة والمجد ، ومظهراً من مظاهر الملك العظيم ، والجاه الكبير الذي أعطاه الله لسليمان عليه السلام ، فكان له سيادة الدنيا ، وعزة الآخرة . وهذه بعض نعم الله تعالى على سليمان :

أولاً : ورّثه الله الملك عن أبيه كما أعطاه الله النبوة . فكان نبياً ملكاً جمع بين الشرفين ، قال تعالى : ﴿ووَرِثَ سليمانُ داودَ﴾ الآية . قال ابن كثير : أي ورثه في النبوة والملك ، وليس المراد ورثه في المال لأنه كان له بنون غيره ، وفي الحديث الشريف (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة) فأخبر الصادق والمصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم بل تكون أموالهم صدقة

---

(١) رواه البخاري وأحمد بلفظ متقارب .

على الفقراء[1] .

ثانياً : علّمه الله منطق الطير ، وسائر لغات الحيوانات ، فكان يفهم عنها ما لا يفهمه سائر الناس ، وربما تحدّث معها كما كان الأمر مع الهدهد أو النمل أو غيرها . روى ابن عساكر قال : مرّ سليمان بعصفور يدور حول عصفورة فقال لأصحابه أتدرون ما يقول ؟ قالوا وما يقول يا نبيّ الله : قال يخطبها إلى نفسه ويقول زوجيني أسكنك أيّ غرف دمشق شئت ، قال سليمان وغرف دمشق مبنية بالصخر لا يسكنها أحد ولكن كل خاطب كاذب[2] .

قال تعالى ﴿ووَرِثَ سليمانُ داودَ وقالَ يا أيّها الناسُ علِّمنا منطِقَ الطيرِ ، وأوتينا منْ كلّ شيء ، إنّ هذا لهوَ الفضلُ المبينُ .. ﴾. وقال تعالى : ﴿حتّى إذا أتَوْا على وادي النّمْلِ قالتْ نملةٌ يا أيّها النملُ ادخُلُوا مساكِنَكُم لا يحطِمَنّكُمْ سليمانُ وجنودُهُ وهمْ لا يشعرونَ ، فتبسّمَ ضاحِكاً من قولها ..﴾ الآية .

ثالثاً : إنّ الله تعالى آتاه الحكمة على حداثة سنه ، ويشهد لذلك ما أوردنا من بعض القصص التي حكم فيها بحكم أقرّه القرآن الكريم عليه : ﴿ففهمناها سليمان﴾ وبما حصل له في قصة الذئب الذي عدا على ولد احدى المرأتين كما مرّ سابقاً .

رابعاً : سخّر الله تعالى له (الريح) فكانت تنقله إلى أيّ أطراف الدنيا شاء ، وتقطع به المسافات الشاسعة البعيدة في ساعات معدودات ، كما قال تعالى ﴿ولسليمانَ الريحَ غدوّها شهرٌ ورواحُها شهرٌ ..﴾ والمعنى أنها تقطع به من الصباح إلى الظهر مسيرة شهر ، ومن الظهر إلى المساء مسيرة شهر ، فتقطع به في النهار الواحد مسيرة شهرين . قال الحسن البصري : (كان يغدو من دمشق فينزل باصطخر فيتغدى بها ، ويذهب رائحاً منها فيبيت بكابل وبين دمشق

(١) البداية والنهاية ج٢ ص ١٨ .

(٢) البداية والنهاية ج٢ ص ١٩ .

واصطخر مسيرة شهر وبين اصطخر وكابل مسيرة شهر) .

وذكر ابن كثير أنه كان له بساط تحمله الريح فيه الدور المبنية والخيام والأمتعة والخيول والجمال والرجال وغير ذلك من الحيوانات والطيور .فإذا أراد سفراً حملته الريح) .

اقول : ليس هذا بغريب ولا عجيب على قدرة الله تعالى ، فالانسان الذي يقطع الآن بالطائرة النفاثة أقاصي المعمورة ، وينتقل من بلد إلى آخر في سويعات معدودات قد سخّره الله تعالى لنبيه الكريم (سليمان) بواسطة الريح ، وهذا التسخير من المعجزات التي اختص بها سليمان عليه السلام .

وقد أنكر الشيخ النجار في كتابه (قصص الأنبياء) موضوع البساط ، ولا محل لهذا الإنكار لأن قدرة الله تصنع العجائب ، ونحن نؤمن بما أثبته القرآن من أنّ الريح تقطع به المسافات البعيدة ، ولكن كيف كانت الريح تحمله هل تحمل به القصر ؟ أم تحمل به الخيل ؟ أم تحمل البساط ؟ نترك علم ذلك إلى الله تعالى ونكتفي بما حدّث عنه القرآن . قال تعالى :﴿ ولسليمانَ الريحَ عاصفةً تجري بأمرهِ إلى الأرضِ التي باركْنَا فيهَا ، وكنّا بكلّ شيء عالمينَ .. ﴾.

ونحن مع الشيخ نقرّ بالمعجزات والعجائب ، ولكن لا نبذّر فيها ولا نسرف ولعلّ الذي دعاه إلى انكار ذلك تلك الصورة الغريبة العجيبة التي ذكرها بعض أهل القصص أو المبالغة التي اعتمد عليها بعض أهل التفسير ، في ذكر أوصاف البساط .

خامساً : سخّر الله تعالى له الجنّ ومردة الشياطين ، يغوصون له في البحار لاستخراج الجواهر واللآلىء ، ويعملون له الأعمال التي يعجز عنها البشر ، كبناء الصروح الضخمة ، والقصور العالية ، والقدور الراسيات ، والجفان التي تشبه الأحواض كما قال تعالى :

﴿ومن الجنِّ منْ يعملُ بينَ يديهِ بإذنِ ربّهِ ، ومَنْ يزِغْ منهُمْ عنْ أمرِنَا نذقْهُ من عذابِ السّعيرِ . يعملونَ لهُ ما يشاءُ منْ محاريبَ ، وتماثيلَ

وجِفَانٍ كالجَوابِ ، وقدورٍ راسياتٍ ، اعمَلُوا آل داودَ شكراً وقليلٌ منْ عباديَ الشّكُورُ ..﴾ .

كما جعل الله له سلطة على جميع الشياطين ، يسخّر من يشاء منهم في الأعمال الشاقة ، ويقيّد من يشاء في الأغلال ليكف شرّهم عن الناس كما قال تعالى : ﴿والشياطينَ كلَّ بنّاءٍ وغوّاصٍ ، وآخرينَ مقرّنينَ في الأصْفَادِ ..﴾ أي الأغلال .

ولم يكن هذا التسخير لأحد من الأنبياء غير (سليمان) عليه السلام ، وذلك غاية العظمة ، ونهاية الملك والسلطان لملوك الدنيا ، فلم ينل أحد من الملوك ما ناله نبيّ الله سليمان عليه السلام ، روى الإمام البخاري في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنّ عفريتاً من الجن تفلّت علي البارحة ليقطع علي صلاتي فأمكنني اللهُ منه فأخذتُه فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخي سليمان : ﴿ربّ اغفرْ لي وهبْ لي مُلْكاً لا ينبغيْ لأحدٍ مِنْ بعدِي﴾ فرددْتُه خاسئاً .

سادساً : أسال الله له عين القطر (وهو النحاس المذاب) فكان النحاس يتدفق له مذاباً من عين خاصة كتدفق الماء فيصنع منه ما شاء قال تعالى : ﴿وَأسَلْنا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ﴾ وهذه من خصوصيات سليمان عليه السلام كما ألان الله تعالى لأبيه الحديد .. ﴿وألنّا لهُ الحديدَ﴾ فكان بين يديه كالعجين يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة ، وقد قال ابن عباس في تفسير (القطر) بأنه النحاس وكانت باليمن أنبعها الله له فكان يأخذ منها ما يحتاج إليه للبنايات وغيرها [١] ، ويقول بعض العلماء : ولعلّ ذلك كان في أرض بركانية .

سابعاً : كان جنده مؤلفاً من (الإنس والجن والطير) وقد نظّم لهم أعمالهم ورتّب لهم شئونهم ، فإذا خرج خرجوا معه في موكبٍ حافل ، يحيط به الجند والخدم من كل جانب ، فالإنس والجن يسيرون معه ، والطير تظلّله بأجنحتها

---

(١) انظر البداية والنهاية ج٢ ص ٢٨ .

من الحر ، وعلى كل من هذه الجيوش نقباء ورؤساء يسيرون في عرض رائع ، وموكب ملكي حافل ، لم ترَ العينُ مثله ، وقد قصّ علينا القرآن الكريم قصته عندما خرج بجنده فمرّ على واد النمل ، فتكلمت نملة مع رفيقاتها ، وفهم سليمان كلامها واعتذارها فتبسّم ضاحكاً من قولها وشكر الله على نعمه العظيمة التي أغدقها عليه ، وطلب من ربه أن يرزقه الشكر على هذه النعم إقرأ قوله تعالى :

﴿ وَحُشِرَ لسُليمَانَ جنودُهُ منَ الجنِّ والإنسِ والطّيرِ فهم يُوزَعُونَ حتى إذا أتَوْا على وادِي النّمْلِ قالتْ يا أيّها النّملُ ادخلُوا مساكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنّكُمْ سليمانُ وجنودُهُ وهمْ لا يشعرونَ . فتبسّمَ ضاحكاً منْ قولِهَا وقالَ ربّ أوزعني أنْ أشكرَ نعمتكَ التي أنعمْتَ عليّ وعلى والديّ وأنْ أعملَ صالحاً ترضاهُ ، وأدْخِلني برحمتِكَ في عبادكَ الصالحينَ .. ﴾ .

قال ابن كثير : وفي هذا السياق ، دليل على أنه كان في موكبه راكباً في خيوله وفرسانه ، لا – كما زعم بعضهم – من أنه إذْ ذاك على البساط ، لأنه لو كان كذلك لم ينل النمل منه شيء ولا وطء ، لأنّ البساط كان عليه جميع ما يحتاجون إليه من الجيوش والخيول والجمال والأثقال والخيام ، والطيرُ من فوق ذلك كله كما سنبيّنُه إن شاء الله[1] .

والمقصود أنّ سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة أسراب النمل حين أمرتهم بالدخول إلى مساكنهم ، لئلا يتحطموا تحت وطأة الأقدام ، ثم اعتذرت عن سليمان وجنده بذلك الاعتذار اللطيف ، الذي يدل على فهم وإدراك منها لنفسية سليمان الكريمة ، ولجنده الأوفياء الأبرار ﴿ لا يَحْطِمَنّكُم سليمانُ وجنودُه وهمْ لا يشعرونَ ﴾ أفليس هذا دليلا على أدب هذه النملة ، وتمييزها بين الأشرار والأبرار ؟

وروي عن السدّي أنه قال (أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام ، فأمر الناس فخرجوا للاستسقاء ، فإذا بنملة قائمة على رجليها ، باسطة

---

(١) انظر البداية والنهاية ج٢ ص ١٩ .

يديها وهي تقول : (اللهمّ إنّا خلقٌ من خلقك ، ولا غنى لنا عن فضلك ..) فقال ارجعوا فقد سقيتم من أجل هذه النملة .

قصة سليمان مع بلقيس ملكة سبأ :

قصّ علينا القرآن الكريم قصة سليمان مع ملكة سبأ ، وهي قصة رائعة فيها مغزى دقيق للملوك والعظماء وفيها بيان لسعة ملك سليمان حيث امتدّ من بيت المقدس ، إلى أقاصي اليمن ، ودانت له الملوك والأمراء ، وقد اتخذ الملك وسيلة للدعوة إلى الإسلام فلم يترك ملكاً كافراً ، ولا حاكماً جائراً ، ولا سلطاناً ذا بأس وقوة إلاّ ودعاه إلى الدخول في دين الله ، فمن لم يجبه كان السيف هو الحكم الفصل ، وهكذا انتشر دينه في أقطار المعمورة وعمّ أرجاء الدنيا .

ذكرنا أنّ جنده كانوا — من الإنس والجنّ والطير ، كل له عمل يقوم به — وكان الجميع يحضرون لديه كما هي حالة الجنود مع الملوك ، وكانت وظيفة الهدهد — على ما ذكره ابن عباس — البحث عن الماء في القفار في حالة الأسفار فيجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء ؟

وتفقد سليمان الطير يوماً فلم يجد (الهدهد) فعدّ ذلك جريمة اقترفها وتهدده بالذبح أو التعذيب إلاّ إذا أتاه بعذر مقبول عن سبب هذا التخلف ، فلمّا جاء (الهدهد) سأله عن غيبته فأخبره أنه كان في اليمن في بلدة سبأ ، وهناك ملكة تسمى (بلقيس) قد ملكت على تلك الأمة ، ولملكتهم عرش عظيم فيه أنواع الزينة والجواهر ، وأنها وقومها جماعة وثنيون يعبدون الشمس ويسجدون لها من دون الله وأخذ يقص عليه نبأ تلك المملكة العظيمة وما فيها من الأقوام الوثنيين الكافرين بالله .

تعجّب سليمان من هذا الخبر ، كيف يكون في الدنيا من يعبد غير الله ؟ وأراد أن يختبر الهدهد هل هو صادق في خبره أم كاذب ؟ فأعطاه كتاباً ليوصله إلى الملكة ، فذهب (الهدهد) بالكتاب إلى اليمن وألقاه على سريرها ، وكان

فيه الدعوة إلى طاعة الله وطاعة رسوله ، والانابة والاذعان إلى الخضوع لملكه وسلطانه .

أخذت الملكة الكتاب وفتحته فإذا به : ﴿ إنّهُ من سُليمانَ وإنّهُ بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم . ألاّ تعلُوا عليّ وأتُوني مُسْلِمينَ ﴾.

لم ترد الملكة أن تستبدّ بالإجابة على هذا الكتاب ، فجمعت رجال دولتها وأهل مشورتها الوزراء والأعوان وأطلعتهم على هذا الكتاب وما فيه من الخطاب الشديد ، فأخذتهم العزّة بالاثم ، وثارت فيهم الحماسة ، وقالوا لها : ﴿نحنُ أولُوا قُوّةٍ وأولُوْا بأسٍ شديدٍ ،والأمرُ إليكِ فانظريْ ماذا تأمرينَ ؟ ﴾ كانت الملكة (بلقيس) ذكية عاقلة ، فنظرت في الأمر بعين الفطنة — ولم تغترّ بما أبداه رجالها من القوة والحماسة — وقالت لهم إنّ دخول الملوك إلى المدن ليس بالأمر اليسير السهل ، بل هو خراب للبلاد ، وخاصة إذا دخلوها عن ثورة وغضب : ﴿قالتْ إنّ الملوكَ إذا دخلُوا قريةً أفسدُوهَا وجعَلُوا أعِزّةَ أهلِهَا أذِلّةً وكذلكَ يفعلون ؟.﴾ وعرضت عليهم رأياً آخر وجدته أقرب إلى حل هذه الأزمة التي أتتها من حيث لا تحتسب ، وذلك بأن ترسل إلى سليمان بهدية تصانعه بها ، وتستنزل مودته بسببها ، وتحمّل هذه الهدية لرجال دهاة ينظرون مدى قوة سليمان ، ثمّ بعد ذلك تقرر ما يجب أن تفعله على ضوء ما يأتيها عنه من أخبار .

يقول الشيخ عبد الوهاب النجّار في كتابه (قصص الأنبياء) ما نصه :

« وظاهر أنها كانت تريد من إرسال الهدية أن يقف رسلها على أحوال هذا الملك الذي أرسل يتهددها على غير جريرة ويطلب حضورها إليه خاضعة بلا تردّد ، ثم يعودون إليها بالتقرير الوافي عن حقيقته ، وقوته في ملكه ، ومبلغ ما يمكن أن يقدر عليه من المكيدة إذا لم تخضع لأمره ، لتكون على بيّنة مما تأتي وتدع ، وتكون على رأس أمرها ، حتى إذا فعلت أمراً فعلته بعد تقدير عواقبه، فلما جاءت رسلها إلى سليمان بالهدية لم يقبلها ، وأظهر أنه ليس في حاجة إلى أموالهم وأنه في حال حسنة ، وانفساح ثروة أكثر مما فيه الملِكةُ وقومها ،

وتوعّدهم وملكتهم بأن يرسل إلى بلادهم بجنود لا قبل لهم بها (أي لا قدرة لهم على قتالها) وأنّ عاقبة ذلك اخراجهم من بلادهم أذلة صاغرين [١] .

رجع الرسل إلى الملكة ، ووصفوا لها ما شاهدوه من عظمة ملك سليمان ، وكثرة جنده ، وقوة بأسه وأخبروها بأنه ردّ الهدايا إليها ، ولم يرض المصانعة وأنه مصمم على غزو البلاد بجيش عرمرم فعزمت الملكة على الاستسلام والانقياد وشدت رحالها وأحمالها ، وسارت مع جماعتها إلى سليمان ، اقرأ الآيات الكريمة

﴿ وتفقّد الطيرَ فقالَ ماليَ لا أرى الهُدْهُدَ أمْ كانَ من الغائبينَ . لأعذبنّهُ عذاباً شديداً أوْ لأذبحنّهُ أو ليأتيني بسلطانٍ مبينٍ . فمكثَ غير بعيدٍ فقالَ أحطتُ بما لم تُحِطْ بهِ وجئتُكَ منْ سبأٍ بنبأٍ يقينٍ . أني وجدتُ امرأةً تملِكُهُم وأوتيت من كل شيء ولهَا عرشٌ عظيمٌ ، وجدتُهَا وقومَهَا يسجدُون للشّمْسِ منْ دُونِ اللهِ ، وزيّنَ لهمُ الشيطانُ أعمالَهُمْ فصدّهُمْ عن السبيلِ فهمْ لا يَهْتَدونَ ، ألاّ يسجدوا للهِ الذي يُخْرِجُ الخَبْأَ في السّمواتِ والأرضِ ، ويعلمُ ما تُخفونَ وما تُعلنون ؟ اللهُ لا إلهَ إلاّ هوَ ربّ العرشِ العظيم . قال : سننظرُ أصدقتَ أمْ كنتَ منَ الكاذبينَ . إذهَبْ بكتابي هَذا فألقِهْ إليهمْ ثُمّ تولّ عنهُمْ فانظُرْ ماذا يرجعُون ؟ قالتْ يا أيّها الملأُ إني أُلْقِيَ إليّ كتابٌ كريمٌ . إنّهُ من سليمانَ وإنّهُ بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم . ألاّ تَعْلُوا عليّ وأتُوني مسلمين. قالتْ يا أيهَا الملأ أفتوني في أمريْ ما كنتُ قاطعةً أمْراً حتى تشهدونِ . قالوا نحنُ أُولُوْا قوةٍ وأُلوا بأسٍ شديدٍ والأمرُ إليكِ فانظري ماذا تأمرينَ ؟ قالتْ إنّ الملوكَ إذا دخَلُوا قريةً أفْسدوهَا وجَعَلوا أعزّةَ أهْلِهَا أذلّةً وكذلكَ يفعلونَ وإني مرسلةٌ إليهم بهديةٍ فناظرةٌ بمَ يرجعُ المرسلونَ ، فلمّا جاءَ سليمانَ قالَ أتمدّونَنِ بمالٍ فمَا آتاني اللهُ خيرٌ ممّا آتاكم بلْ أنتُمْ بهديّتِكُمْ تفرحونَ . ارجِعْ إليهِمْ فلنأتينّهُمْ

---

(١) انظر قصص الانبياء للنجار ص ٣٣٤ .

بجنودٍ لا قِبَلَ لهمْ بها ولنخرجنّهُمْ منها أذِلّةً وهمْ صَاغِرُونَ ..﴾ .

حين علم سليمان بأن ملكة سبأ قادمة على زيارته في عاصمة ملكه شيّد لها صرحاً (قصراً) عظيماً من زجاج، وعمل في ممرّه ماءً، وجعل عليه سقفاً من زجاج وجعل فيه السمك وغيرها من دواب الماء، بحيث يخيّل للناظر أنه (لجّة) ثم جلس سليمان على سريره فلمّا دخلت الصرح كشفت عن ساقيها لأنها ظنت أنّ في طريقها الماء، فقال لها سليمان: إنّه صرح ممرد من قوارير (زجاج) وهذا شيء عظيم لا عهد لأهل اليمن بمثله.

وقد أراد سليمان أن يظهر لها من دلائل عظمته وسلطانه ما يبهرها، وأن ترى بعينيها ما لم تره بالأحلام .. وهو أن يأتي بعرشها الجميل ليكون جلوسها عليه في ذلك الصرح، فأمر جنوده بأن يخبروه عن شخص قوي ليأتيه بعرش بلقيس، فانتدب له عفريت من الجن وأخبره بأنه قادر على المجيء به في مدة قصيرة لا تتجاوز نصف نهار، وكان هناك رجل من أهل العلم والإيمان مشهور بالولاية قال لسليمان ﴿أنا آتيكَ بهِ قبلَ أنْ يرتَدّ إليكَ طرفُكَ﴾ أي في طرفةِ عين وإذا بالعرش قد حضر وهذا الرجل هو (آصف بن برخيا) كما يذكر المفسّرون وهو ابن خالة سليمان، وهو من أهل الولاية والصلاح، وقد كان هذا من كراماته، والكرامات لأولياء الله ثابتة، لا ينكرها إلاّ مكابر قال في الجوهرة[1]: (وأثبِتَنْ للأولياء الكرامة: ومَنْ نَفَاهَا فانبِذَنْ كلامه). ويميل بعض المفسرين إلى أنّ الذي أتى بعرشها هو (سليمان) عليه السلام نفسه ويجعل نقل العرش معجزة لسليمان، وقد رد هذا القوم السهيلي وابن كثير وقال إنه غريب جداً لأن سياق الكلام لا يؤيد هذا الرأي.

وقد أمر سليمان ان يغير بعض معالم العرش ليمتحن بها قوة ملاحظتها وانتباهها فلمّا جاءت فوجئت بأول ظاهرة عجيبة فعُرِض عليها عرشُها وقيل لها: (أهكذا عرشك؟) فأجابت كأنه هو، وهذا من فطنتها وغزارة فهمها لأنها استبعدت أن يكون عرشها لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن، ولم تكن تعلم

(١) انظر شرح جوهره التوحيد للشيخ اللقاني .

أن أحداً يقدر على هذا الصنع العجيب ولمّا رأت هذه الدلائل الباهرة ، والخوارق العجيبة أعلنت إسلامها ، وتبرأت مما كانت عليه هي وقومها من ضلال فقالت ﴿ربِّ إني ظلمتُ نفسي وأسلمتُ مع سليمانَ لله ربِ العالمينَ ..﴾ إقرأ هذه الآيات الكريمة في تتمة القصة :

﴿قالَ يا أيّها الملأُ أيّكُم يأتيني بعرشِهَا قبلَ أنْ يأتوني مُسْلِمينَ ؟ قال عفريتٌ من الجنِ أنا آتيك به قبلَ أنْ تقومَ من مقامِكَ ، وإني عليه لقويٌ أمينٌ . قالَ الذي عنده عِلمٌ منَ الكتابِ أنا آتيكَ به قبلَ أنْ يرتدّ إليكَ طرفُكَ فلمّا رآهُ مستقراً عندهُ قالَ هذا منْ فضْلِ ربي ليبلوني أأشكر أمْ أكفُرُ ؟ ومَنْ شكَرَ فإنّمَا يشكرُ لنفسهِ ، ومَنْ كفَرَ فإنّ ربي غنيٌ كريم . قال نكّروا لها عرشَهَا ننظرْ أتهتدِي أمْ تكونُ من الذينَ لا يَهتدُونَ فلمّا جاءتْ قيلَ أهكَذا عرشُكِ قالتْ كأنّه هُوَ ، وأوتينا العِلْمَ مِنْ قبْلِها وكنّا مسلمينَ . وصدّهَا ما كانتْ تعبُدُ من دونِ اللهِ ، إنّهَا كانتْ من قومٍ كافرينَ . قيلَ لها ادخلي الصَّرْحَ فلمّا رأتْهُ حسبتْهُ لجّةً وكشفَتْ عن ساقيْها قالَ إنّهُ صَرْحٌ ممرّدٌ منْ قواريرَ . قالتْ ربّ إني ظلمتُ نفسي وأسلمْتُ معَ سليمانَ لله ربّ العالمينَ ..﴾ .

فتنة سليمان عليه السلام :

يخترع بعض المغرمين بالروايات الضعيفة ، والحكايات الإسرائيلية المصطنعة صورة عجيبة غريبة لفتنة سليمان التي أشار إليها القرآن الكريم إشارة خاطفة في قوله تعالى : ﴿ولقد فتنّا سليمانَ وألقينَا على كرسيّهِ جسَداً ثمّ أنابَ ..﴾ ويحكون بعض الخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان حول (خاتم سليمان) وأنه كان يلبس الخاتم فيحضر إليه الجانّ والعفاريت ثم إنّ الخاتم ضاع وألقي في البحر ففقد سليمان ملكه ، وجلس الشيطان بدل سليمان على كرسي الملك إلى آخر ما هنالك من أباطيل تتنافى مع الرسالة والنبوة ولا يقبلها عقل ولا نقل ،

وقد ردّها المحققون من العلماء كابن كثير ، والفخر الرازي ، والبيضاوي وغيرهم من العلماء الأجلاء .

قال ابن كثير : (وقد أورد بعض المفسرين آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف ،وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات وفي كثيرٍ منها نكارة شديدة[١] .

ولعلّ (الفتنة) المذكورة في الآية الكريمة يقصد بها فتنته في جسده ، حيث إن سليمان ابتلي بمرض شديد نحل منه وضعف ، حتّى صار لشدة المرض كأنه جسد بلا روح (ثمّ أناب) أي رجع إلى حالة الصحة ، وهذا ما اختاره الفخر الرازي من الوجوه التي ذكرها . أو المراد فتنته بكلمته التي قال فيها لأطوفن على مائة امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة منهن جاءت بشق رجل (أي نصف إنسان) فوضع على كرسية فلما رأى ذلك رجع وأناب إلى الله، والحديث قد مر سابقاً وهو مرويٌ في الصحاح ، وقد مال إلى هذا الرأي البيضاوي والنسفي وغيرهما .

وعلى كل حال فإن ما ورد في قصة الخاتم كله باطل وبهتان وقد قال النسفي رحمه الله : (وأمّا ما يروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان عليه السلام فمن أباطيل اليهود[٢] .

وفاة سليمان عليه السلام :

عاش سليمان عليه السلام ٥٢ سنة ، وقد لبث في الملك ٤٠ سنة على الرأي الراجح الذي ذكره ابن (اسحاق) ثم توفي عليه السلام ، وكان أمر وفاته حدثاً غريباً ، لم تعلم به الإنس ولا الجن حتّى بعد مرور سنة على الوفاة ، وذلك بعد أن اكلت (الأرضة) عصاه فخرّ على الأرض ، وتحقّق الناس من موته ، وقد دخل معبده فمات وهو متوكىءٌ على العصا .. روى ابن كثير عن وهب بن منبه أنه قال : إنّ (سليمان) عليه السلام قال لملك الموت إذا أُمرْتَ بقبضِ

(١) راجع الجزء الرابع من تفسير ابن كثير .
(٢) انظر تفسير النسفي الجزء الرابع ص ٤٢ .

روحي فأعلمي ، فأتاه فقال يا سليمان : قد أُمِرْتُ بك ، فدعا الشياطين فبنوا عليه صَرْحاً من قوارير له باب ، فقام يصلي فاتكأ على عصاه ، فدخل عليه ملك الموت فقبضَ روحه وهو متوكٍ على عصاه ، والجنّ تعمل بين يديه وينظرون إليه ويحسبون أنه حيّ قال فبعثَ اللهُ دابةَ الأرض إلى منسأته (يعني عصاه) فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ، خرّ على الأرض فلما رأت الجن ذلك تبيّنوا أنْ لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في الذاب المهين قال تعالى إشارة إلى حادثة موته :

﴿فلمّا قضينا عليهِ الموتَ ما دلّهُمْ على موتِهِ إلاّ دابةُ الأرضِ تأكلُ مِنْسَأتَهُ ، فلمّا خرّ تبينَ الجنّ أن لَوْ كانُوا يعلمونَ الغيبَ ما لبِثُوا في العذَابِ المهينِ﴾. وهنا إشارة لطيفة وهي أنّ الجن كانت توهم الناس بمعرفة الغيب ، فلما مات سليمان ولم يعلموا بموته وهم في أعمالهم الشاقة التي كلّفهم بها سليمان اتضح الأمر بكذب دعواهم ، وقد دفن سليمان في بيت المقدس رحمه الله رحمة واسعة ..

١٥- إلياس عليه السلام

﴿وإنَّ إلياسَ لمنَ المرسَلينَ . إذْ قالَ لقومِهِ ألا تتّقُونَ . أتَدْعونَ بَعْلاً وتَذَرُونَ أحسَنَ الخَالقينَ ..﴾ .

ذكره في القرآن الكريم :

ذكر اسم (الياس) عليه السلام في القرآن الكريم في ثلاثة مواطن في آية من الأنعام ، وفي آيتين من الصافات ، أولاهما ذكر فيها لفظ (إلياس) والثانية ذكر فيها لفظ (إلياسين) قال تعالى :﴿ سلامٌ على إلْياسين﴾ قال ابن كثير : أي إلياس والعرب تلحق النون في أسماء كثيرة ، وتبدلها من غيرها ، كما تقول : إسماعيل وإسماعين ، وإسرائيل وإسرائين ، وإلياس وإلياسين[١] .

نسبه عليه السلام :

قال علماء النسب هو : (إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون) هذا ما ذكره المؤرخ ابن جرير الطبري في تاريخه واختاره ، وذكر غيره نسباً آخر يختلف بعض الشيء عما ذكره ابن جرير ، ولكن الجميع متفقون على أنه من ذرية (هارون) عليه السلام إلى أنْ ينتهيَ نسبه صاعداً إلى إبراهيم الخليل صلوات الله عليهم أجمعين ، ومن المقطوع به أنه من أنبياء بني إسرائيل .

---

(١) البداية والنهاية ج١ ص ٣٣٩ .

دعوته عليه السلام :

جاء في تاريخ الطبري عن ابن اسحق ما ملخصه :

« إنّ إلياس عليه السلام لما دعا بني إسرائيل إلى نبذ عبادة الأصنام، والاستمساك بعبادة الله وحده رفضوه ولم يستجيبوا له ، فدعا ربه فقال : اللهمّ إنّ بني إسرائيل قد أبوا إلاّ الكفر بك والعبادة لغيرك ، فغيّر ما بهم من نعمتك، فأوحى الله إليه : إنّا جعلنا أمر أرزاقهم بيدك فأنت الذي تأمر في ذلك ، فقال إلياس : اللهمّ فأمسك عليهم المطر ، فحبس عنهم ثلاث سنين ، حتى هلكت الماشية والشجر ، وجهد الناس جهداً شديداً ، ولمّا دعا عليهم استخفى عن أعينهم ، وكان يأتيه رزقه حيث كان ، فكان بنو إسرائيل كلّما وجدوا ريح الخبز في دار قالوا هنا إلياس فيطلبونه وينال أهلَ المنزل منهم شرٌّ، وقد أوى ذات مرة إلى بيت امرأة من بني إسرائيل ، لها ابن يقال له (إليسع بن أخطوب) به ضرّ فآوته وأخفت أمره فدعا ربه لابنها فعافاه من الضر الذي كان به ، واتّبع (إلياس) وآمن به وصدّقه ولزمه ، فكان يذهب معه حيثما ذهب وكان (إلياس) قد أسن وكبر ، وكان (إليسع) غلاماً شاباً ثمّ إن (إلياس) قال لبني إسرائيل إذا تركتم عبادة الأصنام دعوت الله أن يفرّج عنكم ، فأخرجوا أصنامهم ومحدثاتهم فدعا الله لهم ففرّج عنهم وأغاثهم ، فحييت بلادهم ولكنهم لم يرجعوا عما كانوا عليه ولم يستقيموا فلما رأى (إلياس) منهم دعا ربه أن يقبضه إليه فقبضه ورفعه ثمّ إنّ الله أرسل إليهم (إليسع) بعد إلياس [1] .

ويذكر (ابن كثير) : أن رسالته كانت لأهل (بعلبك) غربي دمشق ، وأنه كان لهم صنم يعبدونه يسمى (بعلاً) وقد ذكره القرآن الكريم على لسان إلياس حين قال لقومه ﴿ أتدعونَ بعلاً وتذرونَ أحسنَ الخالقينَ ، اللهَ ربّكُم وربّ آبائِكُم الأولين ؟ ﴾ .

ويذكر بعض المؤرخين أنه عقب انتهاء ملك (سليمان بن داود) عليه

---

(١) انظر تاريخ الطبري .

السلام وذلك في سنة ٩٣٣ قبل الميلاد انقسمت مملكة بني إسرائيل إلى قسمين :

الأول – يخضع لملك سلالة (سليمان) وأول ملوكهم (رُحْبَعام بن سليمان) .

الثاني – يخضع لأحد أسباط (أفرايم) بن يوسف الصديق ، واسم ملكهم (جُرْ بعام) .

وقد تشتّتت دولة بني إسرائيل بعد (سليمانْ عليه السلام) بسبب اختلاف ملوكهم وعظمائهم على السلطة ، وبسبب الكفر والضلال الذي انتشر بين صفوفهم ،وقد سمح أحد ملوكهم وهو (أخاب) لزوجته بنشر عبادة قومها في بني إسرائيل ، وكان قومها عباداً للأوثان فشاعت العبادة الوثنية ، وعبدوا الصنم الذي ذكره القرآن الكريم واسمه (بعل) ، فأرسل الله إليهم (إلياس) عليه السلام الذي تحدثنا عن دعوته .

فلمّا توفي (إلياس) عليه السلام أوحى الله تعالى إلى أحد الأنبياء واسمه (إليسع) عليه السلام ليقوم في بني إسرائيل ، فيدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهّار .

١٦ ـ اليسع عليه السلام

﴿واذْكر إسماعيلَ ، واليسعَ ، وذا الكفل ، وكلٌ من الأخيارِ..﴾.

ذكره في القرآن :

ذكر (إليسع) عليه السلام في آيتين من القرآن الكريم ، في سورة الأنعام في قوله تعالى :

﴿وإسماعيلَ وإليسعَ ويونسَ ولوطاً وكلاً فضّلنا على العالمين﴾ وفي سورة (ص) وهي الآية التي صدّرنا بها الكلام على هذا النبي الكريم .

نسبه عليه السلام :

جاء في تاريخ الطبري حول ذكر نسبه أنه : (إليسع بن أخطوب) ويقال إنه ابن عم إلياس النبي عليهما السلام ، وذكر الحافظ ابن عساكر نسبه على الوجه الآتي : (اسمه أسباط بن عدي بن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف الصدّيق عليه السلام) .

وهو من أنبياء بني إسرائيل ، وقد أوجز القرآن الكريم عن حياته فلم يذكر عنها شيئاً وإنما اكتفى بعده في مجموعة الرسل الكرام الذين يجب الإيمان بهم تفصيلا . .

دعوته عليه السلام :

قام بتبليغ الدعوة بعد انتقال (إلياس) إلى جوار الله ، فقام يدعو إلى الله

مستمسكاً بمنهاج نبيّ الله إلياس وشريعته، وقد كثرت في زمانه الأحداث والخطايا وكثر الملوك الجبابرة فقتلوا الأنبياء وشرّدوا المؤمنين فوعظهم (إليسع) وخوّفهم من عذاب الله ولكنهم لم يأبهوا بدعوته ثم توفاه الله وسلّط على بني إسرائيل من يسومهم سوء العذاب كما قص علينا القرآن الكريم ..

ويذكر بعض المؤرخين أن دعوته ظهرت في مدينة تسمى (بانياس) إحدى مدن الشام ، ولا تزال حتى الآن موجودة وهي قريبة من بلدة اللاذقية والله أعلم ....

١٧ ـ يونس عليه السلام

﴿وإنَّ يونسَ لمِنَ المُرْسلينَ . إذْ أبَقَ إلى الفُلْكِ المَشْحُونِ فَسَاهَمَ فكانَ منَ المُدْحَضِينَ ..﴾ .

ذكره في القرآن :

ذكر يونس عليه السلام باسمه في القرآن الكريم أربع مرات في سورة (النساء والأنعام ، ويونس ، والصافات) وذكر بالوصف في موضعين حيث لقبه الله (بذي النون) أي الحوت في سورة الأنبياء في قوله تعالى :.

﴿وذَا النّونِ إذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فظَنّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ..﴾ الآية.

وبلفظ صاحب الحوت في سورة القلم في قوله تعالى :﴿ فاصبرْ لحكم ربّكَ ولا تكنْ كصاحبِ الحوتِ ..﴾ الآية .

فيكون قد ذكر في القرآن ست مرات ، أربع مرات بالاسم ، ومرتين بالوصف .

نسبه عليه السلام :

لم يذكر المؤرخون نسباً ليونس عليه السلام ، وإنما اتفقوا على أنه اسمه (يونس بني متّى) قالوا (ومتّى) هي أمه ولم ينسب إلى أمه من الرسل غير (يونس وعيسى) عليهما السلام ، ويسمى عند أهل الكتاب (يونان بن أمتاي) ويونس عليه السلام من بني إسرائيل ، ويتصل نسبه بـ (بنيامين) أحد أولاد

يعقوب عليه السلام وهو أخو يوسف الشقيق .

دعوته عليه السلام :

أرسله الله تعالى إلى أهل (نينوى) من أرض الموصل بالعراق ، وكان أهل نينوى قد دخلت إليهم الوثنية ، وانتشرتْ فيهم عبادة الأصنام ، ولهم صنم يسمونه (عشتار) .

فذهبَ يونس عليه السلام من بلاد الشام إلى (نينوى) فدعاهم إلى الله عز وجل ، فكذّبوه ولم يستجيبوا لدعوته ، شأن أكثر أهل القرى كما قال تعالى :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا في قرية من نَبِيّ إلاّ قال مُتْرفُوهَا إنّا بما أَرْسِلْتُمْ بهِ كافرون ﴾ فبقي معهم يذكّرهم ويعظهم ويدعوهم إلى الله ، ولكنّه لم يلق منهم إلاّ آذاناً صُمّاً ، وقلوباً غلفاً ، فضاق بهم ذرعاً ، ثمّ أوعدهم بالعذاب إنْ لم يؤمنوا ، فلمّا طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم غاضباً عليهم ،متوعداً لهم بالعذاب بعد ثلاث ، ويظهر أن قومه توعّدوه أيضاً وغضبوا منه ولاحقوه فأبق فاراً منهم ، فخرج من بينهم قبل أن يأمره الله تعالى بالخروج وظنّ أنّ الله تعالى لن يؤاخذه على هذا الخروج ولنْ يضيّق عليه بسبب تركه للقرية وهجره لأهلها قبل أن يؤمر بالخروج ، وهذا معنى قوله تعالى :﴿ وذا النون إذْ ذهبَ مغاضباً فظنّ أن لن نقدر عليه ..﴾ الآية . فهو قد ذهب مغاضباً لقومه لا مغاضباً لربه فإنّ ذلك معصية لله وهو يتنافى مع (عصمة الأنبياء) وقد وضحنا ذلك مفصلا في (بحث العصمة) فارجع إليه هناك . قال ابن مسعود ومجاهد وطائفة من السلف فلما خرج من بين أظهرهم وتحققوا نزول العذاب بهم ، قذف الله في قلوبهم التوبة والأنابة ، وندموا على ما كان فيهم مع نبيهم فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ، ثمّ عجّوا إلى الله عز وجل ، وصرخوا وتضرعوا ، وبكى الرجال والنساء ، والبنون والبنات ، وجأرت الأنعامُ الدواب ، وكانت ساعة عظيمة هائلة ، فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي دار على رؤسهم كقطع الليل المظلم ولهذا

قال تعالى : ﴿ فلَوْلا كانَتْ قَرية آمنتْ فنفعَها إيمانُهَا إلاّ قومَ يونسَ لمّا آمنوا كشفْنَا عنهمْ عذابَ الخِزيِ في الحياةِ الدّنْيَا ومتّعْنَاهُمْ إلى حينٍ.. ﴾

يونس في جوف الحوت :

أما يونس عليه السلام فإنه حين ترك قومه سار حتى وصل إلى شاطىء البحر فوجد سفينة على سفر فطلب من أهلها أن يركبوه معهم ، فتوسّموا فيه خيراً فأركبوه ، ولما توسطوا البحر هاج بهم واضطرب ، فقالوا ، إن فينا صاحب ذنب ، فاستهموا فيما بينهم على أنّ من وقع عليه السهم ألقوه في البحر ، فوقع السهم على (يونس) فسألونه عن شأنه ، وعجبوا من أمره وهو التقي الصالح فحدّثهم بقصته ، فأشفقوا أن يلقوه في البحر ، وأرادوا الرجوع به إلى الساحل فأشار عليهم بأن يلقوه في اليم ليسكن عنهم غضب الله فألقوه فالتقمه حوت عظيم بأمر الله ، وسار به في الظلمات في حفظ الله وتأديبه ، وتمت المعجزة فقد أوحى الله إلى الحوت أن لا يصيب من يونس لحماً ، ولا يهشم له عظماً ، فحمله الحوت العظيم وسار به في عُبَاب البحر حياً يسبّح الله ويستغفره ، وينادي في الظلمات ، أن لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين ، فاستجاب الله له ونجّاه من الغم ، ثم أوحى الله إلى الحوت أنْ يقذف به في العراء على ساحل البحر فألقى به وهو سقيم ، وقد مكث في جوف الحوت ثلاثة أيام بلياليها ، ثمّ وجد نفسه في العراء سقيماً هزيلا فحمد الله على النجاة ، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين ، فأكل منها واستظل بظلها ، وعافاه الله من سقمه وتاب عليه ، وعلم (يونس) أنّ ما أصابه تأديب رباني محفوف بالمعجزة حصل له بسبب استعجاله وخروجه عن قومه مغاضباً لهم ، بدون إذنٍ صريح من الله له ، وإنْ كان له فيه اجتهاد مقبول ، ولكنّ مثل هذا الاجتهاد إنْ قُبِل من الصالحين العاديين ، فإنه لا يقبل من المرسلين المقربين ، فهو بخروجه واستعجاله قد فعل ما يستحق عليه اللوم والتأديب الرباني [1] .

---

(١) أخذاً من كتاب العقيدة الاسلامية للاستاذ عبد الرحمن حبنكة .

اقرأ الآيات الكريمة :

﴿وإنَّ يونسَ لمنَ المرسلينَ، إذْ أبَقَ إلى الفُلْكِ المشحُونِ فساهَمَ فكان من المُدْحضينَ فالتقمهُ الحوتُ وهو مليمٌ . فلَوْلا أنّهُ كانَ من المسبّحِين . للبثَ في بطنِهِ إلى يومِ يُبْعثونَ ، فنبذْنَاهُ بالعرَاء وهُوَ سقيمٌ ، وأنبتْنَا عليهِ شجَرةً مِنْ يقْطِينٍ ، وأرسلناهُ إلى مائةِ ألفٍ أو يزيدون، فآمنوا فمتّعناهُمْ إلى حِينٍ ..﴾ .

ولمّا قدر يونس على المسير عاد إلى قومه فوجدهم مؤمنين بالله تائبين إليه منتظرين عودة رسولهم ليأتمروا بأمره ويتبعوه فلبث فيهم يعلّمهم ويهديهم ، ويدلهم على الله ، ويرشدهم إلى الصراط المستقيم .

ومتّع الله أهل (نينوى) في مدينتهم مدة إقامة يونس فيهم وبعده آمنين مطمئنين إلى حين ، ثمّ بعد ذلك لمّا أفسدوا وضلوا سلّط الله عليهم من دمّر لهم مدينتهم فكانت أحاديث يرويها المؤرخون ويعتبر بها المعتبرون .

وكان عدد القوم الذين بعث إليهم يونس عليه السلام مائة وعشرين ألفاً على رواية ابن عباس لأن الله تعالى قال ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ وقد ورد في ذلك بعض الآثار والله تعالى أعلم .

١٨ - زكريا عليه السلام

﴿وزَكريّا إذْ نَادَى ربّهُ ربّ لا تَذَرْني فَرْداً وأنْتَ خيرُ الوارثين﴾...

ذكره في القرآن :

ذكر اسم زكريا عليه السلام في القرآن الكريم ثمان مرات ، في كل من السور الآتية : (آل عمران ، الأنعام ، مريم ، الأنبياء) وذكرت قصته مفصّلة في سورتي (آل عمران ، ومريم) أمّا في مريم فمن بداية السورة الكريمة إلى الآية الخامسة عشرة منها في قوله تعالى : ﴿ كهيعص . ذِكْرُ رحمةِ ربّكَ عبدَه زكريّا . إذْ نَادَى ربّهُ نِداءً خَفِياً﴾ الآية ، وهو على وجه القطع من رسل بني إسرائيل لأنه من ذرية (سليمان بن داود) الذي يتصل نسبه بـ (يعقوب) عليه السلام المسمّى (إسرائيل) وهو أحد الرسل الذي يجب الإيمان بهم تفصيلا .

نسبه عليه السلام :

لم يذكر المؤرخون له نسباً متصلا موثوقاً ، بيد أنّ الحافظ ابن عساكر في كتابه التاريخ المشهور قد ذكر له نسباً طويلاً مكوناً من أربعة عشر أباً حتى وصل إلى (سليمان بن داود) عليه السلام ونحن نوجزه على الشكل الآتي : (زكريا بن دان بن مسلم بن صدوق بن حشبان ... إلى أن يصل إلى رحبعام بن سليمان بن داود) .

ويذكر الشيخ النجار في كتابه قصص الأنبياء أنه يوجد زكريا آخر ، غير زكريا (والد يحيى) ليس له قصة في القرآن الكريم أصلا وهو (زكريا بن برخيا) ويقول : هذا له كتاب من الكتب القانونية عند النصارى ، وكان في زمن (داريوس) أي قبل زمن المسيح بحوالي ثلاثة قرون ، وهو الذي تكلم في كتابه من الفصل التاسع عن ولاية (عمر بن الخطاب) وغلبه على (أورشليم) يعني القدس ودخوله إليها منصوراً وادعاً راكباً على حماره ، والنصارى يؤلونه بالمسيح ، واليهود يؤولونه بمسيحهم المنتظر وهو المسيح الدجال[1] ..) .

متى كانت رسالته ؟

قبيل ميلاد السيد المسيح بن مريم عليه السلام بعث الله (زكريا) عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل ، فقام يدعوهم إلى الله ، ويخوفهم عذابه ، في وقت اشتد فيه الفسق والفجور وانتشرت المنكرات ، وكثرت المعاصي ، وطغت على الأمة الإسرائيلية موجة عنيفة من التفسخ والتحلّل ، وطغيان المادية ، حتى نسوا الله والدار الآخرة ، وتسلّط على الحكم ملوك ظلمة جبابرة يعيثون في الأرض فساداً ، ويفعلون من الجرائم ما تقشعر له الأبدان ، لا يراعون حرمة لنبيّ ، ولا قدسية لدين ، دينُهم ما يوحي إليهم به شيطانهم ، وعبادتهم ما تشتهيه أهواؤهم ، وقد تسلّطوا على الصالحين والأتقياء والأنبياء حتى سفكوا دماءهم وكان أعظمهم فتكاً وإجراماً هو (هيرودس) حاكم فلسطين الذي أمر بقتل (يحيى بن زكريا) وقدم إليه رأسه في طبق والدم ينزف منه ، إرضاء لشهوة عشيقته كما سنبينه إن شاء الله عند الحديث عن يحيى عليه السلام .

وقد لقي (زكريا) عليه السلام من الحكام والجبابرة وبني إسرائيل كل عَنَت ومشقة ، وكل جهد وبلاء ، وناله من أذاهم الشيء الكثير وتوالت عليه الأهوال والشدائد ، ووهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً ، ولم يعد به طاقة لتحمل الأذى والمخاطر ، وخشي على بني إسرائل أنْ يضلّوا ويُفتنوا . فطلب

(١) انظر قصص الانبياء للنجار ص ٢٦٨ .

من ربّه أن يعينه بولد يواسيه في شيخوخته ، ويخلفه في تبليغ الرسالة ، ولا يتركه وحيداً فريداً يقاسي في هذه الحياة المتاعب والآلام قال تعالى :

﴿وزكريّا إذْ نَادَى ربّهُ ربّ لا تَذَرْني فَرْداً وأنْتَ خيرُ الوارثينَ . فاسْتجبنَا لَهُ ووهبْنَا له يحيى وأصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إنّهمْ كانوا يسارعون في الخيراتِ ، ويدعُونَنَا رَغَباً ورَهَباً ، وكَانُوا لَنَا خَاشعِينَ ﴾ .

ولادة يحيى بن زكريا :

كانت رسالة نبي الله زكريا عليه السلام إلى بني إسرائيل تمهيداً وايذاناً بقرب ميلاد السيد الأكرم ، والنبي الأعظم (عيسى بن مريم) عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم ، ومن المعلوم أنّ السيد المسيح عيسى بن مريم هو آخر أنبياء بني إسرائيل لذلك فقد بعث الله بين يديه نبيين كريمين هما (زكريا) وولده (يحيى) عليهما الصلاة والسلام يحوطانه ويرعيانه منذ ولادته إلى حين اكتمال شبابه ، وكانت رسالتهما ايذاناً — كما تقول الأناجيل — بقرب اقتراب ملكوت السموات .

وقد كان زكريا قبل أن يكرمه الله بالرسالة ، ويختاره لإنقاذ بني إسرائيل من الشقاوة والضلالة ، من كبار (الربّانيّين) الذين لهم شركة في خدمة الهيكل ثمّ نبّأهُ الله ، وأرسله رسولاً إلى بني إسرائيل ، وكان (عمران) والد مريم إمامهم وكبيرهم ، والكاهن الأكبر فيهم فلمّا توفي (عمران) كان الكافل لابنته (مريم) هو زكريا عليه السلام وهو زوج خالتها ، وقد كان يرى من عجائب قدرة الله تعالى في حفظ هذه السيدة البتول ما يبهر العقل ، وقد قص علينا القرآن الكريم طرفاً من هذا في قوله تعالى :﴿ فتقبّلهَا ربّهَا بقبولٍ حَسَنٍ وأنبتَهَا نباتاً حَسَناً ، وكَفّلَهَا زكريّا ، كلّما دَخَلَ عليهَا زكريّا المِحْراب وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً ، قالَ يا مريمُ أنّى لَكِ هَذا ؟ قَالتْ هو مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إنّ اللهَ يرزُقُ مَنْ يَشَاءُ بغيرِ حِسَابٍ ..﴾ . كان زكريا عليه السلام

إذا دخل على مريم في معبدها يجد عندها من الرزق ما لا يوجد مثله في البلد ، أو عند سائر الناس ، ويكرمها الله بأنواع من الإكرام من حيث لا تحسب فيسألها زكريا في دهشة واستغراب : (أنّى لَكِ هَذا ؟) فتجيبه هو من عند الله.

وكان (زكريا) عليه السلام قد تقدّمت به السنّ ، ووخطه الشيب ، وبلغ من الكبر عتياً ، وكانت امرأته عاقراً لا تلد ، فلمّا رأى من كرامات الله تعالى لمريم ، ومن آياته الباهرات ، ما يدهش ويحيّر ، طمع في فضل الله ورحمته فطلب من ربه أن يرزقه الله غلاماً تقياً ، يرثه في النبوة والهداية لبني اسرائيل ، ويجعله من العباد الصالحين ﴿ هنالِكَ دَعَا زكريّا ربّه قالَ ربّ هبْ لي منْ لَدُنْكَ ذريّةً طيّبةً إنّكَ سميعُ الدعاءِ .. ﴾ وقد كان عمره حين طلب الولد تسعاً وتسعين سنة وعمر زوجته ثمان وتسعون سنة ، و لم يكن طلب (زكريا) للولد لمجرّد حبه للبنين ، ولكنه رجى ربه أن يرزقه الولد ليخلفه في بني إسرائيل وليقوم بأعباء الدعوة التي حملها أبوه وقد كان يخشى من بعد وفاته على بني إسرائيل أن يتولى أمرهم في شئون الدين الموالي من الجهلة والفساق ، ومن ليس في قلبه تعظيم لشعائر الدين ، فيعملوا بما لا يوافق شرع الله وطاعته ، ولذلك سأل ربه الولد ، وناداه نداء خفياً ، لا يسمعه إلا من يسمع الصوت الخفيّ ، ويعلم القلب النقيّ ، وطلب منه أن يكرمه بولد بر تقي فاستجاب الله دعاءه وأجاب نداءه ورزقه على الكبر غلاماً زكياً هو (يحيى) عليه السلام ، من امرأته العاقر ، التي لم تكن في حال صباها تلد فكيف بها وقد أصبحت في سن الهرم والشيخوخة ؟ ولكنها قدرة الله التي تفعل الأعاجيب وتأتي بالخوارق ، وتجيب دعوة المضطر إذا دعاه ، إقرأ الآيات الكريمة في سورة مريم :

﴿ كهيعص . ذكرُ رحمةِ ربّكَ عبدَهُ زكريّا . إذْ نَادَى ربّه نِدَاءً خَفِياً . قالَ ربّ إنيّ وَهَنَ العظمُ مِني واشتعَلَ الرأسُ شيباً ولمْ أكنْ بدعَائِكَ ربّ شقياً . وإني خِفْتُ المَوالي مِنْ ورائيْ وكَانت امْرأتي عَاقِراً فَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ وليّاً . يَرِثُني ويَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ واجْعَلْهُ

ربِّ رضياً . يا زكريّا إنّا نُبَشّرُكَ بغُلامٍ اسمُهُ يَحْيى . لَمْ نَجْعَلْ له مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً . قالَ ربِّ أنّى يكونُ لي غلامٌ وكانتِ امرأتي عاقراً وقدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيّاً . قالَ كَذَلِكَ قالَ ربُّكَ هُوَ عليَّ هيّنٌ وقَدْ خلقتُكَ مِنْ قبلُ ولمْ تَكُ شيئاً ﴾.

ولد لزكريا ذلك الولد البار . الذي رزقه على الهرم والشيخوخة من زوجته (أشياع بنت عمران) أخت مريم بنت عمران وعاش في كنف والده عيشة البر والتّقى ، ثمّ كانت الفتنة الكبرى حين ذبح (يحيى) قرباناً لأهواء أهل الضلال في حياة أبيه الشيخ الكبير الوقور ، الرسول النبي الصالح ، الذي لقى بعد ذلك حتفه على أيدي الظلمة من الحكام . وذاق نفس الكأس الذي ذاقه ولده : فقتل زكريا عليه السلام — على ما يذكر بعض المؤرخين — نشراً بالمنشار ولقي وجه ربه شهيداً مرضياً صلوات الله وسلامه عليه ..

١٩ - يحيى عليه السلام

﴿يا يَحْيى خُذ الكِتَابَ وآتيناهُ الحُكْمَ صَبياً . وحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وكَانَ تَقِيّاً﴾ .

ذكره في القرآن :

ذكر اسم يحيى عليه السلام في القرآن الكريم في أربع آيات في كل من السور الآتية : (آل عمران ، الأنعام ، مريم ، الأنبياء) وقد أثنى الله تبارك وتعالى عليه بالثناء العاطر ، ووصفه بالبر والتقوى ، والصلاح والاستقامة فقال في شأنه : ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وكَانَ تَقِيّاً . وبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبّاراً عَصِيّاً ..﴾ .

وأعطاه الله النبوة وهو ابن ثلاثين سنة كما قال تعالى :﴿وآتيناه الحكمَ صبياً﴾وجعله سيداً حصوراً بعيداً عن مقارفة المنكرات والشهوات كما قال تعالى ﴿وسيّداً وحصوراً ونبيّاً منَ الصّالِحِينَ﴾ .

نسبه عليه السلام :

هو يحيى بن زكريا بن دان بن مسلم بن صدوق بن حشبان .. إلى أن يصل نسبه إلى نبي الله (سليمان بن داود) عليه السلام وهو من سبط يهوذا بن يعقوب لأن داود عليه السلام هو من سبط (يهوذا) كما هو محقق عندعلماءأ هل النسب

ولادته عليه السلام :

ولد يحيى عليه السلام قبل مولد المسيح عيسى بن مريم بثلاثة أشهر ، وعاصره وعاش معه فترة طويلة من الزمن ورافق أطوار دعوته عليه السلام ، وقد نشأ يحيى – كما بشّر الله – نشأة صلاح وتُقى وطُهْر ونقاء ، بعيداً عن مظاهر الترف والنعيم فكان في شبابه يأوي إلى القفار ، ويقتات بالجراد ، ويكتفي بما يسهله الله له من الرزق ، وكان كثير العبادة والتضرع والبكاء من خشية الله تعالى ، روى مجاهد قال : « كان طعام يحيى بن زكريا العشب ، وإنه كان ليبكي من خشية الله تعالى حتى لو كان القر على عينيه لخرقه » . وروى ابن عساكر : أنّ أبويه خرجا يوماً في طلبه فوجداه عند (بحيرة الأردن) فلما اجتمعا به أبكاهما بكاءً شديداً ، لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل .

وقد آتاه الله الحكم صبياً ، وأقبل على معرفة الشريعة وأصولها وأحكامها حتى صار عالماً بارعاً متبحراً ، ومرجعاً يرجع إليه في الفتاوى الدينية ، ثم وافته النبوة والرسالة قبل أن يبلغ من العمر ثلاثين سنة ، وخاطبه الله تعالى بقوله :

﴿يا يحيى خُذ الكِتَابَ بقُوّةٍ﴾ .

روى عن خيثمة أنه قال: « كان عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ابني خالة ، وكان عيسى يلبس الصوف ، وكان يحيى يلبس الوبر[1] ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ، ولا أمة ولا عبد ، ولا مأوى يأويان إليه ، أينما جنّهما الليل أويا ، فلما أرادا أن يتفرقا قال له يحيى : أوصني قال لا تغضب ، قال لا استطيع إلاّ أن اغضب ، قال لا تَقْتَنِ مالاً ، قال : أمّا هذه فعسى[2] ..

لقد عاش على الزهد ، وكان كثير العزلة عن الناس ، يأنس إلى البراري ، ويأكل من ورق الأشجار ، ويرد ماء الأنهار ، ويتغذّى بالجراد في بعض الأحيان وكان يخاطب نفسه فيقول : من أنعمُ منك يا يحيى ؟!

---

(١) الوبر : هو ما يخرج من الإبل من شعر والصوف للغنم والوبر للجمل .

(٢) انظر البداية والنهاية ج٢ ص ٥٢ .

دعوة يحيى عليه السلام :

قام يحيى عليه السلام يدعو بني إسرائيل إلى الله، ويبشّرهم باقتراب ملكوت السماوات ، وكانت دعوته بالحكم والمواعظ الرقيقة . روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« إن الله أمر (يحيى بن زكريا) بخمس كلمات أن يعمل بهن ، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنّ . وكاد أن يبطىء ، فقال له عيسى عليه السلام : إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن ، وتأمر بني إسّرائيل أن يعملوا بهنّ ، فإمّا أن تبلغهنّ وإمّا أن أبلغهن ، فقال ، يا أخي أخشى إنْ سبقتني أنْ أعذّب ، أو يخسف بي ، قال : فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد ، فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إنّ الله عزّ وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن :

وأولهنّ : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، فإنّ مَثَلَ من اشترى عبداً من خالص ماله بوَرِق (فضة) أو ذهب ، فجعل يعمل ويؤدي غلّته إلى غير سيّده ، فأيكم يسرّه أنّ يكون عبده كذلك ؟ وإنّ الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً .

وأمركم بالصلاة : فإنّ الله ينصب وجهه قِبَل عبده ما لم يلتفت ، فإذا صلّيتم فلا تلتفتوا .

وأمركم بالصيام : فإنّ مَثَل ذلك كمثل رجلٍ معه صُرّة من مِسك في عصابة كلّهم يجد ريح المسك ، وإنّ خُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وأمركم بالصدقة : فإنّ مَثَل ذلك كمثل رجل أسره العدوّ فشدّوا يده إلى عُنقه ، وقدّموه ليضربوا عنقه، فقال : هل لكم أن أفتدي نفسي منكم فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فكّ نفسه .

وأمركم **بذكر الله** : عز وجلّ كثيراً . فإنّ مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره ، فأتى حصناً حصيناً فتحصنّ فيه وان العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل[1] » .

معنى التعميد عند أهل الكتاب :

يسمى يحيى عند علماء النصارى (يوحنا) ويلقبونه (المعمدان) لأنه كان قد تولى التعميد المعروف عند النصارى وهو التبريك بالغسل بالماء للتوبة من الخطايا . وقد ظهر يحيى في ناحية الأردن ينذر الناس بالتوبة ، فخرج إليه أهل القدس والقرى القريبة من الأردن فكان يعمّدهم في النهر . وينذرهم باقتراب ملكوت السموات ، وقد عمّد يحيى (المسيحَ عيسى) في نهر الأردن وبرّك عليه وهو ابن ثلاثين سنة ، وقد سأله اليهود : هل هو المسيح ؟ فقال لا ، فسألوه : هل هو النبي ؟ فقال لا . فقالوا له : لماذا تعمّد إذا لم تكن المسيح ولا النبي ؟ فقال : أنا صوتٌ صارخ من البرية هيئوا طريق الرب وافعلوا سبله مستقيمة[2] .

لماذا قتل يحيى عليه السلام ؟ :

يروى المؤرخون في سبب مقتل يحيى بن زكريا عليه السلام أسباباً كثيرة أشهرها ما رواه ابن كثير وذكره الشيخ النجّار في كتابه (قصص الأنبياء) وهو ما يلي :

كان حاكم فلسطين (هيرودس) وكان رجلاً شرّيراً فاسقاً . وكانت له ابنة أخ يقال لها (هيروديا) بارعة الجمال فأراد عمها أن يتزوج منها ، وكانت البنت وأمها تريدان هذا الزوج . فلمّا علم يحيى عليه السلام بذلك أعلن معارضته لأنّ هذا الزواج محرم في الشريعة عند أهل الكتاب كما هو محرم عند المسلمين .

---

(١) رواه الإمام أحمد .

(٢) انظر كتاب العقيدة الاسلامية ص ٢١٦ .

فحقدت أم الفتاة على يحيى ، وبيّتت له مكيدة قتل ، فزيّنت ابنتها (هيروديا) أحسن زينة ، وألبستها أفخر اللباس . وأدخلتها على (هيرودس) فرقصت أمامه حتى ملكت مشاعره . فقال لها : تمنّيْ عليّ !! فقالت له — كما علّمتها أمها — أريد رأس يحيى بن زكريا في هذا الطبق ، فاستجاب لطلبها وأمر برأس يحيى فقتل عليه السلام وهو في الصلاة وذبح كما تذبح النعجة ، ثم قدم رأسه في طبق والدم ينزف منه فيقال إنها هلكت من فورها وساعتها (١) » .

هذه القصة تبين لنا مدى الظلم والطغيان الذي حلّ بحكام بني إسرائيل ، حتى تجرؤا على قتل الأنبياء ، وسفك دماء الأبرياء من أجل شهوة طارئة أو في سبيل إرضاء رغبات أهل الفسق والضلال . المستهترين بحرمة الدين ، وقدسية الشرائع السماوية ، ولا عجب فإنّ بني إسرائيل (اليهود) هم أوّل من سنّ هذه السنة السيئة وهي (قتل الأنبياء) حتى أصبح ذلك شعاراً لهم ورمزاً لطغيانهم وضلالهم ، فمن (يحيى) إلى (زكريا) إلى التآمر على (المسيح عيسى) إلى أنبياء لا يحصى عددهم إلا الله سفكت دماؤهم بدون ذنب على أيدي أعداء الله (اليهود الخبثاء) وأعداء الإنسانية في كل حين وزمان ، وقد أخبرنا القرآن الكريم عن إجرام اليهود بقوله: ﴿ ويسعونَ في الأرضِ فساداً واللهُ لا يحبُ المفسدينَ ﴾ وقال تعالى في بيان قتلهم الأنبياء .

﴿ أفكلّمَا جاءكُمْ رسولٌ بما لا تَهْوَى أنفُسُكم استكبرتُمْ ففريقاً كذّبتُمْ ، وفريقاً تقتلونَ ؟ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ فلمَ تقتلونَ أنبياءَ اللهِ من قبلُ إنْ كنتم مؤمنينَ ؟ ﴾ .
وقال تعالى : ﴿ ويقتلونَ الأنبياءَ بغيرِ حَقّ .. ﴾ .

وفي حادثة مقتل يحيى عليه السلام قتل عدد كبير من العلماء الذين أنكروا على الحاكم طغيانه وظلمه ومنهم (زكريا) والد يحيى عليهما السلام ، ويشير بعض المؤرخين إلى أنه نشر بالمنشار بعد مقتل ولده يحيى كما مرّ سابقاً .

---

(١) انظر قصص الانبياء ص ٣٦٩ .

ويروى عن سعيد بن المسيّب أنه قال « لما قدم بختنصّر الشام إذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي ، فسأل عنه فأخبروه بما حدث له ، فَقَتَل على دمه سبعين ألفاً فسكن .. » وبذلك انتهى شأن يحيى عليه السلام بتلك المأساة المفجعة .

وروى الحافظ ابن عساكر عن زيد بن واقد أنه قال (رأيت رأس يحيى ابن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق ، أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذي يلي المحراب فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغيّر ، وفي رواية كانّما قُتِلَ الساعة) .

أقول : ليس هذا بغريب فقد ثبت في الحديث الشريف عن رسول الله أنه قال : (إنّ اللهَ حرّم على الأرضِ أنْ تأكُلَ أجسادَ الأنبياءَ) رواه أبو داود .

وجاء تلاميذ يحيى وأخذوا جثته بعد قتله فدفنوها ، ثمّ جاءوا إلى المسيح عيسى بن مريم وأخبروه بمقتل يحيى عليه السلام فحزن حزناً شديداً عليه ثم جهر بدعوته وقام في الناس واعظاً واتبعه خلق كثير إلى أن دبّر له اليهود مؤامرة لقتله واغتياله فرفعه الله إلى السماء ونجاه الله من كيدهم كما مر عند ذكر حياته.

خاتمة البحث

يلاحظ الدارس لحياة الرسل الكرام ، المتتبّع لتاريخهم ، المستقصي لأخبارهم المتأمل في ترابط أنسابهم ودعواتهم بعد ذلك الاستعراض الشامل لدعوة المرسلين نقاطاً هامة يمكن تلخيصها فيما يلي :

أولا : إنّ الله جل ثناؤه لم يقصص علينا أخبار جميع المرسلين ، الذين بعثوا إلى أهل الأرض ، وإنما ذكر منهم أهمّهم وأعظمهم أثراً في تاريخ البشرية وهم (أولو العزم) وبقية المرسلين الذين مرّ معنا ذكرهم ، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك ..﴾ الآية .

ثانياً : إنه لم تخل أمة من أمم الأرض من بعثة رسول لها ، فقد بعث الله تعالى إلى كل أمة رسولا كما قال تعالى :

﴿وإنْ من أمةٍ إلاّ خَلا فيهَا نذيرٌ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كلّ أمة رسولاً ..﴾ الآية .

ثالثاً : أنّ هناك بين آدم و (نوح) عليهما السلام فترة من الزمن تقدر بألف عام لم يذكر القرآن الكريم فيها من الرسل إلا (ادريس) عليه السلام ، وسكت عن غيره من الرسل ممن أرسلوا في تلك الفترة من الزمن .

رابعاً : أنّ الله تعالى قد قصّ علينا من الرسل الذين بعثهم بعد نوح عليه

السلام ، الرسل الذين انحدروا من سلالة سام ولد نوح فقط . ولم يذكر لنا غيرهم .

خامساً : إنّ إبراهيم عليه السلام هو من بعد نوح ومن ذريته لقوله تعالى في سورة الصافات بعد ذكر قصة نوح :

﴿ وإنّ من شيعَتِهِ لإبرَاهِيمَ . إذْ جاءَ ربّهُ بقلبٍ سليمٍ ﴾ .

سادساً : انّ الله تعالى قد جعل النبوّة والرسالة في ذرية (نوح وإبراهيم) لقوله تعالى في سورة الحديد :

﴿ولقد أرسلْنَا نوحاً وإبراهيمَ وجَعلْنَا في ذرّيتهما النبوّة والكتابَ ..﴾

سابعاً : انّ معظم الأنبياء المذكورين في القرآن الكريم وعددهم ثمانية عشر رسولاً ١٨ هم من ذرية إبراهيم من ولديه (إسماعيل واسحاق) إلا (لوط عليه السلام) فهو ابن أخ لإبراهيم قال تعالى : ﴿ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ وجعلنَا في ذريتهِ النبوّة والكتابَ ..﴾ .

ثامناً : إنّ إسماعيل عليه السلام قد نشأ في مكة وتزوّج من قبيلة عربية تسمى (جرهم) ثمّ جاء من سلالته خاتم الأنبياء والمرسلين وأفضل الأولين والآخرين سيدنا محمد ﷺ وبه ختم الله النبوّة .

تاسعاً : وأمّا اسحاق فقد نشأ في الشام ، وولد له ولدان : الأول يسمى (العيص) والثاني يسمى (يعقوب) وقد ظهرت النبوّة في سلالة العيص في الرسولين (أيوب) وولده (ذي الكفل) ، وأمّا يعقوب المسمى (إسرائيل) فقد ولد له اثنا عشر ولداً . هم أسباط بني إسرائيل أحدهم يوسف عليه السلام وجميع أنبياء بني إسرائيل هم من ذرية يعقوب عليه السلام كما تقدم .

عاشراً : الأسباط المذكورون في القرآن الكريم — وهم أولاد يعقوب — قد ظهرت فيهم النبوة على الشكل الآتي :

١ — سبط لاوي ظهرت فيهم النبوة في كلّ من الرسل المذكورين : (موسى . وهارون . وإلياس ، وإليسع) عليهم الصلاة والسلام .

٢ — سبط يهوذا ظهرت فيهم النبوّة في كل من الرسل المذكورين (داود وسليمان . وزكريا ، ويحيى ، وعيسى) عليهم السلام .

٣ — سبط بنيامين ظهرت فيهم النبوة في (يونس عليه السلام) والله تعالى أعلم .

تمّ الكتاب بعونه تعالى . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين
رجب الفرد ١٣٩٠ هـ

الفهرس